سمير الحجاوي

آلهة من ورق

القصة الكاملة للثورات العربية



سمير الحجاوي

آلهة من ورق

القصة الكاملة للثورات العربية

رقم الإيداع : ٢٠١٢/٢٩٤٩
الترقيم الدولى : ٥-٤٤١-٣١٣-٩٧٧-٩٧٨

الطبعة الأولى ٢٠١٢

مركز
المحروسة
للنشر و الخدمات الصحفية و المعلومات

قطعة رقم ٧٣٩٩ ش٢٨ من ش ٩ - المقطم - القاهرة
ت، ف : ٠٠٢-٠٢-٢٥٠٧٥٩١٧
e.mail : mahrosacenter@gmail.com

رئيس مجلس الإدارة : فريد زهران
الغلاف: محمد زمزمى

الطبعة الأولى ٢٠١٢

سمير الحجاوي

آلهة من ورق

القصة الكاملة للثورات العربية

الطبعة الأولى ٢٠١٢

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

الحجاوى، سمير

آلهة من ورق : القصة الكاملة للثورات العربية/ سمير الحجاوى. ط١.

القاهرة : مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات، ٢٠١٢

ص ٣٦٨ ؛ ١٧ × ٢٤سم؛

تدمك : ٥ ٤٤١ ٣١٣ ٩٧٧ ٩٧٨

١- الثورات.

٢- مصر – تاريخ – الثورات.

٣- تونس – تاريخ – الثورات.

٤- ليبيا – تاريخ – الثورات.

أ- العنوان.

٣٢١,٠٩

رقم الإيداع : ٢٩٤٩ - ٢٠١٢

الإهداء

إلى أمي فريزة وأبي محمد اللذان ربياني صغيرا

إلى زوجتي جميلةشريكة العمر في السراء والضراء

إلى أبنائي بتول ومحمد وشهد زينة الحياة الدنيا

مقدمة

من كان يتصور أن زعماء عرب أدمنوا حكم الشعوب بالحديد والنار سيتساقطون من عليائهم مثل الفراشات الدائخة ؟ ومن كان يتصور حكاما تخيلوا أنفسهم خالدون في السلطة إلى الأبد، هو وأولادهم من بعدهم سيصبحون أثرا بعد عين؟قبل السابع عشر من ديسمبر- كانون أول ٢٠١٠ لم يكن يتصور احد على الإطلاق أن أمرا كهذا سيحدث، لكن الشرارة انطلقت من سيدي بوزيد، حينما أشعل الشاب محمد البوعزيزي النار بنفسه، احتجاجا على صعفة لشرطية تمثل السلطة الباغية المستبدة .. هذا الشاب تمكن من تحريك كل العرب من المحيط إلى الخليج، فألهب ثورة أطاحت بطاغية تونس الهارب زين العابدين بن علي في اقل من شهر، ليحلق به فرعون مصر المخلوع حسني مبارك خلال ١٨ يوما ليقدم إلى المحاكمة وهو على السرير وراء القضبان في سابقة هي الأولى من نوعها في التاريخ العربي، فهو أول رئيس عربي يسقطه الشعب ويضعه خلف القضبان في محاكمة علنية، تحت أنوار الفلاشات وكاميرات التصوير في صورة لن تغيب أبدا عن الوعي العربي وستتخلد في التاريخ إلى ابد الآبدين، أما شريكهم في الاستبداد العقيد الليبي فكان أكثر دموية وسفك دماء ما يزيد عن ٥٠ ألف ليبي قبل أن يقتل مثل الجرذ في أنبوب للصرف الصحي، وكما القذافي يقتل زعيم النظام البعثي السوري بشار الأسد يوميا وبدم بارد وتحت سمع وبصر المراقبين الذي أوفدتهم جامعة الدول العربية، وكذلك شريكه في سفك الدم اليمني علي عبد الله صالح الذي يتقن المرواغة والرقص على رؤوس الثعابين كما قال.لكن الشباب العربي كان له رأي آخر وقفز من صفحات الانترنت والفيسبوك واليوتيوب والتوتير إلى الساحات والميادين والشوارع ليلقن هؤلاء الحكام دروسا سيسجلها التاريخ بأحرف من نور.. لقد خرجوا من العالم الافتراضي إلى العالم الحقيقي، ومن الاحتجاج المتخيل إلى التظاهر في كل مكان.. جمعوا حولهم الملايين من الناس الغلابى والفقراء والمثقفين والعلماء والسياسيين، نساء ورجالا، مسلمين ومسيحيين،

إسلاميين ويساريين وليبراليين.. كلهم تحدثوا بصوت واحد : الشعب يريد إسقاط النظام، لان القدر يستجيب لمطالب الشعوب كما قال الشاعر التونسي أبو القاسم الشابي، فقد صنعوا تاريخا جديدا للأمة العربية، تاريخ من الحرية والكرامة والعدالة، رغم الأراجيف والطابور الخامس والفلول والعسكر والغرب ومن يدفعون المليارات لإفشال الثورات.هؤلاء الشاب أطاحوا بآلهة الورق والأنظمة المارقة ونزعوا الرتب المزيفة عن الجنرالات وصنعوا "تسونامي عربي" اعترف به العالم للمرة الأولى منذ قرون طويلة.باختصار هؤلاء الشباب أعادونا إلى حلبة التاريخ مرة أخرى، من قصبة تونس وميدان التحرير في القاهرة وبنغازي ومصراتة في ليبيا وساحة التغيير في صنعاء، ومن درعا وحمص وحماة في سوريا .. أعادونا إلى التاريخ الذي سنعض عليه بالنواجذ لكي لا نخرج مرة أخرى .. فإلى كل هؤلاء الشباب اهدي كلماتي وروحي وهذا الكتاب.

آلهة من ورق

باسم الشعب الذي خرج إلى الشوارع هاتفا "الشعب يريد إسقاط النظام" .. باسم الشعب الذي تلقى الرصاص بصدره العاري إلا من الكرامة والعزة والأنفة والثورة .. باسم الشباب الذين أعادوا لمصر والمصريين والعرب الكبرياء والعزة.. باسم الذين قاتلوا دون أن يطلقوا رصاصة واحدة وانتصروا .. باسم الثورة المتحضرة البيضاء التي أطاحت بالظلم والدكتاتورية.. باسم كل هؤلاء يحق لنا الآن أن نرفع رؤوسنا في العالم ونقول ان العرب أيضا يتقنون صنع الثورات وتحقيق الانتصار مثلما حصل في بولندا وروسيا وجورجيا وأوكرانيا ودول أمريكا اللاتينية وإفريقيا.

نترحم على محمد البوعزيزي الذي أشعل الثورة التي أطاحت بدكتاتور تونس ليمتد لهيبها إلى مصر الكنانة ليلحق مبارك بين علي دون أسف .. ونترحم على خالد سعيد ذلك الشاب المصري الذي تصدى للطغيان في مصر فما كان من عسس الدكتاتور إلا هشموا رأسه وقتلوه بدم بارد دون أن يحسابهم احد على فعلتهم.

اثبت الشعب المصري أن لاشيء يقف في وجه الشعوب إذا ثارت لأنها إذا أرادت الحياة فان القدر يستجيب، واثبت الشعب المصري، وقبله الشعب التونسي، أن الطغاة آلهة من ورق تتهاوى بسرعة البرق أمام غضب الشعوب التي تأكل الطغاة وأجهزة أمنهم اتي تتسلط على الأبرياء.

نفرح بسقوط طاغية استعذب البقاء في السلطة حتى تحول إلى "رئيس مزمن" كالمرض الذي لا فكاك منه، يكتم على أنفاسنا ويخضعنا بسوطه وعسكره ومعتقلاته وزنازينه وأدوات تعذيبه وزبانيته .. نفرح لأننا بسقوطه نتنفس الحرية والكرامة.

نشعر بالفخر لشباب تونس وشباب مصر ونهتف معهم "والله وعملوها الرجالة" .. كان الهتاف "الشعب يريد إسقاط النظام" وتحول إلى تهليل وتكبير وإعلان بان " الشعب اسقط

النظام" وان ما أراده أولئك المرابطون في ميدان التحرير تحقق، فالفعل للثوار، ومن لا يريد أن يرتقي الجبال يبقى ابد الدهر في الحفر.

هنيئا للشعب المصري الثائر الذي اسقط الرئيس المزمن واسقط التوريث والنظام والفساد واسقط ترسانة القوانين المزيفة، ولم تنطلي عليه الأكاذيب والوعود المزيفة وسياسة الخطوة خطوة والإرباك والتشكيك وشق الصفوف.. لم تضحك عليه التصريحات المعسولة ولا الأحزاب الباحثة عن سلطة أو شرعية زائفة.. هنيئا لثوار مصر الذين اجبروا العرب على ضبط ساعاتهم على توقيت ميدان التحرير.

غادر مبارك الذي أراد ان يدخل التاريخ من بوابة :الرئيس الذي أراد ان يجلط شعبه" ويرفض التنحي .. غادر بعد أن لفظه ٨٩ مليون مصري .. غادر رغم انه لم يقف أمام الشعب ليقول "أنا افهم" كما قال سلفه التونسي.. بل أمعن في العناد وهو الذي "يحمل دكتوراه في العناد" كما قال وحاول اللعب في الوقت الضائع بلا جدوى.

ذهب مبارك واخذ معه نائبه عمر سليمان الذين لم يتركا خلفهما سوى الفقر والبطالة والمعتقلات والفساد والظلم .. رحل مبارك غير مأسوف عليه كما رحل زين العابدين من قبله وكما سيرحل كل الطغاة من بعده.

لقد كتب المصريون تاريخا مجيدا وفتحوا صفحة جديدة في تاريخ العرب .عنوانها "إرادة الشعوب لا تقهر".. ودشن المصريون والتونسيون والليبيون واليمنيون والسوريون "عصر الجماهير العربية " وسطروا أن الشعوب لا تغلب وأنها قادرة على الإطاحة بالفراعنة المستبدين لأنهم ليسوا أكثر من "آلهة من ورق" لا بقاء لها إذا هبت عليها عواصف الجماهير ..

وكل ثورة وشعب مصر بخير ..وشعوب تونس وليبيا وسوريا واليمن بخير .. والعرب بخير.

٢٠١١ .. عام الثورات العربية

سيبقى عام ٢٠١١ الميلادي في ذاكرة التاريخ عاما عربيا بامتياز، لن تمحوه الأيام، لأنه شكل انطلاقة الشرارة لأول حركة جماهيرية عربية للتغير والثورة على الظلم والفساد والاستبداد واسترداد الكرامة وتحقيق العدالة، ثورة أشعلها الشهيد العربي التونسي محمد البوعزيزي، ذلك الشاب القاطن في سيدي بوزيد، إحدى أفقر المناطق المهمشة في تونس.. ثورة أشعلتها صفعة الشرطية فادية حمدي للرجل الباحث عن رزقه ولقمة خبزه على عربة للخضار، صفعة أهانت رجولته وكرامته وشخصه، لكنها صفعة سمع صداها في كل أرجاء تونس والعالم العربي، لان فادية بوصفها ممثلة للسلطة الباغية الطاغية اعتدت على الشعب كله ممثلا في هذا الشاب الذي لم يمارس في حياته أي عمل سياسي، ولم يقدم نفسه أبدا على انه قائد ثوري، أو منظر أممي أو احد "أنبياء الخلاص"، أو زعيما في "التفسير الديالكتيكي" لقلب مسار التاريخ.. كانت ردة فعله ببساطة انه احرق نفسه عندما سدت في وجهه الأبواب، وصمت السلطة آذانها عن سماع صوته، فكان حريقا قدح شرارة النار التي أشعلت ثورة لا تزال ملتهبة حتى الآن، ولم يحتاج طاغية تونس زين العابدين بن علي أكثر من ٢٨ يوما ليسقط من عليائه، ويهرب برفقة الحلاقة "الكوافيرة" في جنح الظلام من قصر قرطاج، لتهيم طائرته في الجو بحثا عن ملجأ، ولم يطل الأمد حتى اندلعت ثورة ٢٥ يناير- كانون الثاني المصرية، لتكسر الرقم القياسي، وتطيح بطاغية مصر وفرعونها حسني مبارك خلال ١٨ يوما فقط، رغم وجود أكثر من مليونين من رجال الأمن المركزي، ونصف مليون عنصر من مباحث امن الدولة الذين عاثوا في الأرض فساد، واهلكوا الحرث والنسل، وافسدوا البلاد والعباد، وسرقوا، هم وطاغيتهم، أموالها وأهدروا ثوراتها، فكان لهم شباب مصر بالمرصاد، وحولوا ميدان التحرير إلى أيقونة مصرية وعربية وعالمية.. أيقونة تحاول كل دول الدنيا ان تصنع

مثيلا لها، من نيويورك وحتى موسكو، لأنهم غيروا وجه مصر وللمرة الأولى في التاريخ وللأبد، وأعلنوا نهاية حكم الفرعون المتأله الذي "لا يري الشعب إلا ما يرى"، وانتصروا على القتل وعلى بلطجية "موقعة الجمل"، واسقطوا راس النظام الذي تحول جسده إلى فلول يعيثون في الأرض فساد.. ثورة لم يكتمل انتصارها بعد لان "الجنرالات" الذي خلفوا مبارك في الحكم، ما زالوا يناورون للبقاء في السلطة، وهندسة المرحلة المقبلة لضمان نفوذهم وحضورهم الدائم في الحياة السياسية التي يتحكمون بها منذ عام ١٩٥٢، وهي محاولات محكوم عليها بالفشل، لان الشعب الذي اسقط مبارك، لن يقبل إلا باستكمال ثورته ورحيل الجنرالات من المشهد السياسي وتسلم السلطة وإدارة نفسه بنفسه.

أما في ليبيا فكانت القصة مختلفة، فعميد الحكام العرب وملك ملوك إفريقيا والقائد الأممي العقيد معمر القذافي لم يرى الشعب الليبي إلا مجموعة من "الجرذان" وقرر منذ اللحظة الأولى استخدام كل ما لديه من قوة و أسلحة لقتل الشعب الليبي الثائر، فلم يكن هناك مناص من التصدي لآلتة الدموية الا بالحرب، التي خاضها الشعب الليبي بمساعدة العرب وحلف النيتو، وانتصر الشعب الليبي بعد حرب دامية كلفته ٥٠ ألف شهيد، واسقط الطاغية الذين انكر معرفته بالشعب الذي حكمه ٤٢ عما وسأله باستنكار "من انتم؟"، وأخرجه من أنبوب للصرف الصحي كالجرذ، ونال القذافي نهاية تليق بطاغية، وعرضت جثته في مدينة مصراتة التي حاول محوها عن الخارطة، فحاصرها وسمم خزانات مياهها ليبيد أهلها، لكنها انتصرت عليه، وأدخلته التاريخ من بوابة العرض "في سوق الخضار" حتى يراه القاصي والداني ويكون عبرة لم يعتبر.

في اليمن لا تزال الثورة مستمرة، ولازال علي عبد الله صالح "يرقص فوق رؤوس الأفاعي"، ولا زال الشباب اليمني في ساحة التغيير في قلب صنعاء وفي تعز صامدون للإطاحة بالنظام العائلي للرئيس المزمن المدعوم عربيا ودوليا، والمحصن بمبادرة خليجية قدمت له طوق نجاة للإفلات من الحساب والعقاب، وهو ما يرفضه اليمينيون، لأنهم مصرون على الإطاحة به ومحاكمته، وهو ما سيحدث لان الشعوب ستنتصر مهما كانت "المبادرات والألاعيب وأطواق النجاة".

أما في سوريا فالملحمة لا تزال مستمرة، والنظام البعثي الدموي بقيادة زعيمه بشار الأسد وشقيقه ماهر، مستمر بسفك الدماء وقتل الأبرياء وتحويل المدارس إلى معتقلات وتعذيب الجرحى على أسرتهم في المستشفيات، نظام قتل المغني إبراهيم قاشوش واقتلع حنجرته، وكسر أصابع الفنان ورسام الكاريكاتير علي فرزات، وأعلن جائزة لمن يقتل حارس فريق الكرامة عبد الباسط صاروت، لأنهم انحازوا إلى الثورة.. نظام يقتل الناس ويستمر بشراء

الوقت والحصول على مزيد من المهل لسفك المزيد من الدماء في الشوارع التي تحولت إلى حمامات للدم، لكن هذا النظام الدموي الذي قتل ٤٢ ألف شخص في حماة عام ١٩٨٢ وقتل الآلاف في جسر الشغور وحمص ودرعا ودير الزور وريف دمشق سيسقط لا محالة، مهما منحته "اللجان العربية" من مهل، وحتى لو شهد رئيس وفد المراقبين العرب إلى سوريا، بان الوضع في حمص المحاصرة مستقر رغم وجود ٧٠ ألف متظاهر، وللمفارقة المخزية ان هذا الرجل متهم بارتكاب جرائم حرب في دارفور

الثورة مستمرة في سوريا واليمن، والثورة الناعمة المطالبة بالإصلاح في الأردن تتواصل أسبوعيا، وفي البحرين تنادي طائفة من الشعب بالعدالة، والحراك الداخلي يعتمل في كل المدن العربية من المحيط إلى الخليج بحثا عن الحرية والعدالة والكرامة ...

عام ٢٠١١ عام العرب التاريخي، انه عام الثورة العربية، وعام التغيير واسترداد الوعي والمبادرة، عام البحث عن الذات وامتلاك حق المصير، وتدشين عودة السلطة للشعب .. انه عام الربيع العربي الذي أزهر وأينع، وكشف النقاب عن جيل جديد من الشباب العرب.. جيل يصنع التاريخ ولا يتفرج عليه من مقاعد المشاهدين.

الأنظمة المارقة

كشفت الثورات العربية المتتالية عورات الأنظمة العربية بشكل مفضوح، فهي لم تتردد باستخدام كل ما في جعبتها من عنف ضد الشعوب التي تطالب بحقها في الحرية والكرامة والعدالة، سواء كان عنفا عسكريا مباشرا أو عنفا مستترا خلف "البلطجية" أو "البلاطجة" كما يحلو لأهل اليمن تسميتهم، الأمر الذي يطرح تساؤلات جدية عن شرعية هذه الأنظمة وأهليتها للحكم.

ورغم التباين الشكلي لهذه الأنظمة إلا أنها تلتقي في احتكار السلطة والثروة وضلوعها في الفساد بمختلف أنواعه، واستخدامها نفس أساليب الحكم البالية ونفس الخطاب الخشبي المتصدع، وكشفت الثورات العربية أنها تستخدم نفس الأساليب، وتقع في نفس الأخطاء دون أن تتعلم من بعضها البعض، وكان الله أعمى بصرها وبصيرتها.

فعندما سال وزير الخارجية المصري السابق احمد أبو الغيط عن إمكانية انتقال الثورة من تونس إلى مصر أجاب متهكما " ده كلام فارغ، إحنا مش تونس"، وخرج الرئيس المخلوع مبارك ليقول هازئا عمن وصفهم بالأولاد في ميدان التحرير "خليهم يتسلوا"، وعلق احمد شفيق آخر رئيس حكومة لمبارك بقوله" خليهم في الميدان وإحنا حنويدلهم شاي الصباح"، إلا أن أولاد ميدان التحرير كان لهم رأي آخر فحلوا الكلام الفارغ إلى فعل جاد وتسلوا بالرئيس وأسقطوه وبعثوا بأحمد شفيق إلى بيته ليستمتع بالشاي هنا.

الأمر نفسه تكرر في ليبيا بعد أن خرج الليبيون للمطالبة بالحرية وحقهم بحكم أنفسهم فما كان من سيف القذافي نجل العقيد إلا أن قال " إحنا مش تونس أو مصر"، وهدد بحرق الأخضر واليابس وهدد والده بتحول ليبيا إلى جمر ونار حمراء، ذات العدوى انتقلت إلى

اليمن التي اعتبر فيها الرئيس على عبد الله صالح أن اليمن "لا تشبه تونس ومصر وليبيا"، إلا أن القناصة الذي قتلوا ٥٤ معتصما في ساحة التغيير اثبتوا أنهم لا يختلفون عن القناصة في تونس ومصر، وعن "أبطال موقعة الجمل" في ميدان التحرير.

وفي سوريا قال الرئيس بشار الأسد أن بلاده تختلف عن الدول العربية الأخرى، وأنها محصنة ضد الثورة لان سوريا من دول الممانعة ولم توقع صلحا مع إسرائيل وبذلك فهي تلتقي مع الشعب، فلماذا سيثور؟، لكن الأيام دارت وثار الشعب السوري لأسباب لا تتعلق بالممانعة بل لأسباب داخلية شعارها "الله سوريا الحرية وبس"، خرج باحثا عن الحرية تماما مثلما حدي ويحدث في الدول الأخرى، وفي الأردن تولى البلطجية بالاعتداء على المتظاهرين أمام المسجد الحسيني في وسط عمان، وقاموا بغزوتهم الكبرى في ميدان جمال عبد الناصر "دوار الداخلية" ضد المعتصمين هناك تحت أنظار أجهزة الأمن مما أدى إلى مقتل شخصين وجرح ١٠٠.

في جميع الحالات كان العنف هو سيد الموقف، من العنف الخفيف باستخدام الحجارة والهراوات والأسلحة البيضاء إلى العنف الثقيل باستخدام القناصة والمسدسات والرشاشات وصولا إلى استخدام الأسلحة الثقيلة من دبابات وراجمات صواريخ وصورايخ وطائرات مقاتلة بل وسفن حربية.

في كل حروب العرب مع إسرائيل لم نسمع عن سفينة حربية عربية واحدة قصفت إسرائيل، لكن السفن الحربية للقذافي قصفت الشعب الليبي في مصراته وغيرها من المدن، وشاهدنا على الفضائيات الدبابات وراجمات الصواريخ وهي تنتشر كالجراد حول المدن الليبية لقتل الشعب الليبي الذي اشتريت هذه الأسلحة بأمواله.

استخدام أنظمة عربية لكل هذا العنف ضد الشعب الأعزل يجعل من الضروري تضمين القانون الدولي مصطلح جنائي جديد إلا وهو "الأنظمة المارقة" على غرار مصطلح "الدول المارقة"، فالنظام الذي يستخدم الدبابات والطائرات والصواريخ لقتل شعب اعزل "نظام مارق" يجب محاسبته من رئيسه إلى اصغر جندي فيه، فمن غير المعقول ترك هذه الأنظمة بلا حساب أو عقاب.

ماذا ستقولون لربنا

استحوذ على انتباهي صورتين، صورة جندي يجر الرئيس العاجي السابق لوران باغبو، من رقبته وهو يرتدي ملابسه الداخلية، وصورة "الأمين" العام للحزب الوطني صفوت الشريف وهو يقاد من قبل عساكر إلى سيارة "بوكس" لنقله إلى السجن إلى جانب بعض أعضاء "عصابة الحكم السابقة" في مصر مثل زكريا عزمي وزهير جردانة واحمد عز والمغربي وآخرين ممن كان يمشي الواحد منهم على الارض ويقول "يا ارض تهدي .. ماعليك قدي".

في ظل هذا المشهد المرئي كان هناك جزءا آخر غير مصور وهو مشهد الرئيس المخلوع حسني مبارك وهو ينقل من المستشفى في شرم الشيخ إلى المطار بحراسة أمنية مشددة في طريقه إلى السجن في القاهرة، بعد صدور قرار بحبسه وولديه علاء وجمال، في صورة تاريخية لا نراها بأعيننا لكنها تعبر عن تغيير جذري في بنية المجتمع المصري الذي تسلط عليه "الحاكم بأمره" حكم البلاد والعباد بدون حسيب أو رقيب، وكان الشعب المصري أراد أن يمسح ٧٠٠٠ سنة من حكم الفراعنة والآلهة والأصنام.

الشعب اسقط الرئيس الصنم الذي قال ذات يوم "إن الله وحده يعرف من هو خليفته"، ووضعه تحت الإقامة الجبرية في شرم الشيخ هو وزوجته وأبنائه، رفض الشعب كل التنازلات التي قدمها " الرئيس الصنم" وأبى إلا أن يخلعه ويحاكمه، وأراد أن يرد له جميل ٣٠ سنة اقترف فيها نظامه كل الموبقات .. جوع الشعب واسكنه المقابر والعشوائيات ونهب الثروة واستعبد الناس واعتقلهم بدون محاكمات ورفض الإفراج عن المعتقلين السياسيين الذين تجاوز عددهم ١١٠٠٠ معتقل، وأعطى إسرائيل الغاز مجانا، وتآمر على الشعب الفلسطيني وشارك في حصار غزة وتجويع وخنق مليون ونصف مليون فلسطيني وأضاع كرامة مصر وأنهكها وهو يبحث عن التوريث، وضيع وزنها السياسي في المنطقة والعالم وجعلها "ملحقا" بلا قيمة، ووزع الأرض والأموال على المحاسيب وفتح البلد "عشرة بلدي" لكل من هب ودب

على حساب قوت الشعب المصري، ووقف ذات يوم ليقول للمصريين" ءاكلكم منين"، ومليارات الشعب يسرقها وزبانيته وتودع في بنوك الغرب .. أموال قدرها الخبراء ما بين ٢٠٠ إلى ٣٠٠ مليار دولار.

وفي النهاية لجا إلى بث تسجيل صوتي ليهدد بمقاضاة الشعب، تماما مثل التسجيلات الصوتية التي يبثها الهاربون، وكأنه لم يكن يوما رئيسا تسبح أجهزة الإعلام باسمه صباح مساء.

زعيم آخر يعتبر نفسه "إلها" يخاطب الشعب ويسأله "من انتم" وكأنه يتعامل مع نكرة ويحاصر مصراتة ٥٤ يوما حتى يومنا هذا ويجوع أهلها، ويقطع الماء والغذاء والخبز والدواء ويسمم الآبار ويهدد بنار حمراء، وزميل له في جنوب الجزيرة العربية يقول للشعب "فاتكم القطار"، ويبعث بالقناصة ليقتلهم بالرصاص في ساحة التغيير، وآخر في الشام يحاصر درعا وبانياس بالدبابات، ويبعث بالشبيحة لاستباحة اللاذقية والبيضا، ويعتقل كل بالغ في القرى الثائرة، وينفذ اعتقالات جماعية ويمنع علاج المصابين ويخطف الجرحى من المستشفيات وتطلق النار على سيارات الإسعاف.

المشهد مركب في ليبيا واليمن وسوريا .. مدن محاصرة .. مياه وكهرباء واتصالات مقطوعة.. منع وصول الغذاء والدواء وقطع الخبر .. تسميم آبار المياه وتدمير المخابز.. اعتقالات الجماعية.. قتل إجرامي.. استعانة بالمرتزقة.. اغتصاب الرجال والنساء.

زعيم يهدد الشعب بنار حمراء ورئيس يهدد الشعب بمعركة طويلة ورئيس يتوعد بحرب أهلية ورئيس أعادنا إلى زمن معركة الجمل و"البلطجية والبلاطجة والشبيحة" وقوات امن ملثمة بأقنعة سوداء .. فهل الشرعية تخفي وجهها.

رئيس يشتم الشعب ويصفه انه "جرذان" وآخر يعتبر الشعب "خونة" وثالث يرى الشعب "خوارج" ورابع يعتبر الشعب مجموعة من "المخربين" وهو، بالمناسبة، الوصف الذي تستخدمه إسرائيل لوصف الفدائيين الفلسطينيين.

وفي النهاية .. الرئيس المخلوع في مواجهة "يوم الحساب"، حساب الشعب، فماذا عن حساب اليوم الآخر، أمام الله سبحانه وتعالى، ماذا سيقول الرئيس والزعيم والعقيد والعميد عندما يسال عن الدماء التي سفكها، وعن عذابات المظلومين، وعن نهب الثروات، وعن إذلال البشر .. ماذا سيقولون لربنا، بماذا سيجيبون.

تعلمنا في الجامعات أن لا نذكر الله عندما نحلل السياسة لكي نحافظ على ما يسمى "بالموضوعية"، ولكن هل يمكن تفسير ما يجري في العالم العربي إلا "بالمعجزة" التي حدثت عندما ثارت الشعوب وحطمت الأصنام وخلعت من كانوا يعتبرون أنفسهم "مخلدين" إلى الأبد، إنها معجزة إلهية..إنها إرادة الله التي أشعلها ذلك التونسي محمد البوعزيزي في سيدي بوزيد، حتى بت اشك ان البوعزيزي من "الأولياء والقديسين".. فكيف استطاع أن يفجر كل هذا الغضب وينفث كل هذه النار من صدور العرب.

غضبة التونسيين

محمد البوعزيزي .. شاب يبلغ ٢٦ عاما يعمل بائعا متجولا للخضار والفواكه في مدينة سيدي بوزيد التونسية.. أشعل النار في نفسه احتجاجا على مصادرة الشرطة بضاعته بحجة عدم امتلاكه ترخيصا، فلم يجد هذا الشاب الذي فقد مصدر رزقه وسيلة يعبر فيها عن غضبه واحتجاجه وقرفه من الوضع المتردي سوى "حرق" نفسه.

غضب محمد البوعزيزي أدى إلى غضب التونسيين في مدينته سيدي بوزيد وخروجهم للتظاهر والاحتجاج.. وهي الاحتجاجات الغاضبة التي توسعت وانتقلت إلى تونس العاصمة ومدن القصرين ومدنين وقابس وبنزرت وسوسة وبن قردان والقيروان وجزيرة قرقنة وقفصة والكاف وباجة وقبلي وغيرها من المدن والبلدات التي لم نكن نعرفها وصارت معروفة لنا الان.

لا يعبر محمد البوعزيزي والشبان الثلاثة الذين حاولوا الانتحار احتجاجا على أوضاعهم المعيشية عن أنفسهم فقط بوصفهم "حالات معزولة"، بل يعبرون عن كل العاطلين عن العمل والفقراء في تونس والعالم العربي كله، فالشباب التونسيون والعرب يعانون من الإحباط والمستقبل المغلق بسبب السياسات الفاسدة وخطط التنمية الوهمية والتلفزيونات الرسمية التي لا تتحدث إلا عن "معجزات اقتصادية"، لا يراها إلا " سدنة الإعلام الرسميين".

يمكن تصنيف الدولة العربية القطرية في مرحلة ما بعد الاستعمار بأنها "دولة الكفاف العربية" التي تؤمن لشعوبها "الخبز مقابل الصمت"، مع استثناءات تعد على أصابع اليد لدول يمكن أن نسميها"دولة الرعاية"، في حين غابت دولة الرفاه كليا عن المشهد العربي.

تقبع تونس بين "دول الكفاف العربية"، وهي دولة استطاعت تحقيق بعض الانجازات بعد الاستقلال مثل رفع مستوى التعليم والصحة وبناء بنية تحتية معقولة، وبناء جملة من المشاريع الخدمية، وحافظت على استمرارية اقتصادية في حدها الأدنى، إلا أن هذه الانجازات تعرضت في السنوات الأخيرة إلى الاهتزاز، بسبب ارتفاع معدل البطالة بنسبة تصل إلى ١٥ في المائة حسب الأرقام الرسمية وما يزيد عن ٢٥ في المائة حسب إحصائيات أخرى، وتزايدت نسب الفقر فيها إلى

١٣ في المائة رسميا وأكثر من ذلك بكثير حسب أرقام مستقلة، في حين وصلت المديونية التونسية إلى ١٨ مليار دولار، وتفاقم العجز في الموازنة مما الجأ الحكومة التونسية إلى الاقتراض الخارجي لسد العجز وتمويل الموازنة، يضاف الى ذلك اعتماد الاقتصاد التونسي على الأسواق الأوروبية التي تستوعب أكثر من ٨٢ في المائة من الصادرات، وسيطرة رأسمال المال الأجنبي على ٨٧% من الشركات التي تم خصخصتها في تونس، ومن هنا فان اعتماد الاقتصاد التونسي على الأسواق الأوروبية جعله عرضة التقلبات والتأثر نتيجة تراجع الطلب الخارجي وانكماش الطّلب الدّاخلي مما رفع نسب البطالة والفقر، وتشير تقارير اقتصادية تونسية مستقلة إلى أن الأزمة في تونس بدأت عام ٢٠٠٨ وتعمقت بعد ذلك، وبلغت أوجها العام الحالي، إذ تراجعت الصادرات بنسب تتراوح بين ١٧% - ٢٣,٧% في مختلف القطاعات، وتؤكد دراسة مولها البنك الدولي ارتفاع البطالة بين حملة الشهادات العليا التونسيين والفنيين المهرة، تتركز غالبيتهم في محافظات الوسط والجنوب والشمال الغربي.

وإلى جانب المشاكل الاقتصادية تعاني تونس من الانسداد السياسي، والافتقار إلى الحريات حسب تقارير للمنظمات الدولية ووثائق أمريكية سربها موقع ويكيليكس ، وفي هذا الصدد تقول برقية للسفارة الأمريكية في تونس " معظم المواطنين التونسيين يشعرون بالإحباط بسبب غياب الحريات السياسية، وارتفاع مستوى البطالة، والفساد في السلطة، وعدم المساواة، كما يشكل التطرف تهديدا متواصلا، و يفاقم المشكلة أن الحكومة التونسية لا تتحمل أي انتقاد أو حتى نصيحة سواء على المستوى المحلي أو الدولي، وبدل ذلك تشدد الحكومة التونسية الرقابة أكثر من أي وقت مضى، بما في استخدام الشرطة.. "والنتيجة: تونس مضطربة، وعلاقاتنا معها أيضا".

هذه الخلاصة هي مختصر تقرير مطول بعثه روبرت جوديك السفير الأمريكي السابق تونس في ١٣ تموز يوليو من العام الماضي إلى وزارة الخارجية الأمريكية حمل عنوان "تونس المضطربة.. ماذا ينبغي أن نفعل" ، ويضيف السفير الأمريكي في تقريره الذي سربه موقع ويكيليكس،إلى إن"التغيير الحقيقي في تونس يحتاج إلى انتظار رحيل بن علي،ويقول "الرئيس بن علي على أعتاب الشيخوخة، ونظامه متصلب ولا توجد مؤشرات واضحة حول خليفته المنتظرة".

وفي برقية أخرى للسفارة الأمريكية في تونس بعنوان " ما هو لكم هو لي" يعود تاريخها إلى يونيو- حزيران ٢٠٠٨ قالت أن الرئيس التونسي زين العابدين بن علي "محاط بما يشبه المافيا" وأن "النظام التونسي لا يقبل نصحا ولا نقداً" وساقت السفارة الأمريكية أمثلة على إساءة استخدام السلطة والنفوذ من قبل أقرباء الرئيس التونسي، فهل تكفي العبارات التي صاغها السفير الأمريكي لتبيان أسباب انفجار غضب التونسيين.

صفعة أججت ثورة

كيف يمكن لصفعة أن تؤجج ثورة؟ وأن تخرج من الصدور كل الاحتقان وتحوله إلى غضب عارم؟ وكيف يمكن لقشة أن تقسم ظهر بعير؟ ليس ثمة في الدنيا قشة تستطيع أن تقتل جملا، لكن ثقل الحمل هو الذي يقتله.

القشة التي دفعت الشاب التونسي محمد البوعزيزي إلى حرق نفسه لم تكن إلا بصقة وصفعة وجهتها اليه شرطية، لا لشيء إلا انه يبيع الخضار والفواكه على عربة جوالة في مكان لم يرق لها، وبما أن الشرطية تمثل السلطة فان ذلك يعني بالضرورة أن المكان الذي يقف فيه لم يرق للسلطة أيضا، وبالتالي فان السلطة هي التي بصقت في وجهه وصفعته. ورغم انه يحمل شهادة جامعية رضي من حطام الدنيا أن يجر عربة يبيع عليها الخضار رغم السنوات التي قضاها على مقاعد الدراسة وتحصيل العلم.

هذا الشاب العشريني، لم يحرق نفسه بعد أن بصقت الشرطية في وجهه وصفعته، بل بعد أن رفضت الولاية، قبول شكواه ضد الشرطية التي أهانته، أي رفضت شكواه ضد السلطة، فما كان منه إلا أن احرق نفسه في فعل غضب واحتجاج ضد الظلم والفقر والبطالة والتعسف .. ولان البوعزيزي لا يتقن لغة العنف ضد الآخر، حتى لو كانت السلطة، صب جام غضبه على نفسه، فهو لا يستطيع أن يطلق سهام غضبه ضد من اعتقله في ملابسه وحول عظام قفصه الصدري إلى قضبان زنزانة وجعل من جلده غلافا لملف "امني" يحصي عليه أنفاسه وسكناته ووساوسه وهمساته وأحلامه.

غضب كسر القمقم واخرج مخزون الغضب من صدور آلاف الشباب الذين ضاقت بهم سبل العيش، فخرجوا إلى الشوارع وواجهوا "السلطة" التي لم يستطع البوعزيزي أن يواجهها احتجاجا على التردي والقمع وسيطرة العقلية الأمنية التي لا تقبل ممن يتوجع أن يقول "آخ"

لان الإعراب عن الألم "مؤامرة على الدولة وحط من هيبة الحكم"، ولان من يجرؤ على الكلام يجب أن يلجم ويقطع لسانه ومن يحتج في الشارع يجب أن يقتل، كما حدث مع الشابين محمد العامري وشوقي الحيدري، وهما ممن نالوا حظا من العلم، فالأول يحمل شهادة الأستاذية "بروفسور" في الفيزياء، عاطل عن العمل منذ تخرجه،قتل بعيارين ناريين في الصدر. والثاني يحمل شهادة الهندسة في البرمجة المعلوماتية ،قتل بعيار ناري في العمود الفقري وثان في الكتف. وقبلهما بالطبع أقدم الشاب حسن بن صالح ناجي على الانتحار صعقا بالكهرباء بعد أن تسلق عمودا وامسك أسلاك كهرباء بقوة ٣٠ ألف فولت.

السلطة في العالم العربي لا تتراجع أبدا "من اجل الحفاظ على هيبة الدولة".. حتى لو كانت هذه الدولة فاسدة ويعشش فيها الخراب وبكل بساطة تبرر: رجال الأمن "اضطروا" إلى استعمال السلاح في نطاق الدفاع الشرعي عن أنفسهم"..

وبعد كل هذا يقولون لماذا ينتشر العنف في العالم العربي؟ ولماذا ينضم الشباب إلى الجماعات المتطرفة؟ ولماذا يفخخ شاب نفسه ويتطاير أشلاء في السماء؟ .. الم يتطاير البوعزيزي رمادا في الهواء أيضا عندما عجز عن ابتلاع الإهانة.

لا يمكن أن يستمر الوضع في العالم العربي على ماهو عليه .. قد تستطيع السلطة، أي سلطة عربية، أن تكمم الأفواه لبعض الوقت، لكنها لن تستطيع أن تكممها إلى الأبد، وقد تتمكن من لجم الغضب لبعض الوقت لكنها لن تستطيع أن تلجم الغضب كل الوقت.

يحتاج الشباب في العالم العربي إلى بصيص من الأمل لتفكيك عناصر الغضب والاحتقان قبل أن ينفجر... ويكفي أن نلقي نظرة على عالمنا العربي لنرى خارطة العنف القائم والعنف المحتمل والعنف القابع تحت الرماد.

اعتقال الجنرال

يطل الزعيم من برجه العاجي ليتهم الشعب، كل الشعب، بالإرهاب، فثورة الناس من اجل الخبز والحرية والاحتجاج على الجوع والفقر والبطالة والفساد وخنق الحريات و الاهانة هي الإرهاب بعينه، والشعب ليس أكثر من "عصابة ملثمة تنفذ عملا إرهابيا لا يمكن السكوت عنه" والصراخ من الجوع والقهر تقوم به فئة ضالة من "المناوئين المأجورين ضمائرهم إرهابية متطرفة تحركهم أياد من الخارج تحث على الشغب ولا تتورع عن توريط التلاميذ والعاطلين عن العمل"بالتسبب في الاضطرابات والخروج إلى الشارع بنشر شعارات اليأس الكاذبة، وافتعال الأخبار الزائفة" وبالطبع فان هؤلاء "المناوئين المأجورين المسيرين من الخارج "لا يكنون الخير لبلد حريص على العمل والمثابرة"

هذا الزعيم الضرورة والتاريخي ينهي كلامه بان صراخ هذا الشعب المأجور الذي يقوم ب"إحداث لا يمكن أن تفل من عزمنا " عزم النظام طبعا" ولا أن تنال من مكاسبنا " مكاسب النظام أيضا"، رغم ما يقوم به هذا الشعب المأجور من تشويه لصورة البلاد الزاهية.. ويتمادى أعوان الزعيم الضرورة ويقول شاعره المبجل:" إن حركات التطرف الديني والحركات المتطرفة من اليسار تسللت إلى هذه الاحتجاجات ودفعتها إلى العنف".. ولهذا لابد من اعتقال الجنرال، وهو بالمناسبة ليس جنرالا عسكريا بل "جنرال موسيقى"، لم يحمل في يده يوما بندقية، فما الذي أخاف الزعيم الضرورة والجنرال المدجج بالسلاح من "الجنرال الموسيقي" الذي غنى وخاطب "ريس البلاد" فوقع في قبضة البوليس، ورد الزعيم على احتجاج الشعب بحجب المواقع الالكترونية واعتقل المثقفين والكتاب والمطربين وضرب القضاة واعتقل محامين واقتحم الجامعات ونكل بالطلاب وأطلق النار الحي على المتظاهرين في الشوارع وقصف المحتجين بقذائف الغز المسيلة للدموع ونشر القناصة على أسطح المنازل والبنايات، وعندما لم يجدي هذا كله نشر الجيش في الشوارع بمدرعاته وحاصر المدن..

رغم كل هذا الاحتجاج وسيل الدماء لا يعترف هذا الزعيم الضرورة بان هناك أزمة عميقة بسبب وجوده هو لا غيره، وهو وجود سبب أزمة في السياسة والاقتصاد، واوجد بيئة مناسبة لازدهار الفساد وانتشار المفسدين.

لماذا يلجا الزعيم الضرورة الى استخدام "الخطاب الخشبي" نفسه ويعتبر الشعب قاصر وغير قادر على "إدراك النعمة التي يرفل فيها" ويتعجب كيف تعجز عيون الناس عن مشاهدة "المعجزة الاقتصادية"، وكيف يتنكر للانجازات والتطور.. انه "شعب إرهابي ناكر للجميل"، لا يليق به سوى القناصة على أسطح المنازل.

لا يظنن احد إنني أتحدث عن بلد عربي، معاذ الله، بل أتحدث عن زائير موبوتو سيسي سيكو، الذي اتهمته صحافية بانه دكتاتور؟ فطالبها بان تبرز الدليل على ذلك، فقالت ألا تسمع المظاهرات في الشوارع التي تطالب برحيلك؟ فرد عليها: هذه قمة الديمقراطية، فالزائيريون أحرار بان يطالبوا برحيلي وأنا حر في أن ارفض وأقول لهم:لا!!.. هذا في زائير القابعة في قلب إفريقيا وليس في الدول العربية، التي لا اقترب منها حتى لا يمنع مقالي.

ومن إفريقيا انتقل بعيدا إلى أمريكا اللاتينية ..هناك حيث يقبع "الجنرال في متاهته" كما كتب ذات يوم الكاتب الكولومبي الشهير غابرييل غراسيا ماركيز ليحرق الزمن في "١٠٠ سنة من العزلة" ووصولا إلى "خريف البطريرك" بالطبع، حيث يسقط من برجه العاجي غير مصدق أن الشعب يكرهه.

وكما في الرياضيات والفيزياء "نقاطا حرجة" ينكسر عندها الخط ليغير مساره، فللشعوب "خطوط للدم"، إذا عبرتها فلن تعود إلى الوراء لأنها تكسر بهذا كل مفاهيم الخوف والتخويف ..فهي أصلا لا يوجد لديها ما تخشى عليه سوى القهر والجوع والبطش.

كيف يمكن لشعب في الدنيا أن يتفاهم مع حاكم يعتبره شعبه "عصابة ملثمة إرهابية مأجورة".. حاكم يمارس السحر ويخلق في ٥ دقائق ٥ مليارات دولار و٣٠٠ ألف وظيفة للعاطلين عن العمل عجز في إيجادها خلال ٢٣ سنة من الحكم ..هل يمكن لأحد في الدنيا أن يصدق ذلك...

أصر أنني لا أتحدث عن أي دولة عربية، وكل تشابه في الأحداث رغم عدم ذكر الأسماء هو تشابه غير مقصود؟؟!!

التونسيون يخلعون الجنرال

رياح التغيير تهب على العرب من تونس الخضراء، فقد دشن التونسيون مرحلة جديدة في حياة الأمة العربية، ولم يحتاجوا إلا إلى ٢٧ يوما من "الثورة الخضراء"، لخلع الجنرال الذي حكمهم بالحديد والنار والرعب ٢٣ عاما، واثبت هذا الشعب الكبير المثقف المتعلم أن البطش لا يمكن أن يهزم الدم، وان الخوف لا يمكن أن يهزم الإرادة، وان الحرية والكرامة أغلى من كل شيء.

أربعة أسابيع فقط دفع فيها الشعب التونسي ضريبة الدم ثمنا للحرية، ٩٠ شهيدا و١٠٠٠ جريح، كانت كافية لإزاحة الكابوس، وإسقاط "الجنرال" بالضربة القاضية، ودفعه إلى الفرار مذعورا من غضبة الشعب الذي أراد الحياة، فاستجاب له القدر كما بشر بذلك شاعر تونس والعرب أبو القاسم الشابي.. فر "الجنرال" الذي كان يسبح الإعلام الرسمي والمنافقون باسمه ليلا نهارا، ويتحدث عن "معجزاته وكراماته ورؤاه الثاقبة"، وكيف انه هو الماضي والحاضر والمستقبل.

تونس تصنع تاريخا جديدا للعرب،لأنها أعادت إحياء الأمة من جديد، وبددت مقولة أن "الشعب العربي ميت" وأثبتت أن الشعب العربي حي قادر على صنع التغيير، فالعرب يصبرون كثيرا وطويلا ولكنهم عندما ينزلون إلى الشارع فان ذلك يعني نهاية الصبر والتحمل، والإصرار على التغيير.

لم تشذ "الثورة الخضراء" في تونس عن القاعدة، فقد كانت على موعد صحيح مع التاريخ، وسارت على نفس السنن الصحيحة للانتصار، وعبرت "خط الدم" بنجاح وأعلن التونسيون أن لا عودة إلى الوراء وان عهد الاضطهاد والعنف والدكتاتورية والتسلط والقمع والاعتقال والتعذيب والرعب والخوف قد انتهى ووصل خط النهاية.

أسقطت الثورة الخضراء الرأس، لكن الذنب مازال موجودا .. انهار الجنرال لكن الحاشية والأتباع والمليشيات، لا يزالون في المشهد، يحيكون الخيوط بالأعيب ما يسمى القانون، الذي

لم يحترموه خلال ٢٣ عاما، وهنا مكمن الخطر، فالثورات تشعلها الشعوب ويقودها الأبطال ويقطف ثمارها المحتالون، ولابد من الحذر من المحتالين، الذين يعطون من طرف اللسان حلاوة ويروغون كما يروغ الثعلب.

في الحياة إذا قطعت راس الأفعى فان الذنب يموت بعد ذلك مهما تحرك، وفي السياسة إذا قطعت الرأس وبقي الذنب فان هذا الذنب ينبت رأسا جديدة، ولهذا لابد من التخلص من الذنب كي لا ينبت راس دكتاتور جديد يعيد الأمور إلى المربع الأول وتذهب التضحيات هدرا وتضيع الدماء المسفوكة في الشوارع.

المحتالون على الثورات يلجئون إلى التنفيس والتخدير بالوعود والأراجيف والأكاذيب التي لا تنهي، وهؤلاء الذي أدمنوا على الكذب ٢٣ عاما لا يمكن أن يصدقوا، وهم كفرعون الذي أعلن إيمانه برب موسى عندما اشرف على الغرق فقط.. ولم يكن ليؤمن قبل ذلك، ولم يكن ليتنازل عن اعتبار نفسها إلها بوصفه "ربكم الأعلى" كما ورد في القران الكريم، وهذا يتطلب الحذر من " لصوص الثورات" الذين يمتطون ظهور الشعوب لتفكيك مطالب الناس والاحتيال عليهم.

تونس علمتنا دروسا كثيرة، والتونسيون قدموا الدرس العملي لقوة الشارع إذا تحرك، وعلمتنا أن الأنظمة البوليسية القمعية الفاسدة لا يمكن أن تنجو من الناس إذا غضبوا وثاروا.. وعلمنا التونسيون أن شهرا واحدا يكفي لتغيير المشهد، وقلب المعادلة والإطاحة "بالجنرال" وإجباره على الهروب بطائرة ضلت طريقها في الأجواء وهي تبحث عن ملجأ .. فالجنرال صب الرعب في القلوب ودفع الكثيرين من أبناء تونس إلى البحث عن ملاجئ آمنة على وجه البسيطة، تجرع من نفس الكأس المر الذي شرب منه التونسيون، فطائرة الجنرال لم تعرف أين تذهب فتارة إلى الشمال، فتوصد أبواب باريس أمام "الصديق القديم"، وترفض أن تمنح إذنا لطائرة "الجنرال" بالهبوط، وينفذ البنزين في الطريق وتشفق عليه أيطاليا لتزوده ببعض ما يحتاج للرحيل والابتعاد.. وأخيرا يمنح ملجأ في الأرض التي هبط عليها ذات يوم "جنرال أوغندا" السابق عيدي أمين ليذهب إلى النسيان ويموت وحيدا دون أن يتذكره احد.

تونس.. ولصوص الثورات

انتصر الشعب التونسي ونجحت الثورة التي أججها الشاب محمد البوعزيزي بإزاحة الرئيس الذي تسلط على البلاد والعباد قرابة ربع قرن، وهو انتصار قد يسرقه "لصوص الثورات" من الانتهازيين والمحتالين، فالشعب التونسي لم يثر من اجل خلع راس النظام فقط، بل ثار من اجل التخلص من النظام كله.

"الثورة الخضراء" للتونسيين نجحت جزئيا، فرغم التخلص من الرئيس، إلا أن باقي النظام لا يزال مستمرا في الحكم، وهنا يمكن الخطر الشديد الذي قد يطيح بآمال التونسيون، فالرئيس المؤقت ورئيس الوزراء المكلف هما من أقطاب نظام الرئيس المخلوع مما يعني قدرتهما على التحكم بالمستقبل، ورسم الخطوات المقبلة، على الرغم مما يبدياه من "مرونة اقتضتها الضرورة" مثل إشراك بعض الوجوه من "المقبولة" التي تنتمي إلى ما يسمى "بالمعارضة الشرعية" وإقصاء المكونات السياسية الأخرى من الإسلاميين والشيوعيين والقوميين ممن صنفهم نظام الرئيس المخلوع "معارضة غير شرعية"، مما يعني التحكم بكل مدخلات ومخرجات العملية السياسة، مع ضمان استبعاد التيارات الرئيسية وتحييدها، وهنا تبدأ عملية سرقة الثورة وإحباطها وإفشالها من الداخل قبل أن تسفر عن نتائج مقبولة للشعب الثائر.

من الواضح أن نظام الرئيس المخلوع مازال فاعلا على الأرض ويمسك بزمام الأمور، ولو حتى بقبضة مرتخية، فهناك أطراف من هذا النظام تحاول خلخلة الوضع على الأرض عبر التخريب والقتل وإشاعة الفوضى وتشويه انتصار الشعب بالحرائق والسلب والنهب وترويع الآمنين، وفي المستوى السياسي هناك "الكتيبة السياسية" لهذا النظام التي تحاول احتواء الوضع من خلال "القوة الناعمة" لتشكيل حكومة جديدة، وهذا أمر غير منطقي على الإطلاق، إذ كيف يقود التغيير من كان هو نفسه مطلبا للتغيير بسبب نقمة الناس على

الجرائم التي ارتكبت بحقه من قبل رموزه، ومن هنا فان من شروط نجاح الثورة في تونس إقصاء حزب الرئيس المخلوع بالكامل من المشهد السياسي، فمن الواقعي أن يسقط الحزب كما سقط رأسه، إذ لا يعقل أن يسقط الرئيس ويبقى الكيان الذي كان أداة للتحكم بالشعب ومقدراته، لان ذلك مطلب الشعب الذي ثار من اجله.

"لصوص الثورات" يعمدون عادة إلى الترويج ل"ديمقراطية محدودة" لضمان بقاء مصالحهم، وليس مصلحة الشعب، ولتجنب الوقوع في براثن "لصوص الثورات" فان الحاجة تبدو ملحة إلى"إلغاء المنظومة القانونية الاقصائية لحزب الرئيس المخلوع، وإلغاء الوصاية على الشعب، وإلغاء الصلاحيات المطلقة للرئيس، والانتقال للنظام البرلماني وحكم الأغلبية، الانتخاب على قاعدة القائمة النسبية لضمان اكبر قدر من التمثيل للشعب، عدم إقصاء أي مكون اجتماعي باستثناء حزب الرئيس السابق، وتشكيل حكومة انتقالية تمثل الشعب يقودها رمز توافقي مقبول من جميع الأطراف ولا ينتمي إلى حزب النظام المخلوع.

في تونس اليوم هناك توافق يطفو على السطح بين أقطاب حزب الرئيس المخلوع وأحزاب صغيرة هامشية على تقاسم الأدوار وإبعاد القوى الحقيقية الفاعلة وعلى رأسها التيار الإسلامي عن المشهد لأنهم على يقين أن دخول الإسلاميين إلى المشهد بقوة يعني السيطرة على الجزء الأكبر من الشارع.

لا نعلم بالضبط حقيقة قوة الإسلاميين أو اليساريين في الشارع أو أي حزب آخر، وربما يكون الحديث عن قوتهم مجرد أوهام، ولكن من اجل التأكد من شعبية كل طرف في الشارع فلابد من إجراء انتخابات تعد لها حكومة محايدة عبر قانون انتخاب لا يستثني أحدا يستند إلى الإنصاف والعدالة ، وهذه الحكومة لن تكون محايدة إذا قادها رموز نظام الرئيس المخلوع، وهم الذين ينتمون إلى نفس منظومة "عصابات الترويع" الذين يعيثون في تونس فسادا..

لا نريدكم بيننا

"لا نريدكم بيننا".. بهذه العبارة صرخت إحدى المتظاهرات في شوارع تونس ضد نظام الرئيس المخلوع الهارب، هذه السيدة تابعت:" إننا ثرنا لنتخلص من بن علي وحزبه وأعوانه، ولم نقدم الدماء من اجل أن يسقط الرأس ويبقى الأعوان والزبانية.. ارحلوا لا نريدكم"، ما هتفت به هذه السيدة يلخص تماما ما يجري في تونس التي اثبت شعبها انه على درجة عالية من الوعي والثقافة والحذر، فقد أعلنوا عدم قبولهم باحتفاظ امتدادات حزب الرئيس المخلوع بالسلطة وأحكام قبضته على مفاصل صناعة بعد هذه الثورة.وهم يرفضون ان يدخل حزب الرئيس المخلوع من الشباك بعد أن أخرجه الشعب من الباب.

أتباع بن علي يحاولون الالتفاف على الثورة وتفكيكها من الداخل عبر حرف مسارها عن المطلب الرئيسي من خلال ألعاب بهلوانية سياسية والوعود الخرقاء، فذاكرة التونسيين لا تنسى الحيلة الكبرى التي لعبها الحزب الدستوري الحاكم للبقاء في الحكم، فقد عمد أركان الحزب إلى التخلص من الحبيب بورقيبة بسبب شيخوخته واستبدلوه بن علي عبر تلميعه وتقديمه على انه مخلص تونس عبر إغداقه الوعود،وهكذا أزاح بن علي بورقيبة من الحكم ونقل السيطرة إلى حزبه الذي أصبح أداته للتحكم بكل مقدرات البلاد، وبعد أن دان له الحكم ذهبت وعوده ذهبت أدراج الرياح واستعان بالفاسدين وكون نظاما استبداديا امنيا يقوم على الظلم والقمع والمعتقلات والتعذيب والإقصاء.

حاليا يحاول أقطاب حزب الرئيس المخلوع اللجوء إلى نفس الحيلة من جديد، لامتصاص الغضب الشعبي وضبط الشارع، وإعادة بناء الحزب وتمكينه من التحكم والحكم، وإعادة هيكلة النظام السابق وتجميل وجهه القبيح عبر مساحيق التجميل المكونة من "الوعود وتغيير الجلد".

الشعب التونسي الذي اثبت امتلاكه منسوبا عاليا من الوعي، لم تنطل عليه الحيلة الجديدة القديمة، وخرج في مظاهرات حاشدة للمطالبة بحل حزب الرئيس المخلوع ورفض مشاركة أعضاء من حزب الرئيس في الحكومة ويطالب بحل الحزب، في هجوم مضاد في الشارع لتفكيك معادلة النصب والاحتيال والالتفاف على الثورة

لا شك أن "الثورة الخضراء" للشعب التونسي تواجه مخاطر داخلية وخارجية، داخليا هناك جهات تعمل على بث حالة من عدم اليقين وتخويف الناس وتقويض أي مكاسب يمكن أن يحصل عليها التونسيون، وهناك احزاب هامشية تحاول ضرب الروح المعنوية للناس.

وخارجيا هناك من مخاوف من أن تقوم دول عربية محاورة لتونس بإشاعة العنف وعدم الاستقرار في تونس من خلال تمويل وتسليح فئات معينة خوفا من انتقال العدوى إلى بلدانهم، بل إن العقيد القذافي أعلن صراحة عن دعمه للرئيس المخلوع ونظامه وهاجم الثورة التونسية، وسخر من الدماء التي سفكها نظام الرئيس المخلوع، وما أعلنه عقيد ليبيا يجب أن يؤخذ مأخذ الجد، ولا ننسى بالطبع ما يمكن أن تقوم به فرنسا والولايات المتحدة ودول أخرى لإفشال الثورة التونسية

أنظمة عديدة في العالم العربي لا تريد أن تتحول الثورة التونسية إلى نموذج للشعوب العربية، فهو نموذج مرعب لا بد من تفكيكه والحيلولة دون إفرازه لأي نتائج ايجابية مثمرة، ولهذا فإنهم يبذلون جهودا حثيثة لتحويل الثورة التونسية إلى نموذج فاشل، لإحباط الشعوب العربية ودفعها إلى اليأس

التونسيون مستمرون في ثورتهم، ومستمرون بالمطالبة بتنظيف الساحة السياسية وكنس أركان نظام الرئيس المخلوع بكل تصميم وإرادة وقوة ويطالبون بالقطع مع النظام السابق .. ومع هذا فان الشعب التونسي يحتاج دعم كل الشعوب العربية للحيلولة دون توريطه في حالة من عدم الاستقرار أو العنف العبثي وخطف الثورة إلى المجهول.

الشعب يريد إسقاط النظام

من تونس إلى مصر يتردد في الأصداء هتاف واحد فقط " الشعب يريد إسقاط النظام"، تصدح به حناجر عشرات آلاف الشباب الغاضبين.. والسؤال هو لماذا احتل هؤلاء الشباب الشوارع للتعبير عن مطالبهم؟ ولماذا تعجز الحكومات العربية عن فهم ما تريد الشعوب؟. ما يجري في تونس ومصر تعبير عن التغير في العقل العربي لدى الأجيال الجديدة التي لم تعد تخشى شيئا، ولا يرهبها الرصاص والموت والتهديد والاعتقال والتعذيب.

ما يجري في تونس ومصر حاليا سبقته إرهاصات كثيرة منها احتكار السلطة والحكم وتفشي الفساد والمحسوبية والواسطة والارتهان للأجنبي، وربط مصير الأوطان بأجندات أجنبية تخدم مصالح الدول الغربية على حساب الشعوب العربية.

لقد فككت الأنظمة الحاكمة في تونس ومصر كل روافع النهوض السياسي والاجتماعي والاقتصادي وأغلقت الطرق أمام بروز قيادات وسيطة أو بديلة وقتلت الأحزاب ومنظمات المجتمع المدني والنقابات وجوعت الشعوب وأرهبتها، ومارست أقصى درجات العنف والتزوير مما أدى إلى سيادة طبقة من الانتهازيين والمنافقين الطفيليين واحتكروا مقدرات البلاد والعباد.

وبدل أن تعترف الأنظمة الحاكمة بالأخطاء وتتنحى لإتاحة الفرصة لأجيال جديدة من القادة، يخرج الرئيس التونسي المخلوع ليتهم شعبة" بالإرهاب وبأنه عصابة من الملثمين"، ويخرج الرئيس المصري حسني مبارك بعد ٤ أيام من المظاهرات الاحتجاجية ليصف المتظاهرين بالمندسين الذين ينقضون على الشرعية ويقول: "إن ما حدث خلال هذه التظاهرات يتجاوز ما حدث من نهب وفوضى وحرائق لمخطط أبعد من ذلك لزعزعة الاستقرار والانقضاض على الشرعية" ثم يؤكد على "إن طريق الإصلاح الذي اخترناه لا رجوع

عنه أو ارتداد إلى الوراء" .. هذه العبارات في هذا "الخطاب الخشبي"، تعني التشبث بالسلطة والسير قدما في الطريق الذي أخطته والذي اسماه "طريق الإصلاح" والسؤال هو: هل يثور الناس على الإصلاح؟ وأي شعب هذا الذي يرفض الإصلاح؟.

لا يريد "السيد الرئيس" الاعتراف أن السياسة التي طبقها خلال عقود من الحكم كانت خاطئة وفاشلة لم تنتج سوى الفقر والقهر والتعسف وغياب التنمية، سياسة جعلت نصف الشعب المصري يعيش على اقل من دولار في اليوم.. سياسة حولت الشعب من شركاء إلى "إجراء"، واغتالت كل أمل لديهم بواقع أفضل لهم.

لم يستطع "السيد الرئيس" أن يفهم أن الشبان الذي تظاهروا في الشوارع ليسوا من "الغوغاء والدهماء"، بل هم من الشباب الواعين المدركين لما يدور حولهم، ويطالبون بالتغيير عن وعي، فهم يطالبون بالحرية والعدالة والكرامة قبل الخبز والوظيفة.

احتاج الرئيس التونسي المخلوع ٢٨ يوما وسفك دماء ١٠٠ تونسي وجرح المئات لكي يقف على المنصة ويقول "أنا فهمتكم".. وبعد أن أدرك أن الشعب لا يريده غادر على الطائر غير الميمون في رحلة تاهت خلالها طائرته في الجو، فكم من الوقت يحتاج الرئيس المصري لكي يقف على المنصة ويردد كلمات رئيس تونس المخلوع "أنا فهمتكم"؟ لا نعرف على وجه التحديد كم يحتاج من الوقت وكم من الدماء سيسفك بعد أن ارتوت شوارع المدن المصرية بدماء ٢٠٠ قتيل على الأقل أكثر خلال يوم واحد من التظاهرات.

لقد علمتنا الثورة التونسية مصطلحات مثل "غيم أوفر" الانجليزية أو انتهت اللعبة، و"ديغاج" الفرنسية أو "ارحل"، مصطلحات رددها المتظاهرون بلغات أجنبية لان الحكام يبدو عاجزين على فهم مطالب الشعب باللغة العربية

التونسيون أصروا على التغيير واسقطوا "بن علي"،والمصريون مصممون على التغيير أيضا، والشعار الوحيد الذي تسمعه في كل مكان هو " الشعب يريد إسقاط النظام" و"الشعب يريد إسقاط الرئيس"، فهل يغادر قبل ان يهلك البلاد والعباد.

الاعتداء على الله

هناك من يحاول استفزاز المسلمين ومنهم الإسلاميين وجرهم إلى دائرة العنف وافتعال معارك جانبية لحرف المسار العربي الجديد عن وجهته الجديدة، لأهداف معلنة وغير معلنة، بغية دفع المواطن العربي لليأس والقبول بالدكتاتورية والاستبداد والاستعمار، وتخويفه على مستقبله ومستقبل أولاده وإقناعه أن "ليس بالإمكان أفضل مما كان".

جهات عديدة تخوض المعركة المعلنة والسرية، منهم فلول الأنظمة المتهاوية والفاسدين والمستفيدين منها والمتغربين والعلمانيين ومن يمثلون الأجندات الأجنبية، الأمريكية والأوروبية والروسية والصينية والإيرانية، وهم كثر في بلادنا، والمعادون لثقافة الأمة ودينها وعروبتها. وهؤلاء ينشطون لإفراغ الثورات العربية من مضامينها ومحتواها الحضاري ودفعها إلى المسارات الخاطئة والفوضى والحرب الأهلية والاقتتال بين الأخوة إذا ما أيقنوا أن زمام الأمور قد خرج من بين أيديهم، وأنهم لم يعودوا قادرين على توجيه الدفة والتحكم والسيطرة.

من الأمثلة على دفع الوضع إلى حافة الهاوية والصراع والتطاحن الاجتماعي فيلم " لا الله لا سيد"، أو "لا ربي لا سيدي"، للمخرجة التونسية نادية الفاني، وهو الفيلم الذي أثار حفيظة شرائح واسعة من المجتمع التونسي الذي ثار دفاعا عن حريته وكرامته وعروبته ودينه.

فمخرجة هذا الفيلم الرديء قالت في مقابلة تلفزيونية محلية بأنها "لا تؤمن بوجود الإله وأنها متمسكة بحرية الفكر والتعبير."، في محاولة لاستفزاز المجتمع التونسي والعربي والإسلامي،

ووصل الاستفزاز ذروته بمحاولة عرض الفيلم في سينما "أفريكا آرت" وسط العاصمة التونسية وهو ما دفع بعض الإسلاميين للتظاهر احتجاجا على عرض هذا الفيلم المسيء للإسلام والعقيدة رافعين شعارات "الشعب نريد تجريم الإلحاد" و"تونس دولة إسلامية"،و"الله

اكبر "و"الشعب مسلم ولن يستسلم ." وكانت النتيجة هي اعتقال السلطات التونسية ٣٠ محتجا بعد أن فرقتهم بالغاز المسيل للدموع، وزاد الطين بلة رد فعل وزارة الثقافة التونسية التي عبرت عن "عميق الأسف لهذه الممارسات الغريبة التي لا تخدم المصلحة العليا للبلاد وتتعارض مع سماحة الدين الإسلامي"و دانت جمعية السينمائيين التونسيين ما وصفته "بسلوك همجي وظلامي يهدد الحياة الثقافية ويخالف ابسط مقومات حرية التعبير". واستنكرت ما قامت به المجموعة التي "نصبت نفسها حامية للإسلام ورقيبة على الضمائر والعقول."، وبسرعة البرق منحت المخرجة نادية الفاني "الجائزة الدولية العلمانية" عن فيلمها، الذي سيعرض في الصالات الفرنسية في أيلول سبتمبر المقبل.

لم يتطرق احد عن جريمة أن تقول المخرجة بوقاحة "لا الله "، ولم تتنصر السلطة التونسية لعقيدة الشعب التونسي، وبدلا من محاكمة هذه المخرجة ركزت على احتجاجات الإسلاميين على فيلم ينكر وجود الله ووصفتها بأنها " ممارسات غريبة.. سلوك همجي ظلامي.. تهديد للحياة الثقافية.. يخالف حرية التعبير"، وهي الأوصاف التي يستخدمها العلمانيون اللادينيون، ولم تحدد ماهية حدود ومعايير حرية التعبير؟ وهل يجوز الاعتداء على المقدسات والتجديف ضد الله باسم الحرية؟.

نريد أن نكون واضحين حول هذه المسالة وضح الشمس: كل حرية مزعومة تعتدي على الإسلام والله هي تطاول واعتداء مرفوض ومدان بشكل قاطع، فلكل امة من الأمم خطوط حمراء، ونحن العرب والمسلمين لا نريد انتهاك حقوقنا في مقدساتنا والتطاول عليها تحت ذريعة كانت.

وإذا كنا نؤمن أن كل إنسان حر في معتقده وحر أن يؤمن أو أن يكفر، وحسابه على ربه، لكننا نؤمن أيضا انه ليس حرا في التطاول على الله والإسلام والعقيدة، ولا نقبل ان يوصف من يدافعون عن الدين بأنهم "ظلاميين وهمجيين وإرهابيين"، فالإسلام هو دين التسامح والنور والعلم، ونستطيع في المقابل ان نصف بها هؤلاء الذين يهاجون ديننا بأنهم "كفار وزنادقة وملحدون"، يلوثون حياتنا ويهددون معتقداتنا وأمننا الثقافي والحضاري بل وسلمنا الاجتماعي.

التونسيون ومعهم العرب الثائرون لم يثوروا ويدفعوا دمائهم ثمنا من اجل "الكفر والزندقة والإلحاد"، بل قاتلوا من اجل الحرية والكرامة والعدالة والإيمان والحضارة

وهذا ما أقرته الهيئة العليا لتحقيق أهداف الثورة والانتقال الديمقراطي في تونس عندما صادقت بالأغلبية على "العهد الجمهوري" وهي الوثيقة التي تتضمن مبادئ أساسية تلتزم بها

الأطراف السياسية المنضوية في الهيئة والتي تؤكد على أن" تونس دولة ديمقراطية، حرة، مستقلة، ذات سيادة، الإسلام دينها، والعربية لغتها، والجمهورية نظامها" وان "هوية الشعب التونسي عربية، إسلامية، متفاعلة تفاعلا خلاقا مع قيم الحداثة والتقدم.".

هذه المبادئ هي هوية جامعة لكل العرب من المحيط إلى الخليج، يقبل بها الإسلاميون، أما العلمانيون فهم لا يقبلون بها ويريدون أن يسرقوا الثورة وان يحرفوها على مسارها وان يجروا المجتمعات العربية إلى الاقتتال الداخلي، ولهذا يجب التنبه والحذر والحيلولة دون الانزلاق إلى العنف ردا على الاستفزاز المقصود، فالعنف هو اقصر الطرق للخسارة وعلينا أن نلاحقهم بوسائل الضغط السلمية ومحاصرتهم ثقافيا وعزلهم اجتماعيا وملاحقتهم قانونيا ومتابعتهم في كل المحافل والوقوف بثبات في وجه كل القوى السياسية والاقتصادية التي تدعمهم وتؤازرهم توفر لهم الغطاء.

الشعب التونسي الجاهل

"الشعب التونسي جاهل، والمواطن التونسي بلا حس نقدي أو ملكات للتحليل".. فهو جاهل لان تونسيا من كل اثنين انتخب مرشحي حركة النهضة الإسلامية، وبلا حس نقدي لأنه عزف عن انتخاب العلمانيين، والنتيجة هي أن الشعب التونسي غير قادر على التحليل والاختيار، ولا يستحق الديمقراطية لأنه لم يبلغ سن الرشد، وبالتالي يحتاج إلى وصاية من "العسكر أو الاستبداد والدكتاتورية أو الاستعمار"؛ هذا ما صرخت به ناشطة علمانية تونسية أزبدت وأرعدت واستشاطت غضبا بسبب فوز حركة النهضة في الانتخابات"، وهي تكشف موقف العلمانيين من الديمقراطية، فهم مع صناديق الاقتراع إذا جاءت لصالحهم دون الإسلاميين أو باقي مكونات المجتمع"، أما إذا جاءت النتائج لصالح غيرهم فإنهم يبادرون للانقلاب عليها وهو ما حدث في الجزائر حينما انقلب العسكر على نتائج الانتخابات التي فاز بها الإسلاميون، وأطاحوا بأصوات الشعب الجزائري وخياره، وهو ما تكفل به الاحتلال الإسرائيلي الذي حاصر الشعب الفلسطيني بعد انتخابه حركة حماس الإسلامية بمؤازرة من سلطة محمود عباس "أبو مازن" ونظام المخلوع حسني مبارك وبمباركة من الغرب "المنافق" الذي يؤمن بالديمقراطية التي يفصلها على مقاس قيمه ومصالحه وأهدافه.

الغرب ومعه ما يسمى "الليبراليون العرب"، وهم خليط من العلمانيين وبقايا اليسار الذين يحملون خلطة من "أفكار لا نعرف حقيقتها"، ولا نعرف عنها سوى عدائها للإسلام والإسلاميين، ولا هم لهم سوى التشكيك بنتائج الانتخابات إذا فاز بها الإسلاميون والوطنيون.

من الغريب أن العالم شهد بنزاهة الانتخابات في تونس، ووصفتها المراقبة الأممية ريم عبيدات بأنها " أنزه انتخابات في العالم" واعتبرتها بعثة المراقبة الأوروبية نزيهة وشفافة، وكذلك مؤسسة جيمي كارتر الأمريكية، لكن كل هذه الشهادات لم ترق للعلمانيين التونسيين الذي تظاهروا ضد النتائج واعتبروها "مزورة"، وفي هذه المظاهرة شنت الناشطة العلمانية مفيدة العباسي "وصلة من الردح" وقالت:

"إن انتخاب التونسيين لحركة النهضة ثمرة لحكم بن علي لهذا الشعب.. وان الشعب التونسي جاهل لانتخابه حركة النهضة.. وإن المواطن التونسي فقد الحس النقدي، وملكات التحليل"، واتهمت وسائل الإعلام الوطنية بدعم التيار الإسلامي، واعتبرت العباسي - وهي وجه إعلامي بارز في عهد الرئيس المخلوع بن علي- أن "دستور تونس سيكتبه أناس لا يساوون شيئا بعد أن كتبه في السابق أناس عظام".

هؤلاء العلمانيون التونسيون والعرب كانوا دائما وأبدا حلفاء الاستبداد والدكتاتورية والاستعمار، لا هم لهم سوى سلخ الأمة عن عقيدتها وجذروها ودينها وتاريخها ورميها في أحضان الغرب وقيمة وثقافته.

دورهم كان دائما حاضنة للاستبداد وإثارة الزوابع والتشكيك بكل ما هو إسلامي علنا او سرا، وتأليب الغرب ضد الثقافة العربية الإسلامية، وللأسف الشديد فان هؤلاء "العلمانيين الليبراليين" يقدم لهم الغرب الجوائز على مهاجمتهم للثقافة العربية الإسلامية،و" التطرف الإسلامي وانتهاك حقوق المرأة العربية والمسلمة والتخلف العربي".

الشعب التونسي الذي "حلق" للعلمانيين ومن لف لفهم وصوت لصالح ثقافته وفطرته وعقيدته، شعب عظيم ومتعلم وواع ومثقف، وليس جاهلا، يضم اكبر عدد من الكفاءات في العالم العربي، واكبر عدد من المتعلمين ومن حملة الشهادات، وهو شعب افتتح عصر الثورة العربية الحديثة، واسقط واحدا من أبأس الطغاة في العالم العربي..

شعب يرى بعيونة وعقلة وبصيرته وقلبه وجنانه، يملك القدرة على التحليل والنقد والرفض والمقاومة والقتال، وهو الشعب الذي أنجب ابن خلدون وأبو القاسم الشابي الذي نحت عبارته الباقية إلى يوم القيامة :" إذا الشعب يوما أراد الحياة فلا بد ان يستجيب القدر".

وعلى الرغم من مواقف العلمانيين التونسيين المتطرفين فان موقف حركة النهضة كان أكثر حضارية عندما أعلن قادتها الابتعاد عن الإقصاء واحتكار السلطة والحقيقة، عرض المشاركة على كل القوى السياسية بما فيها العلمانيين.

على العلمانيين في العالم العربي أن يعترفوا بالهزيمة .. الهزيمة الأخلاقية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والقيمية والحضارية، فقد جربتهم الشعوب العربية على مدى أكثر من قرن من الزمان فلم يجلبوا لها غير الويلات والطغاة والاستعمار.

مبروك للشعب التونسي هذا الانتصار العظيم لأنه انتصار لثورة البوعزيزي وللكادحين والمعذبين والمشردين والمعتقلين ولأسر شهداء الظلم والاغتيال .. انه انتصار للحرية، حرية الشعب التونسي الذي فتح الباب أمام الأمة العربية لكي تنتفض، وعلى قادة حركة النهضة

وعناصرها أن يعرفوا أن امتحانهم العسير أمام الشعب الذي منحهم ثقته قد بدأ، وان صناديق الاقتراع وأصوات الشعب جاهزة لإعادتهم إلى بيوتهم إذا فشلوا في مهمتهم بقيادة تونس إلى الرفاه والازدهار والاستقرار والأمان.

تسونامي الجماهير

يكتب المصريون تاريخا جديدا في العصر الحديث، فقد خرج الملايين إلى الشوارع للمطالبة برحيل الرئيس ونظامه والاحتجاج على سنوات الأحكام العرفية وقوانين الطوارئ السوداء، وكتبوا على دبابات الجيش ومدرعاته "يسقط مبارك"، وخرقوا حظر التجول واحتشدوا في ميدان التحرير في قلب القاهرة وكتبوا على جدرانه" هذا بيتي حتى ترحل يا مبارك".

ما يقوم به الشعب المصري ثورة شعبية كاملة تعبر عن "انتفاضة الوعي المصري" الذي كسر كل مفاهيم الخوف التي حاول نظام مبارك تكريسها على مدى ٣٠ عاما من الحكم المطلق، وهو خوف سقط بمجرد أن خروج الشباب إلى الشوارع لتحدي الدولة البوليسية وقبضتها الحديدية، التي يحرسها أكثر من مليوني عسكري من الأمن المركزي والشرطة وقوات وزارة الداخلية.

مشكلة الرئيس مبارك انه يرفض حتى الآن فهم مطالب المصريين ورفضهم لنظامه ويرفض الاستماع إلى الهتافات في ميادين مصر كلها "ارحل .. مش عايزينك"، في أضخم استفتاء شعبي يشهده العالم العربي منذ سقوط زين العابدين بن علي في تونس عن سدة الرئاسة، وهو ما دفع وزيرة الخارجية الأمريكية هيلاري كلينتون للإشارة إلى أن مبارك لم يفهم بما فيه الكفاية بقولها: "الرئيس المصري لم يفعل ما يكفي من اجل إرساء الديمقراطية في البلاد .. والمسألة ليست بمن يحتفظ بالحكم، ولكن كيفية الاستجابة للشكاوى المشروعة للشعب المصري وتحديد مسار جديد". لكن المعضلة هي أن مبارك يرفض تحديد مسار جديد، ويقوم بتشكيل حكومة جديدة بدل حكومة احمد نظيف التي تبخرت في الهواء وغابت عن الأنظار خلال أسبوع كامل من المظاهرات، ويتصرف وكان شيئا لا يحدث ولا يسمع مطالب المتظاهرين في القاهرة والمدن المصرية:" الشعب يريد إسقاط الرئيس" و " الشعب يريد

إسقاط النظام"، فهو متشبث بالحكم ولا يبدي أي بادرة بالتنازل، وهذا سيكلف المصريين والعرب غاليا، فكم من الدماء ستسيل من اجل ان يقتنع انه لم يعد مقبولا وان الشعب يرفضه، وان حزبه أصبح شيئا من الماضي وان آلته الأمنية تفككت.

ومن هنا فان تشبث مبارك بالحكم مع استمرار المظاهرات الاحتجاجية الرافضة لحكمه يعني خنق مصر والمنطقة العربية، كما سيكبدها خسائر فادحة، ويكفي ملاحظة تهاوي البورصات العربية على خلفية مظاهرات مصر، بل إن الاقتصاد العالمي سيهتز إذا وصلت الاحتجاجات إلى قناة السويس وتوقفت الحركة هناك، وربما يحدث ذلك، فاكبر شركة للشحن البحري في العالم مولر ميرسك علقت أنشطتها لمحطات الموانئ في مصر وأغلقت مكاتبها الملاحية، بعد دعوة عمال قناة السويس إلى الإضراب لمناصرة المطالبين بإسقاط الرئيس مبارك.

الولايات المتحدة الأمريكية رفعت الغطاء عن مبارك ونظامه وهي تريد انتقالا إلى نظام جديد "يحفظ امن إسرائيل" ومن اجل هذا تعقد وزيرة الخارجية الأمريكية أضخم اجتماع دبلوماسي في تاريخ أمريكا بمشاركة كل سفراء أمريكا في العالم والبالغ عددهم ٢٦٠ سفيرا، كما أن الرئيس الأمريكي أوباما تشاور مع قادة السعودية وتركيا وإسرائيل وبريطانيا حول التطورات في مصر.

التحركات الأمريكية والإسرائيلية تشير إلى أن مصير الرئيس مبارك دخل ربع الساعة الأخير، وأنهما يحاولان كسب اكبر قدر من الوقت لإعداد بديل مقبول، لكن المتظاهرين المصريين يرفضون الوجوه المقبولة أمريكيا وإسرائيليا، مما يزيد من تعقيد المشهد.

كلفة بقاء نظام الرئيس المصري مرتفعة مصريا وعربيا، وعليه أن يقتنع أن "تسونامي الجماهير" لن يتوقف إلا بتخليه عن السلطة وعلى العقلاء من العرب إقناعه بالرحيل للحد من الخسائر المصرية والعربية، فكلما تشبثه بالسلطة أكثر كلما ارتفع ثمن رحيله من الدم والمال والاستقرار في كل العالم العربي.

مصر بين البلطجية والثوار

تسود المشهد المصري حالة من الضبابية، فالحركة الشعبية الاحتجاجية تمكنت من حشد نحو ٨ ملايين متظاهر في الشارع لأول مرة في تاريخ مصر الحديث، وفي اللحظة التي ظن فيها كثيرون أن ساعة الحسم قد اقتربت وان ما يجري قد يصل إلى نهايته، فإذا بالأمور تتخذ منحى أخر بخروج الرئيس المصري حسني مبارك ليعلن عدم ترشيح نفسه في الانتخابات التي ستجري بعد ٩ أشهر مع حزمة تنازلات تحدث عنها في خطاب لعب فيه على عواطف المصريين في محاولة لشق الحركة الاحتجاجية.

لا شكك أن الرئيس مبارك قدم في خطابة تنازلات تكتيكية تقتضيها المرحلة من قبيل "الانحناء لعاصفة الجماهير الهادرة"، وهي تكتيكات ترمي إلى ضمان إحلال بديل من داخل النظام نفسه، بسبب رفع الولايات المتحدة وأوروبا الغطاء عن مبارك.

لا شك أن نائب الرئيس المصري عمر سليمان يقود المرحلة الحالية تماما وهو يسعى إلى تهدئة الشارع من جهة وإعادة ترتيب الأوراق، وهو يستخدم تكتيكات لكسر حدة الرفض للنظام وتحويله إلى رفض للرئيس مبارك فقط، أي اختزال الرفض بشخص الرئيس والتضحية به شرط الإبقاء على النظام ومكوناته وهذا يرضي بالطبع إسرائيل وأمريكا ومعظم الأنظمة العربية التي لا تريد سقوط النظام برمته في مصر، من اجل وقف دومينو انهيار الأنظمة العربية.

عنصران جديدان دخلا على خط المواجهة بين النظام المصري والشعب، الأول هو تنظيم مظاهرات مؤيدة للنظام في مواجهة المظاهرات المليونية الاحتجاجية، وهي مظاهرات صغيرة يقف وراءها الحزب الوطني وأجهزة الدولة التي يسيطر عليها، وهي خطوة مهمة وذكية و"شيطانية"، لان هذه المظاهرات ستعمل على الاستحواذ على جزء من المشهد الإعلامي ووضع المظاهرات المؤيدة،على قلة عدد المشاركين فيها، في كفة والمظاهرات الحاشدة في الكفة

الأخرى بحجة التوازن، توازن بين مليوني متظاهر معارض من جهة وألف متظاهر من الجهة الأخرى، وبالتالي حرف الأضواء عن المظاهرات الاحتجاجية.

العنصر الثاني: هو التبدل التدريجي في موقف الجيش من رفض التصدي للمظاهرات الاحتجاجية واتخاذ موقف "شبه حيادي" والانتقال إلى موقف "شبه انحياز للنظام" بدعوة المتظاهرين للعودة إلى ديارهم من اجل توفير الأمن واستعادة الاستقرار في الشارع" بدعوى ان "رسالتكم وصلت ومطالبكم عرفت".

هذا التغير الغامض في موقف الجيش يسوق الموقف في الشارع المصري إلى احد احتمالين، فإما أن يقبل المحتجون المطالبين بإسقاط النظام بمطالب الجيش، وإما أن يرفضوا وبالتالي يتدخل الجيش لفض المظاهرات الاحتجاجية بالقوة من بوابة "فض المشاجرات بين المتظاهرين المؤيدين والمعارضين" وهي اشتباكات سيتم "فبركتها" من اجل تبرير التدخل، بل وقع بعضا منها في ميدان التحرير فعلا، وقيل ان الحزب الوطني استخدم فيها الزعران والبلطجية، بل ورجال الامن بزي مدني، وهو تكتيك لتوريط الجيش في المواجهات.

المتغير الآخر في المشهد هو قبول ائتلاف المعارضة للحوار مع نائب الرئيس عمر سليمان بعد تنحي مبارك"، أي أن المعارضة التقليدية تراجعت خطوة إلى الوراء، من مطلب إسقاط النظام إلى مطلب إسقاط رأس النظام فقط، وهو مطلب يقبله عمر سليمان من حيث المبدأ، والاختلاف هو على التوقيت، بين من يريد رحيله الآن وبين رحيله بعد ٩ أشهر.

لا شك أن مدير المخابرات السابق عمر سليمان كسب خطوة تكتيكية معتبرة باقتناص هذا التنازل من المعارضة التقليدية، فهو يهدف إلى "تبريد الشارع" وحرف الإرادة الشعبية عن مسارها.

وعلى الرغم من كل هذه التطورات السريعة إلا أن ما يجري في الميدان يبقى هو سيد الموقف، وقرار الشباب في ميدان التحرير سيبقى هو المحدد لما سيجري في الساعات المقبلة، وهو مشهد مفتوح على كل الاحتمالات.

هلوسات النظام ..وعنفوان الثورة

النخبة الحاكمة في مصر لا تريد الاعتراف بالثورة ومطالبها، وتحاول استخدام "كاتالوج إحباط الثورات التقليدي" لإفشالها، فالرئيس المصري حسني مبارك المتشبث بالحكم حتى لو احترقت مصر كلها يعقد اجتماعا وزاريا مع فريقه الاقتصادي في محاولة لإعطاء الانطباع أن الأمور "عال العال وسمن على عسل" ويقول في مقابلة صحفية "انه لا يهتم برأي الناس، بل يهتم بالوطن"، الغريب أن ما يزيد عن ١٠ ملايين مصري نزلوا إلى الشوارع وهتفوا "الشعب يريد إسقاط النظام .. الشعب يريد إسقاط الرئيس" بل تطور الشعار إلى "الشعب يريد محاكمة الرئيس .. الشعب يريد إعدام الرئيس"، ولا ادري ما هو تعريف الوطن الذي يستمع اليه ان لم يكن صوت الناس.

هؤلاء الملايين في ميدان التحرير والمدن المصرية هتفوا للقطيعة مع النظام المصري ومؤسساته وقوانينه ونوابه ووزراءه، فيما يصم الرئيس أذنيه عن سماعها، مما جعل المحتجين يهتفون "ارحل يعني امشي .. يمكن ما بتفهمشي" و"كلموه بالعبري .. ما بيفهمش عربي" و "ارحل بقى ياعم .. خلي عندك دم" و "اخرس وما بتسمعش .. وكما غبي ومابتفهمش" و "قولي مين في الشعب اختارك .. يسقط يسقط حسني مبارك".

المشكلة لا تتوقف عن رأس النظام فقط بل إن نائبه عمر سليمان تحدث في مقابلة بثها التلفزيون الحكومي المصري عن "مشروعية مطالب الشباب" وفي نفس الوقت اتهم "مندسين" بتنظيم التظاهرات، وكذلك الأمر عند رئيس الوزراء الجديد احمد شفيق الذي رأى أن ما يحدث عبارة عن أجندات خارجية، أما التلفزيون الرسمي فهو يتحدث عن "مجموعات" من المحتجين في حين تبرعت إحدى "الصحف الرسمية" عن نشر ما سمته مخططا لحركة حماس وحزب الله لتنظيم المظاهرات لضرب استقرار مصر خدمة لأجندات خارجية، والحقيقة إنني

اشعر بالذهول من قدرة حماس وحزب الله على إقناع ١٠ ملايين مصري بالتظاهر في كل المدن المصرية ضد نظام مبارك؟!

خلال اليومين الماضيين تابعت جميع المقابلات التي بثها التلفزيون المصري وقرأت الصحف المصرية على الانترنت فوجدت أن نظام مبارك يعيش "حالة إنكار كاملة".. ينكر الثورة والغضب والاحتجاج، ويعتبر الشعب المصري المتظاهر " مجموعات من المشاغبين والمخربين المغسولة عقولهم أو المغرر بهم"، ولا ينظر إليهم بوصفهم شعبا يريد إسقاط النظام برموزه كلها.

حالة الإنكار هذه لم تقف عند حدود عدم روية احتجاجات شعب بأكمله، إذا استثنيا رموز النظام والمستفيدين منه و"مليشيا النظام" من البلطجية ضد الشعب، بل امتدت لتنكر مطالب العالم بضرورة الرحيل، ولم يتواني عن اعتبار المطالب الأمريكية والأوروبية والتركية بضرورة "الانتقال المنظم للسلطة" بوصفها تدخلا أجنبيا في الشؤون الداخلية لمصر.

انه يعيش حالة إنكار كاملة، قد تؤدي إلى اشتعال النيران التي اشتعلت فعلا في سيناء مع تفجير الأنبوب الذي ينقل الغاز من مصر إلى إسرائيل، بل إن حالة الإنكار هذه قد تؤدي إلى "عاصفة هوجاء قوية في الشرق الأوسط" كما قالت وزيرة الخارجية الأمريكية هيلاري كلينتون التي أضافت أن "بعض قادة الشرق الأوسط مخطئون حينما يظنون أنهم في منأى" من هذه العاصفة.

حالة الإنكار والعناد لنظام مبارك ستخرب مصر وتدخلها في نفق مظلم، ومحاولة الالتفاف على الثورة الشعبية في مصر لن يكتب لها النجاح، فتاريخ الثورات يقول إن الشعب إذا خرج من بيته لا يعود إلا بعد أن يحقق أهدافه، وفي عصر الانترنت والفيس بوك والتويتر والفضائيات والصورة لا يمكن الاحتيال على الشعوب مهما اخرج الساحر من جعبته، وما يخرج من الجعبة ليس أكثر من هلوسات لن توقف عنفوان الثورة

للثورة لغتها

صمود المتظاهرين المصريين في ميدان التحرير للأسبوع الثاني على التوالي يدشن حقبة جديدة في تاريخ حركة الشعب المصري، وستؤثر حتما على كل العالم العربي ، فمصر قلب العروبة النابض .

لا نستطيع أن نتحدث عما يجري في مصر ، بمعزل عن التفاعل الذاتي والشخصي فنحن جزء مما يجري، بالمتابعة والقلق وسهر الليالي أمام شاشات التلفاز، التي تنقل ما يجري هناك على مدار الساعة، ومن هنا فان القضية تصبح شأنا خاصا لكل مواطن عربي من المحيط إلى الخليج، ولهذا نتمنى الخير لمصر وأهلها ، فالمصريون يستحقون كل خير، كيف لا .. وهم كنانة الله في أرضه .

إصرار الشعب المصري على نيل حقوقه الطبيعية يعني أنه سينتصر في النهاية بإذن الله، فالشعوب إذا تحركت لا تهزم أبدا، خاصة عندما تطالب بحقوق انتزعت منها واغتصبت بدون وجه حق، والمصريون الذين تحركوا في القاهرة وكل المدن الأخرى للتخلص من الظلم والدكتاتورية لم يلجأوا للعنف، بل تحركوا بشكل سلمي ،هم وأطفالهم وأزواجهم ، ولم يلقوا حجرا ولم يحملوا سكينا أو رصاصة ، بل ساروا في الشوارع والميادين سلاحهم الهتاف بسقوط النظام . وهذا حق لهم كما أنه حق للشعوب .

الحكم في الدنيا ، ليس أكثر من عقد اجتماعي يختار الناس بموجبه من يحكمهم لتحقيق مصالحهم وحفظ أنفسهم وأموالهم وأعراضهم ودينهم على قاعدة من العدل والإنصاف، وإذا ما أخلّ الحاكم بهذه الشروط يحق عزله بل ومحاسبته على الأمانة التي حملها ولم يؤدها.

في إحدى المظاهرات قالت فتاة مصرية " إحنا مش عايزينك ، خلاص ، هو مين بيشتغل عند مين .. هوّة بالعافية " وهذا تعليق مهم .. ، من يعمل عند من ؟ الشعب يعمل عند

الحاكم .. أن الحاكم يعمل عند الشعب ؟ في عالمنا العربي يعتقد الحكام ان الشعوب تعمل عندهم وليس العكس خلافا لطبيعة الأشياء وأحكام السياسة والقانون .. ولله در أبي بكر الصديق حين قال : " أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيت الله فلا طاعة لي عليكم ".

ترى هل هناك شعب في العالم يثور على حكم عادل ؟ أم أنّ الثورة لا تكون إلا على الظلم فقط ؟ ظلم النهب والفساد والرشوة والتسلط والمعتقلات. أليست هذه القضايا التي يهتف ضدها المصريون في ميدان التحرير وميادين المدن المصرية؟

نحن أمة غنية بعقولها وشبابها وثرواتها وموقعها الاستراتيجي ، ولا يجوز أن تكون في ذيل الأمم ، ولا أن تستباح أوطاننا وتنهب ثرواتها ويموت شبابها على متن قوارب متهالكة في هجرة غير شرعية الى اوروبا .

المصريون في ميدان التحرير لا يطالبون بالكثير حين يطالبون بالحرية والكرامة والعدالة والوظيفة والرغيف النظيف والقضاء على الفساد والرشوة والمحسوبية وتراكم الثروات في أيدي معدودة بينما يعيش نصف المصريين تحت خط الفقر . وهذه المطالب المشروعة والطبيعية والمستحقة لا يمكن التصدي لها بالبلطجية والرصاص والغاز المسيل للدموع والدهس والقتل المجاني للناس.

لا يمكن التمتع بالاستقرار مع الدكتاتورية التي تحيل حياة الناس إلى جحيم وتحاربهم في أرزاقهم وتكمم أفواههم وتكبت حرياتهم ، وما يجرى في تونس ومصر، يعني كل ببساطة أن الشعوب إذا ثارت فلن يوقفها شيء .. لا ألاعيب السياسة البائسة ولا المناورات ولا المؤامرات التي تحاك في الدهاليز والغرف المظلمة، فللثورة لغة لا يفهمها إلا أهلها.

البلطجوقراطية

"البلطجوقراطية" مصطلح جديد يتكون كلمتين الأولى عربية تركية وهـي "البلطجيـة"، وتعنـي حامل البلطة ، مثل تلك التي يستخدمها الجـزارون في تقطيـع اللحـوم، والثانيـة لاتينيـة "قراطيـة" وهي مقطع من كلمة بيروقراطية تعني جهاز الدولة او الموظفين الذين يديرونها، وعنـدما تجتمـع الكلمتين معا "البلطجية والبيروقراطية" فإنها المصطلح الجديد يعني "حكم البلطجية".

في العالم سمعنا مصطلحات مثل "ديمو قراطية" وتعني حكم الشـعب و"ثيـو قراطيـة" أي حكم رجال الدين، وارستو قراطية" طبقة الأغنياء، لكن "بلطجو قراطية" ولدت على يـد نظـام مبارك في مصر، وبالطبع يضاف اليها "حرامي قراطية" أي حكـم الحراميـة، وإذا مـا اجتمعـت "البلطجوقراطية والحراميقراطية" معا فان النتيجة تكـون حكومـة يقودهـا سياسـيون ورجـال أعمال فاسدون وموظفون مرتشون وإعلاميون منافقون تؤدي في النهايـة الى خـروج الشـعب إلى الشوارع والميادين من اجل "إسقاط النظام" وهذا بالضبط ما حدث في تونس ومصر.

في مصر ثار الشعب على "البلطجوقراطية " فخرج إلى الشوارع والميادين واشهرها بـالطبع "ميدان التحرير" الذي أصبح اشهر اسم على الأرض حاليـا، ورغـم تعـدد أشـكال لفظـه " مـن تهرير" بالانجليزية الى "تخرير" بالعبرية الى "تهليـل" بالصـينية لان لغـة المنـدرين الصـينية لا تحتـوي عـلى حـرف "الـراء" وتقلـب الى "لام".. الا انـه يقـود إلى نفـس المعنـى، فـالأمريكيون اعتقدوا أن ما يحدث في ميدان "التهريـر" حفلـة لـبعض شـباب الفـيس بـوك، ولم يعـيروه مـا يستحق من الانتباه، وتخبطـوا في مـواقفهم التـي تراوحـت بـين التهـريج والبلاهـة والصـدمة والنصب السياسي والدعوة الى إصلاحات تجميلية وضرورة ان يتم الإصلاح الآن، لتتراجـع عـن هذا التصريح ثم يأتي مبعـوث العنايـة الأوباميـة "ويزنـر" ليقـول ان مبـارك "رئـيس الضرورة" ويجب أن يبقى، ثم تتبرأ إدارة أوباما من تصريحاته.. وتفضح صحيفة الإندبندنت البريطانيـة

"الطابق" وتنشر ان المبعوث ويزنر وكيل أعمال لتحسين صورة مبارك ونظامه في أمريكا، ويقاضى منه اموال مقابل ذلك.

أما القادة الإسرائيليون فاعتبروا ان ما يجري في ميدان "التخرير" خطير، ولهذا دخلت تل أبيب على الخط وكلفت ١٠ سفراء إسرائيليين في واشنطن ولندن وباريس وموسكو وبيجين وبرلين وغيرها لدعم "ملف مبارك" والضغط على هذه الدول للحيلولة دون سقوطه، لان سقوطه يهدد الاستقرار في "الشرق الأوسط"، ولكن بعض القادة الإسرائيليين اعترفوا أن حقبة مبارك انتهت ولا بد من بديل، واعتبروا حسب وثائق ويكيليكس ان مدير المخابرات السابق ونائب الرئيس الحالي "عمر سليمان" هو الخيار الأفضل، فهو صاحب الخط الساخن مع الإسرائيليين على الدوام.

الصينيون من جهتهم أخذوها "من قصيرها" والغوا البحث عن كلمة "مصر" على محرك البحث الشهير غوغل، فهم لا يريدون أي شيء يذكرهم بميدان "تيان إن من" الشهير عندما سحقت الدبابات الصينية المطالبين بالحرية هناك.

في عالمنا العربي انتهجت الحكومات العربية سياسة "التطنيش" على قاعدة لا "مين شاف ولا مين دري"، في انتظار ما ستسفر عنه المنازلة بين الشعب المصري ونظام مبارك، مع بعض التحركات هنا وهناك مثل إقالة حكومة أو إنشاء صندوق للمعونة أو صرف دنانير "كاش" للشعب أو التعهد بعدم التمديد والتوريث، لكن أهم حدث هو ما قام به "قائد الثورة" عندما حذر الصحفيين من استخدام "الفيس بوك" باعتباره مكبا للخطايا والفتن، في حين اعتبر مفتي السلطان ان ثورة المصريين "فتنة" يدعمها إعلام "منحرف".

نعود إلى ما بدأنا به أي "البلطجوقراطية" التي يحميها "سلاح البلطجية" من المجرمين وأرباب السوابق بتمويل من رجال الأعمال، وهو السلاح الذي استخدم ضد المتظاهرين في ميدان التحرير فيما أطلق عليه "غزوة الجمال والخيول والبغال"، وهي الغزوة التي أعادتنا إلى عصر الجاهلية.. لكنها هذه المرة جاهلية الدكتاتورية والظلم والفساد في القرن الحادي والعشرين.

لا حصانة لطاغية

لا حصانة لطاغية.. هذا هو الدرس الأول للثورة المصرية وقبلها الثورة التونسية، فأي طاغية مهما بلغ جبروته سيتهاوى أمام إرادة الشعب، والتاريخ يثبت ذلك.

نجحت الثورة المصرية بخلع رئيس محاط بطبقات كبيرة من الفاسدين والمرتشين والمنافقين وأجهزة امن تجاوز عدد أفرادها مليونين، وكان يرفض مجرد الحديث عن تعيين نائب له ويعتبر الحديث عن استقالته "كفرا"، لكن الثورة المصرية أجبرته التنازل والتنحي والرحيل خلال ١٨ يوما فقط ، بعد أن سفك دماء أكثر من ٣٠٠ شهيد واستخدم الرصاص الحي والمطاطي والمحرم دوليا والغاز المسيل للدموع المنتهية صلاحيته والغازات السامة والبلطجية والقناصة وقطع الاتصالات ووقف الانترنت ووقف المحطات الفضائية وتعطيل البث على الأقمار الصناعية التي يتحكم بها .. أي انه استخدم كل ما في جعبته من أدوات قمعية، لكنه هزم أمام الشعب وتنحى ورحل.

ثورة المصريين لم تطح بالرئيس الذي تحول إلى "الرئيس المخلوع" بل خلعت نائبه، الذي ربما يعتبر نائب الرئيس الأقصر مدة في العالم، ونجح بالإطاحة بحزب الرئيس وحل البرلمان المزور بمجلسيه وأوقف العمل بالدستور .. باختصار استطاع المصريون إنهاء حقبة كاملة الدكتاتورية وأطاح برؤوسها الكبيرة التي تهاوت الواحد تلو الآخر.

رغم كل هذه النجاحات المدوية والكبيرة والتي تحققت خلال أسبوعين، لا تزال الثورة في بدايتها، فرحيل الرؤوس الكبيرة لا يكفي ولا بد من رحيل الرؤوس الوسيطة والصغيرة، التي كانت تنفذ سياسات الرأس الكبير، ولا بد من استرداد أموال الشعب المصري التي نهبها هؤلاء خلال ٣٠ عاما من الفساد والنهب والدكتاتورية، ولابد من محاكمة الذين تلطخت أيديهم بدماء الأبرياء والذي اعتقلوا الناس بظلم، ووضعوهم في المعتقلات ومارسوا ضدهم كل أنواع

التعذيب والممارسات اللا إنسانية واللا أخلاقية، لا بد من محاكمة من فجر كنيسة القدسين في الإسكندرية والذين كانوا يرسلون "الزعران" للتحرش بفتيات مصر الطاهرات .. هذه المحاكمات لا تدخل في باب الثار وتصفية الحسابات بل في باب استعادة الحقوق والكرامة والتأكيد على أن المفسدين لن يفلتوا من العقاب مهما طال الزمن.

ثورة المصريين انتصرت..لكنه انتصار ناقص، فحتى الآن لم يخرج المعتقلين من السجون ولم يلغ قانون الطوارئ ومازال الحكم بيد العسكر والرموز القديمة.. وهي أمور تعني انه لابد من مواصلة الثورة حتى تحقيق كل المطالب الشعبية للمصريين في الحرية والكرامة والعدالة الاجتماعية والديمقراطية.. ولكي لا نضع العصي في دواليب الحراك المصري لابد من الاعتراف أن الخطوات التي اتخذها المجلس الأعلى للقوات المسلحة المصرية التي يدير البلاد حاليا، هي خطوات جيدة وايجابية وتسير في الاتجاه الصحيح، فقد أعلن انه سينقل السلطة إلى حكومة مدنية منتخبة بطريقة ديمقراطية وأوقف العمل بالدستور المفصل على مقاس الزعيم وحل مجلسي الشعب والشورى المزورين واطر حركته بمدة زمنية تصل إلى ٦ أشهر، وهي مدة معقولة لتعديل الدستور ووضع قانون انتخابي جديد لاختيار مجلس يمثل الشعب المصري.

خطوات المجلس العسكري ووعوده معقولة ومقبولة ومنطقية وجادة ، وهذا يبرر فض التظاهرات في الشوارع والعودة إلى العمل والبناء، مع الإبقاء على اليقظة والحذر من أي انحراف لهذا المجلس وما تبقى من أعضاء نظام مبارك المخلوع للاحتيال على الشعب، والنزول إلى الشوارع مجددا إذا ارتد المجلس العسكري عن الاستجابة لمطالب الشعب

الثورة المصرية رسخت فكرة أن الحرية تنتزع ولا تأخذ، وان الطغاة يهربون بسرعة البرق مهما بلغ جبروتهم ، وأعلنت انتهاء المظاهرات الإيديولوجية فالحرية والعدالة هي المطلب الوحيد الذي لا يخضع لأي حزب أو تنظيم أو جماعة لأنها مطلب الشعب كله.

الانقضاض على العاصفة

يمكن وضع سقوط نظام حسني مبارك في مصر في خانة الأحداث التاريخية المفصلية الكبيرة، فالنظام المصري هو العمود الفقري للنظام السائد في العالم العربي أو ما يحب الغرب أن يطلق عليه "الشرق الأوسط وشمال إفريقيا"، وعلى الرغم من أسبقية الثورة في تونس والتي أطاحت بنظام الرئيس المخلوع زين العابدين بن علي، وريادتها على المستوى العربي، إلا أن الإطاحة بنظام مبارك يعد زلزالا حقيقيا يؤسس لمرحلة من التغيير المنطقة على المديين القريب والمتوسط.

كثيرون لم يتوقعوا أن يسقط نظام مبارك بهذه السرعة، وهو النظام المدجج بالأمن والمحمي بطبقات من الفاسدين في كل المستويات والمسلح بالسلطة والسطوة والعنف والبلطجية، لكنه سقط وتهاوى في اقل من ثلاثة أسابيع رغم كل المحاولات اليائسة لإخماد الثورة، من التهديد إلى محاولة عزلها عن العالم ثم البدء بتقديم التنازلات حتى الإعلان النهائي عن التنحي والتخلي عن السلطة.

تنحي مبارك ورحيله عن السلطة كان الحل الأخير عندما ابلغه رئيس حرسه بما يجري وقال له "سيدي الرئيس يوجد ١٧ ألف متظاهر يحاصرون القصر الرئاسي وسيصبح عددهم ١٧٠ ألف متظاهر بعد قليل.." أي لا مفر من الرحيل وهو ما حدث فعلا بعد أن حطت ٣ مروحيات في باحة القصر لتنقله وعائلته إلى شرم الشيخ، فيما يعد سقوطا مدويا لزعيم اكبر دولة عربية، سمعت أصداؤه في اليمن والسودان والأردن والبحرين والجزائر وليبيا والمغرب حيث خرج المتظاهرون إلى الشوارع للمطالبة بإصلاح أنظمة بلادهم أو إسقاطها.

المشكلة الحقيقية هي أن الأنظمة العربية لا تريد أن تفهم الشعوب وعندما يضطر احد الحكام العرب للوقوف ليقول لشعبه: "أنا فهمتكم" كما فعل زين العابدين، يكون الوقت قد

تأخر، وان ما يعرضه لا يلبي المطالب الشعبية التي تتصاعد شيئا فشيئا، من مطالب خدمية ومعيشية إلى مطالب سياسية تريد إسقاط النظام ورأسه، كما حدث في تونس ومصر.

الأمر الثاني هو أن كثير من الأنظمة العربية تتعامل مع ما يجري "بغباء" منقطع النظير، فهي أنظمة مفصولة عن الواقع ولا تشعر بهموم الناس ومعاناتهم ومطالبهم ، وتتعامل مع الشعب على انه "مجموعة من المندسين الممولين من الخارج الذين يخدمون أجندات خارجية"، مثلما حدث عندما وقف الرئيسان المخلوعان بن علي ومبارك ليتهما المتظاهرين بأنهما "غوغاء مدفوعين من الخارج"، وهي اتهامات يختلط فيها الغباء وفقدان الوعي والتوازن وعدم القدرة على إدراك ما يجري.

الأنظمة العربية في مواجهة العاصفة فعلا.. عاصفة التغيير والديمقراطية والحرية، وهي عاصفة ستنتقل من بلد لآخر دون توقف، ما لم يتم الاستجابة للتطلعات الشعبية، ومحاولة الانقضاض على الشعوب بقنابل الغاز المسيل للدموع والرصاص الانشطاري والمطاطي والهراوات والبلطجية والاعتداء على الصحفيين وتكسير أقلامهم وكاميراتهم هي بمثابة "انقضاض على العاصفة"، وهو فعل انتحاري بكّل المقاييس، سيؤدي لسقوط الأنظمة حتما بعد سفك مزيد من الدماء.

لو كان الرصاص ينفع وسلاح البلطجية يجدي لحمى نظام رئيسين خلعهما شعبيهما في اقل من شهر واحد.. ومن ينام على وسادة الأمن فهو ينام على سراب، فأكثر من مليوني رجل من الأمن المركزي في مصر لم يستطيعوا التصدي للجماهير الهادرة .. والنتيجة سقوط نظامين تنكر لهما الغرب الذي كانا يخدمانه طوال فترة حكمهما، واعتبر سقوطهما "خطوة مشجعة"، فالغرب لا يعترف بأصدقاء أو حلفاء وما يهمه مصالحه، والأجدى للأنظمة العربية ان تتصالح وتتحالف مع شعوبها قبل أن تكبر العاصفة ويشتد ريحها.

فرعون في القفص

الرئيس المصري المخلوع محمد حسني السيد مبارك وراء القضبان .. أول حاكم عربي في التاريخ يسقطه شعب عربي ويضعه في القفص ويحاكمه بتهم القتل العمد والفساد والتربح واستغلال النفوذ وهي التهم التي وجهها النائب العام بالإضافة إلى الإضرار بالمركز الاقتصادي لمصر والتربح بعمولات السلاح وإهدار هيبة مصر، وبيع الغاز لإسرائيل بأسعار شبه مجانية.

بعد ثلاثين عاما من حكم مصر التي تصرف فيها وكأنها مزرعته الخاصة أو "عزبته" التي يديرها مع عائلته وأبنائه وزبانيته، سقط الدكتاتور مرغما بعد أن خلعه الثوار المصريون الذي اجتاحوا الشوارع ليعلنوا أن لا عودة إلى الوراء، وان الشعب مصمم على إسقاط آخر الفراعنة.

مشهد مبارك على سريره مع نجليه في القفص خلف القضبان لحظة تاريخية فاصلة، إنها مفترق طرق تاريخي وحضاري للشعب المصري العظيم والأمة العربية المجيدة، مشهد لا يدانيه شيء في تاريخ العرب، فلأول مرة في تاريخ الأمة العربية يجبر شعب طاغية مستبد عربي على الرحيل، ولأول مرة يخلع العرب حاكما ويحاكموه علنا أمام الكاميرات وعلى مرأى من العالم كله، إنها سابقة تاريخية تعلن عن عبور العرب إلى العصر الجديد، عصر الحرية والعدالة والكرامة، عصر القصاص من الظلمة والطغاة والمستبدين، وعصر الخلاص من عبودية الحاكم وعائلته وزبانيته.

نسي المخلوع حسني مبارك والطغاة أمثاله أن "الشعوب إذا غضبت تأكل أربابها"، وأنها إذا نزلت إلى الشوارع فإنها ستنتصر، وان الدم ينتصر على السيف دائما، وان الشعوب إذا أرادت الحياة فان القدر يستجيب.

لم ينفع مبارك أجهزته الأمنية الضخمة ولا مليوني جندي من الأمن المركزي ونصف مليون من مباحث امن الدولة، لم يستطيعوا إنقاذه من غضب الجماهير الثائرة، ولم يتمكن قناصته

من إخماد الثورة ولا قتل الثوار، ولم تنفع جرائمه بدهس الناس بتركيعهم، بل انقلب الأمر إلى الضد، فكلما أسال مزيدا من الدماء، كلما تأججت الثورة واشتد أوارها، وكلما اشتعل الغضب في القلوب والصدور، وكلما ترسخ الإصرار على إسقاط النظام زبانيته وأعوانه وعسكره.

شعب مصر العربي سجل سابقة في تاريخ الأمة، كيف لا وهو صاحب أعمق حضارة في التاريخ، وأعلن انتهاء عصر الفراعنة إلى الأبد، وأغلق بالدم باب الردة الى عصر العبودية.

لأول مرة في تاريخ الظلم العربي وتاريخ دكتاتورية الحكام يقبع حاكم مستبد جبار أذل البلد والعباد في القفص، يقبع فيه هو وأعوانه وزبانيته وقائد عسكره.. انه التاريخ العربي يغير المسار، وينعطف باتجاه الحرية والاستقلال الحقيقي للتخلص من الاستعمار الداخلي والاستعمار الخارجي، ويمنح أبناء الأمة العربية الفرصة لاكتشاف أنفسهم وذواتهم.

سقطت الحصانة عن الطغاة رغم استباحة الأسد لسوريا وذبح حماة ودرعا ودير الزور، ورغم إحراق القذافي لليبيا وشنق مصراته، ورغم تخريب صالح لليمن وإحراق المعتصمين في خيامهم في تعز، سقطت الحصانة عنهم، فلا حصانة لطاغية مهما علا جبروته في الأرض.. سقط مبارك وهو يحاكم الآن وهؤلاء الطغاة سيسقطون ويحاكمون على جرائمهم بحق الشعوب والأبرياء، وسيدفعون ثمن الفساد والإفساد ونهب الثروات ورهن الأمة ومقدراتها للأجنبي.. انه التاريخ الجديد .. مبارك في القفص خلف القضبان والعقبى لباقي الطغاة.

أسماء خلعت مبارك
فهل تخلع المجلس العسكري؟

أسماء محفوظ.. واحدة من المع شباب الثورة المصرية المعاصرة، فهذه الشابة الجامعية التي تبلغ ٢٧ عام من العمر، وتحمل إجازة في الإدارة هي التي كتبت البيان الأول للثورة التي أطاحت بالرئيس حسني مبارك وحولته إلى رئيس مخلوع..

كان بيانا على شكل كلمة بثتها على موقع "يوتيوب" في ١٨ يناير ٢٠١١ قبل أسبوع من اندلاع الثورة تحدث فيه أسماء نظام مبارك وجهازه الأمني وأكثر من مليون ونصف مليون عسكري من الأمن المركزي ونصف مليون مخبر من مباحث امن الدولة، وأعلنت في التسجيل انه ستنزل إلى الميدان ولو وحيدة في الخامس والعشرين من يناير وقالت" أنا نازله يوم ٢٥ يناير وحقول للفساد وللنظام لا عشان كرامتي كمصرية.. وأردفت كل واحد شايف نفسه راجل يبقى ينزل، وكل واحد بقول البنات اللي تنزل دي بتتبهدل وحرام، يبقى يخلي عنده نخوة ورجولة وينزل يوم ٢٥.. أوعى تخاف من الحكومة، خاف من ربنا.. انزل وطالب بحقك وحق اهلك وحقنا كلنا"..

كان هذا هو البيان الأول لمؤججة الثورة المصرية المعاصرة، رغم فشلها في المرة الأولى عندما نزلت إلى الميدان قبل ذلك ولم يساندها إلا ٣ شبان سرعان ما أحاطت بهم ٣ سيارات للأمن المركزي، لكنها لم تيأس، وقررت القتال حتى النهاية، وسارعت الى بث تسجيل بيان ثان في الساعة العاشرة والنصف من ليلة الرابع والعشرين من يناير حرضت فيه على الثورة وقالت:" بكرة بداية النهاية لو نجحنا وبقينا صامدين أمام الأمن .. بكرة الساعة ٢ الظهر في ميدان مصطفى محمود في جامعة الدول العربية، كلنا حنقابل بعض، ايد واحدة، يوم سلمي، اللي حيخرب مش مننا، واحنا اللي حنمعنه.. كل واحد يجيب علم مصر معاه، دا هو الغطا

بتعنا، وحنقول البلد دي بلدنا وحقنا كبني ادميين وكمصريين.. بكرة أملنا وحلمنا.. أول خطوة على طريق حلمنا".

رسالة الشابة الثورية التي قررت أن تغير وجه مصر مرة واحدة إلى الأبد، بمشاركة رفاقها ورفيقاتها من أبناء الجيل الجديد في مصر، نجحت بالوصول إلى آلاف المصريين الذين لم يخيبوا أملها وكانوا على الموعد في الميدان، وتحولوا إلى مد جماهيري عارم بمشاركة ملايين المصريين بعد ذلك.

أسماء..أيقونة الثورة المصرية، ومطلقة الشرارة الأولى، اعتقلها المجلس العسكري الذي يدير مصر بعد انهيار نظام مبارك، وحولها إلى محكمة عسكرية بتهمة " اهانة الجيش وتوجيه اهانات مشينة وألفاظا جارحة للمجلس العسكري"، عبر صفحتها على الفيسبوك وتويتر وما تدلي به من تصريحات على محطات التلفزة، ثم عاد وأفرج عنها بكفالة ٢٠ ألف جنية.

هذا الاعتقال الذي اعتبرته منظمة العفو الدولية بمثابة "رسالة مفادها انه لن يسمح بالاعتراض على المجلس العسكري"، وهو ما عبر عنه صراحة رئيس هيئة القضاء العسكري اللواء محمود المرسي في بيان أصدره قال فيه ان "لا تساهل مع اهانة القوات المسلحة والمجلس العسكري الأعلى من خلال القنوات الفضائية والفيسبول وتويتر"، علما أن العبارة التي كتبتها أسماء ذهبت للتنبيه إلى ما يجري بقولها "لو القضاء لم يأت بحقنا ما حدش يزعل لو طلعت جماعات مسلحة وعملت أية سلسلة اغتيالات وطالما مفيش قانون ومفيش قضاء محدش يزعل من حاجة". وهي عبارة تحذيرية وتعبير عن المخاوف وليست تحريضا.

مشكلة المجلس العسكري مع أسماء محفوظ ومع شباب الثورة المصرية بل مع الشعب المصري كله تلخصها أسماء نفسها عندما تسرد ما جرى معها بعد خروجها من غرفة التحقيق وإجلاسها في غرفة أخرى فيها بعض الضباط الذين بادروها بالقول: انتو عايزين منا ايه .. الشعب ده ما ينفعش معاه حقوق إنسان .. الشعب تعود على كده، لو سبناه كده حيبقى فيه انفلات امني" ثم بادرها احدهم بالقول:" مبارك كان "سنه" متخلخله وإحنا اللي ساعدناكم توقعوه، واكتر من كده ما تحلموش".. هذا هو العقل الذي يدير مصر حاليا يعتقد ان الشعب المصري لا يستحق حقوق الإنسان، وان سقوط مبارك هو النهاية.

لقد كان تعليق أسماء على ما يجري بعد الإطاحة بمبارك بليغا إذ تقول: منذ عام ٢٠٠٨ وأنا احلم بالتخلص من الفساد ونظام مبارك، لكنني اكتشفت أن الفساد ليس في نظام مبارك وحده، وأردفت بالقول سواء كان عسكريا أو مدنيا يدير البلد فهو "حاكم سياسي" ومن حقنا

أن ننتقده ومن حق الشعب أن ينتقد ويعرف وان تتخذ القرارات بشفافية وان نكـون شركـاء باتخاذ القرار".

هذا بالضبط هو ما أثار المجلس العسكري من أسـماء، التـي خلعـت الخـوف وقـررت أن الشعب هو الذي يجب أن يحكم، وان المجلس العسكري مجرد مرحلـة انتقاليـة يجـب عليـه العودة إلى الثكنات بأسرع وقت ممكن وان يترك الحكم لمن يختاره الشعب..

أسماء محفوظ حكاية من حكايات الثورة المصرية، وهـي حكايـة لم تكتمـل بعـد، بـدأت بخلع مبارك وستنتهي بخلع المجلس العسكري أيضا وإعادته إلى الثكنات ولـيس فـوق كـراسي الحكم.

الانقلاب على الشعب المصري

كشر الجنرالات المصريون عن أنيابهم وفتحوا النار على المحتجين في ميدان التحرير وقتلوا ١٥ مدنيا مصريا وجرحوا أكثر من ألف خلال يومين في مواجهات غير متكافئة ضد المدنيين.

"المجلس الأعلى للقوات المسلحة"، الذي يتكون من جنرالات الجيش المصري يدير مصر عمليا من تنحي الرئيس المخلوع حسنى مبارك في الحادي عشر من فبراير - شباط الماضي، وهو يهمن على السلطة ويشكل حكومات لا يتعدى دورها "سكرتارية" للجنرالات.

كان يفترض أن ينقل العسكر مصر بعد خلع مبارك إلى مرحلة الاستقرار وبناء الدولة الجديدة من خلال الإشراف على إجراء انتخابات ديمقراطية لانتخاب ممثلي الشعب ومن ثم انتخاب رئيس جديد، على غرار ما حدث في تونس، الا أن مجرى الأحدث اظهر أن الجنرالات المصريين لا يرغبون بمغادرة السلطة وأنهم يريدون "هندسة الحياة السياسية" بشكل يضمن لهم النفوذ إلى مالا نهاية، وهذا ما تبرزه المادتان التاسعة والعاشرة من " وثيقة السلمي" والتي تنص على أن:"يختص المجلس الأعلى للقوات المسلحة دون غيره بالنظر في كل ما يتعلق بالشئون الخاصة بالقوات المسلحة ومناقشة بنود ميزانيتها على أن يتم إدراجها رقماً واحداً فى موازنة الدولة، كما يختص دون غيره بالموافقة على أي تشريع يتعلق بالقوات المسلحة قبل إصداره، ورئيس الجمهورية هو القائد الأعلى للقوات المسلحة ووزير الدفاع هو القائد العام للقوات المسلحة، ويعلن رئيس الجمهورية الحرب بعد موافقة المجلس الأعلى للقوات المسلحة ومجلس الشعب"..

هذا البند يشرعن "حكم العسكر"، خارج نطاق الرقابة أو المسائلة الشعبية، وهي شكل متطور من أشكال "الاحتيال السلطوي" الذي يجعل الحكم في يد الجنرالات، على أن تكون الواجهة "مدنية"، تتكون من أدوات يمكن تحريكهم كما يريد، وهذا الأمر يعني أن الجيش

سيكون "دولة داخل الدولة"، حيث لا ولاية للحكومة او مجلس الشعب او النواب عليه.. أي لا ولاية للشعب على الجيش.

دور العسكر في مصر خطير فهم لم يغادروا السلطة منذ عام ١٩٥٢، وهم يتمتعون بامتيازات السلطة والمال والنفوذ، وتحولت المؤسسة العسكرية في مصر إلى "مصنع" للرؤساء، منذ أكثر من نصف قرن، وتوسع دوره في عهد الرئيس المخلوع حسني مبارك إلى مؤسسة استثمارية ضخمة، تدير مصانع ومزارع ومؤسسات، تدير مليارات الدولارات، وتشير بعض الإحصائيات إلى أن المؤسسة العسكرية المصرية تدير عمليا نحو ٦٠ في المائة من الاقتصاد المصري مما حرفها عن دورها التقليدي كمؤسسة عسكرية محترفة.

الشعب المصري الذي يتعامل باحترام كبير مع الجيش، خرج إلى الشوارع والميادين احتجاجا على وثيقة السلمي وهيمنة العسكر على الحياة السياسية في مصر، ومطالبا بتحديد موعد وبرنامج زمني محدد لنقل السلطة إلى الهيئات المنتخبة من الشعب، وهو يعني عمليا سقوط وثيقة "شرعنة حكم الجنرالات"، وهو تعبير عن إصرار الشعب على إعادة العسكر والجنرالات إلى ثكناتهم.

يخطئ المجلس العسكري إذا ظن ان الشعب المصري سيتراجع عن مطالبه، ويخطئ أكثر إذا تخيل أن عقارب الساعة ستعود إلى ما قبل ٢٥ يناير و ١١ فبراير، ويخطئ إذا ظنوا أن الشعب المصري سيقبل "حكومة دمى" تدار من وراء ستار، فالمصريون الذين خلعوا واحدا من اعتى الأنظمة الاستبدادية الأمنية في العالم لن يتراجعوا إلى الوراء، ولن يقبلوا بان تكون نتيجة ثورتهم مجرد انقلاب عسكري، فمصر الجديدة يحركها جيل جديد وفكر جديد، لا يمكن الاحتيال عليه أو سرقة ثورته، وتسليمها للعسكر أو لفلول نظام الرئيس المخلوع.

مصر تدفع ثمن موقعها الجيوسياسي، والشعب المصري أمام حالة من الكر والفر مع "فلول النظام السابق" الذين لا يزالون ينشطون لاستعادة نفوذهم المفقود، والشعب الذي هتف "الشعب يريد إسقاط النظام" ويهتف حاليا " الشعب يريد إسقاط المشير والمجلس العسكري"، يعني ما يقول .. والنتيجة حتمية وهي انتصار الشعب المصري وهزيمة كل من يحاول أن يقف في طريقه .. انه تحد ومنازلة مفتوحة بين الشعب الثائر وبين المتشبثين بالسلطة من العسكر ضد إرادة الناس.

الثورة المصرية وفخ العسكر

الجنرالات المصريون في "المجلس الأعلى للقوات المسلحة" او ما يطلق عليه اختصارا "المجلس العسكري"، يراوغون وينصبون الفخاخ للشعب المصري وقواه الثائرة للبقاء في السلطة على الرغم من إعلان رئيس المجلس المشير حسين طنطاوي أن العسكر زاهدون في السلطة.

هذه المرواغة تكشفها فقرة في خطاب طنطاوي الأخير قال فيها:" إن القوات المسلحة ممثلة في مجلسها الأعلى لا تطمح في الحكم وأنها على استعداد تام لتسليم المسؤولية فورا والعودة إلى مهمتها الأصلية في حماية الوطن إذا أراد

الشعب ذلك من خلال استفتاء شعبي إذا اقتضت الضرورة ذلك" .. وهو هنا يشير إلى أن العودة إلى الثكنات ستكون عبر استفتاء، مما يعني وضع "لغم" يمكن تفجيره في أي لحظة لإيجاد مبرر للبقاء في السلطة.

المفارقة الساخرة هي أن وجود المجلس العسكري في الحكم "غير شرعي"، على الرغم من صمت جميع القوى السياسية على هذه الحقيقة، فالدستور المعمول به ينص على نقل السلطة إلى رئيس مجلس الشعب أو رئيس المحكمة الدستوري اذا تنحى الرئيس أو مات او عجز عن ممارسة مهامه حسب المادة ٨٤، ومن هنا فان "تكليف" المجلس العسكري بقيادة البلاد ليس أكثر من "انقلاب ناعم"، تم الترويج له بعناية، حيث لعبت وسائل الإعلام والتصريحات الأمريكية دورا كبيرا لتبييض صورة الجيش المصري الحامي للثورة، والرافض لاستخدام العنف ضد المحتجين المطالبين بخلع مبارك، وانه صمام الأمان للبلاد، وعزز هذه الطروحات العلاقة العاطفية التي تربط الشعب المصري بجيشه، التي تضعه فوق الشبهات والمناكفات او التصنيفات الحزبية و الإيديولوجية بوصفة "مؤسسة وطنية موحدة".. ومن

هذا البوابة العاطفية دخل العسكر إلى العمل السياسي وإدارة دفة الأمور برضى الشعب وقواه السياسية.

الا ان "المجلس العسكري" عجز عن العبور بمصر إلى المرحلة التالية، وبدا وكأنه يناور من اجل تكريس وجوده في السلطة وتحصينه من المسائلة وهو ما عكسته وثيقة المبادئ فوق الدستورية التي وضعها نائب رئيس الوزراء المستقيل علي السلمي، والتي تجعل من الجيش المصري "كيانا يتمتع بحالة فوق دستورية"، ما يفتح الباب أمام عودة مصر إلى فخ الدكتاتورية والاستبداد ويضع البلاد أمام طريق مسدود.

لعبة الجنرالات المصريين كانت فائقة المهارة، فبدلا من إلغاء الدستور للتخلص من نظام مبارك بالكامل اجروا استفتاء على تعديلات دستورية بالتوافق من الإخوان المسلمين، ورفض الجنرالات الاعتراف بالثورة، وتعاملوا مع ما يجري على انه شكل من أشكال الاضطرابات التي تحتاج إلى "احتواء"، وتصرفوا بمنطق إدارة الأزمة لا حلها، ورفضوا القطع مع العهد السابق، وماطلوا بالعمل بقانون العزل السياسي لإغلاق الباب أمام فلول مبارك للعودة إلى المشهد السياسي، واقروا قانون "مكافحة الإفساد السياسي"، وهو قانون يعمل على زيادة الإفساد السياسي وليس مكافحته.

العسكر يحاولون اللعب على التناقضات الموجودة على الساحة السياسية واستثمار التباينات الموجودة بين الأحزاب، وظهر ما يشبه التوافق ما بين "العسكر والإخوان المسلمين" على المضي قدما في اللعبة خلافا لما تريده القوى الثورية في الميدان وتباينا مع قوى حزبية أخرى، فالإخوان قرروا مقاطعة المظاهرة المليونية، وهو ما يمنح العسكر الوقت لإعادة ترتيب الأمور بشكل يمكنه من "اختراع الحلول" لتحصين وضع الجيش الذي يهمن على السلطة منذ ٦٠ عاما.

على الرغم من كل هذه المناورات إلا أن هامش المناورة يضيق تماما أمام المجلس العسكري، الذي يجد نفسه مضطرا على تقديم تنازلات للجماهير التي نزلت ميدان التحرير وميادين كل المدن المصرية للهتاف ضد المجلس العسكري ورئيسه والمطالبة بسرعة تسليم السلطة للمدنيين وخروج الجنرالات من المشهد السياسي، وعودة العسكر إلى ثكناتهم.

الشعب المصري الثائر في ميدان التحرير انتقل خطوة أخرى إلى الأمام حين طرد ثوار ميدان التحرير قياديي الأحزاب التقليدية ومن بينهم الاخوان المسلمين من الميدان ،مما يعبر عن الشروع في إسقاط القوى التقليدية المصرية التي اختارت الجانب الخاطئ في اللحظة التاريخية الحاسمة.

في ميدان التحرير نجحت مليونية الشعب بدون الإخوان المسلمين والقوى الأخرى، وظهر الشعب في أحسن حال وهو يطالب العسكر بعدم التلكؤ بتسليم السلطة، وتبين أن بوصلة الشعب المصري تشير إلى الاتجاه الصحيح لإنهاء عصر الانقلاب العسكرية في العالم العربي إلى الأبد. فالشعب إنهاء حكم المجلس العسكري وليس "إسقاط الدولة المصرية" كما قال المشير، ومن أنصت للهتافات في ميدان التحرير بعد بيان طنطاوي يدرك أن الشعب سلك طريق اللاعودة " الشعب يريد إسقاط المشير .. واحد السلطة مدنية اتنين حكومة وطنية .. ارحل يعني امشي أنت ما بتفهمشي".

لا خيار أمام العسكر إلا الانسحاب إلى الثكنات وتطهير المشهد السياسي من فلول مبارك" وتسليم السلطة للشعب الذي يرفض أن يعود إلى الماضي .. فقد سقط الخوف والرعب والتخويف على الرغم من عودة الأمن المركزي إلى المشهد لا تعني سوى شيئا واحدا.. هو ثورات مليونية في كل الميادين.

الجنرالات يرفضون الاعتراف

رغم الكلام الناعم للمجلس العسكري الحاكم في مصر، عن احترام إرادة الشعب، إلا أن واقع الحال يدل على غير ذلك، والدليل هو سحب تلك الفتاة المصرية في الشارع وقد تم تعريتها وخلعت ملابسها بينما يجرها الجنود في ممارسة لا أخلاقية تفتقر للقيم واللياقة والعرف والدين والإنسانية والعادات والتقاليد، إضافة إلى صور الجنود وهم ينهالون ضربا على المتظاهرين بهدف القتل وليس الردع أو التخويف، فقد انهالوا بالضرب دون رحمة او شفقة على كل من وقع تحت أيديهم وصبوا جام غضبهم عليهم وكأنهم يأخذون بثأرهم من الشعب الذي تمكن من خلع "الريس" واسقط نظامه.

المجلس العسكري لا يزال يعيش حالة من الإنكار للثورة، والجنرالات لا يعترفون بالثورة رغم الإشادات " من وراء الظهر"، ولا يقرون ان هناك شعبا خرج القمقم وكسر حاجز الخوف، ولذلك يحاولون إعادة الشعب إلى القمقم ثانية، بالضرب والقتل والتعسف، ومهاجمة المتظاهرين والمحتجين الثائرين، ولان الجنرالات لا يؤمنون بالحلول الناعمة فهم يلجأون إلى الحلول الخشنة و"كسر الرؤوس" وجر الفتيات من شعورهن في الشوارع كما حدث مع سيدة من حرائر مصر، وهي الحادثة التي جابت صورها جهات العالم الأربعة.

المجلس العسكري يحاول شد التاريخ إلى الخلف، وينسى أن قوى الشد العكسي تفشل دائما، فهي يمكن أن تربح جولة لكنها تخسر المعركة في النهاية، وفي الحالة المصرية فان الشعب الذي قرر التمرد والثورة لن يعود أدراجه، ولن يستسلم ولن يرفع راية بيضاء ولن ييأس مهما كانت الظروف، وقد أثبتت الأحداث الجارية في مصر منذ عام أن سيرورة الثورة ماضية في طريقها رغم كل الجهود التي يبذلها "الفلول"، وكل الأموال التي تدفع للسيطرة على الشارع.

مشكلة المجلس العسكري انه يلجأ إلى خطاب بائس لتبرير تمسكه بالسلطة والحكم في حركة مضادة لإرادة الشعب المصري، وظهر ذلك بجلاء في المؤتمر الصحفي الذي عقده أمس اللواء عادل عمارة عضو المجلس العسكري الذي استخدم عبارات من طراز:" تحريض .. مخطط لحرق الوطن .. عناصر محرضة .. إساءة استخدام الحرية.. إسقاط الدولة.. استغلال ملف الشهداء.. لن ننكسر ولن تتحني الهامات إلا لله تعالى .. زعزعة الأمن .. الادعاء بالاستخدام المفرط للقوة كذب وباطل .. ضيق الأفق.. وسائل الإعلام التي تعمل ضد هذا الوطن .. تطبيق خاطئ للديمقراطية يبنى على الكذب والتضليل .. إثارة الفتن وتنفيذ مخطط لحرق الوطن.. اللحظة فارقة والوطن في خطر.. ما تحمله الضابط والجندي من بداية الثورة تنوء عن حمله الجبال.. لا يمكن أن يتحمل بشر ما تحمله هؤلاء الجنود من.. إهانة ممنهجة ومتعمدة واستفزاز مقصود للجنود .. حقائق لا تقبل الشك.. القوات لم تتعرض للمتظاهرين رغم محاولات الاستفزاز والاحتكاك .. احتكاك مع الضابط واهانته .. قذف طوب ومولوتوف وأنابيب غاز واستخدام سلاح ابيض .. طريقة احتكاك ممنهجة من اجل الوصول إلى هدم الدولة .. الاحتكاك والإثارة والاستفزاز والإشاعات.. استفزاز الجنود وجرهم إلى المواجهة .. من يخرب الوطن لا يمكن من شباب ٢٥ يناير الأطهار.. الشباب النقي الطاهر.. مجموعات تقوم بأعمال تخريب لكي تنتهي مصر.. خسأ، لن تسقط مصر الا عندما نموت جميعا .. هناك وسائل إعلام تساعد على تخريب الوطن .. كلام ملوش "فصال"، أي غير قابل للنقاش.. المنهجية في التعامل: تظاهر سلمي ثم اعتداء على الدولة ومرافقها ثم التعرض للجنود والاحتكاك

ثم نشر الشائعات ثم بدء الحرق والتدمير لمؤسسات الشعب.. هناك فرق كبير بين المتظاهرين الطاهرين والمخربين."

هذه عينة من العبارات التي وردت في خطاب يتبناه المجلس العسكري كما عبر عنه احد أعضائه.. خطاب يعبر عن عدم قدرة او رغبة بقراءة الواقع والوقائع أو عدم اعتراف بما يجري، وهو يساوي فلسفيا عبارة العقيد القذافي الشهيرة:" من انتم؟"، وبشار الأسد والرئيس الهارب بن علي والمخلوع مبارك والمحروق علي صالح فكلهم استخدموا نفس المنظومة المفاهيمية في خطاباتهم البائسة.

وذا أعدنا بناء الرواية فان المجلس العسكري الحاكم في مصر يعتبر مظاهرات المصريين:" فتنة تقوم بها عناصر محرضة تخطط لحرق الوطن وإسقاط الدولة تعتمد على وسائل إعلام تعمل ضد الوطن وتستخدم العنف وتزعزع الأمن وأنهم يسيئون استخدام الحرية في تطبيق

خاطئ للديمقراطية وان المتظاهرين المعتدين يهاجمون الجنود ويحرقون مؤسسات الشعب ويهينون العسكر .." ولهذا يجب التصدي لهؤلاء الخاسئين بخشونة حسب المجلس العسكري لأنهم يريدون أن يسقطوا مصر، ثم يهدد: لن ننكسر ولن تحنى الهامات.. ولن تسقط مصر إلا عندما نموت جميعا"، وهذا هو "مربط الفرس" في خطاب العسكر البائس، فهم يعتبرون سقوطهم من الحكم سقوط لمصر، وهو خطاب يتماهى فيه "المجلس العسكري ومصر ليصبحا شيئا واحدا. وعندها تصبح "اللحظة فارقة والوطن في خطر" لان ما يتحمله العسكر تنوء عن حمله الجبال، ولا يتحمله بشر" لأنها حقائق "لا تقبل الشك ولا تقبل الفصال"..لان "جنود الأمن المركزي لا يضربون ولا يمارسون العنف والقانون معهم للدفاع عن أنفسهم" كما قال عمارة رغم أن الصور تثبت غير ذلك.

هذا الخطاب البائس للمجلس العسكري يعكس طبيعة التفكير الذي يحمله الجنرالات المتشبثين بهندسة المشهد السياسي في مصر، وسواء نطق عضو المجلس العسكري بتصريحاته بشكل مقصود أو غير مقصود.. بوعي او بدون وعي، فهي فضحت المستور وكشفت عن عقل الجنرالات الجمعي الذي يأبي الرحيل ويرفض أن يفهم أن التاريخ لا يستدير للوراء وانه يسير إلى الأمام فقط .. وان الثورة انطلقت ولن يوقفها العسكر ولا من يتحالفون معهم في السياسة والمال.

القذافي يهدد بحرق ليبيا

رياح الحرية هبت على ليبيا بعد تونس ومصر لتؤكد ان "ربيع العرب" مستمر ومتواصل، وهي الرياح التي تفعل فعلها في اليمن والجزائر والبحرين والمغرب، ولكن ما يجري في ليبيا يعتبر الأكثر دموية مقارنة مع ما جرى ويجري في الدول العربية الأخرى، فليبيا المحكومة بالضحالة السياسية واللانظام وحكم "الزعيم الأبدي" تحولت إلى حمام دم من اليوم الأول لعاصفة التغيير التي تطالب بإنهاء ٤٢ عاماً من حكم العقيد الذي عقد حياة الليبيين وبدد ثرواتهم وتركهم على "الحميد المجيد" رغم أن ليبيا تعد من أغنى بلدان العالم.

معمر القذافي الذي كان يدعي انه سلم السلطة للشعب وانه لا يحكم وانه مجرد "مرشد للثورة" يدعم حركات التحرر والحركات الثورية يرفض الاستجابة للثورة في بلاده، بل دافع ،وهو الثوري، عن نظامين كان يطلق عليهما "أنظمة رجعية" في تونس ومصر وتمنى أن يحكم "الزين" تونس مدى الحياة.

"قائد الثورة.. والزعيم الأوحد" فعل ما لم يفعله الرئيسين المخلوعين في تونس ومصر فلم يلجا أي من زين العابدين ومبارك لاستخدام المرتزقة لقتل الشعب، ولم يستخدما المروحيات و لا الرشاشات الثقيلة ومضادات الطائرات، لكن العقيد استخدم كل هذا دفعة واحدة دون حسيب أو رقيب فكان يوقع العشرات من القتلى في كل مرة، حتى وصل عددهم إلى أكثر من ٣٠٠ قتيل خلال ٣ أيام.

لا يمكن التسامح مع نظام العقيد معمر القذافي الذي يجب ان يحاكم بتهمة ارتكاب جرائم ضد الإنسانية وجرائم حرب واستخدم مرتزقة للقتل العشوائي وهي تهم تؤيدها الصور والأفلام والشهود وأهالي الضحايا.

حمام الدم الذي سفكه عقيد ليبيا وأركان حكمه يحتاج إلى محكمة دولية لان هذه الدماء يجب أن لا تضيع هدرا، فالقذافي يقتل وهو يعتقد أن يد العدالة لن تطوله أبدا مثلما

حصل حين اشترى براءته من تفجير طائرة لوكربي بمليارات الشعب الليبي وكما يحاول شراء براءته من دعم الجيش الجمهوري الايرلندي.

ليس هذا فحسب بل إن سيف الإسلام القذافي نجل العقيد والقائد التاريخي يهدد بان يعيد ليبيا إلى العصر الحجري والاحتكام للسلاح وبشر بتفكك ليبيا وتحولها إلى مجموعة من الدول، وتقسيمها قطعة قطعة ، والدخول في حرب أهلية وقال "أنسوا أن هناك شيئا أسمه بترول ، وأنسوا أن هناك شيئا أسمه غاز . ستسيل دماء ، أنهر من الدماء في كل مدن ليبيا.. وأنتم ستهاجرون من ليبيا لأن البترول في هذه البلاد سيتوقف..و بدلا من أن نبكي على ٨٤ قتيلا سنبكي على مئات آلاف القتلى".

هذا الخطاب السلطوي الخطير للقذافي الابن مؤشر على دموية التوجه والاستعداد لسفك دماء مئات آلاف القتلى، وهو ترجمة لما قاله القذافي الأب في اجتماع مع زعماء قبائل قبل أيام:"أنا خلقت ليبيا وأنا سأنهيها"، فوجود ليبيا في ذهنه وعقله مرتبط بوجوده في السلطة مدى الحياة، وغير ذلك الطوفان أو الحريق كما حرق نيرون روما في العصور الغابرة.

ثورة المهلوسين

الوزراء ضده .. الدبلوماسيون ضده .. السفراء ضده.. قادة الامن ضده .. الجيش ضده .. القضاة والمحامون ضده .. باختصار الشعب الليبي كله ضده، ومع هذا يقف القذافي في الساحة الخضراء ليقول في خطابه الثالث:"إذا كان الشعب لا يحبني فإنه لا يستحق الحياة... وإذا كان شعبي والشعب العربي والشعوب الإفريقية، وكل الشعوب لا تحب معمر القذافي، فمعمر القذافي لا يستحق الحياة".. يقول ذلك وهو يصم اذنية ويغلق عينيه ويشيح بوجهه عن ملايين الليبيين الذين خرجوا الى الشوارع وهم يهتفون بسقوطه ويطالبون برحيله ومحاكمته، ثم يتابع تمجيد الذات المريض ليعتبر ان الشعب يحبه لانه ، اي القذافي يمثل، " العزة والكرامة والمجد والتاريخ والكفاح" ويتوهم انه "قائد العالم الثالث بل قائد العالم كله".

القذافي اعتبر ان الليبيين الرافضين له مجرد " جرذان وفئران وجراثيم ومدمني حبوب الهلوسة" ويتوعدهم بتحويل ليبيا الى "جمر ونار حمراء" ، ويهدد بحرق الاخضر واليابس، ويطالب انصاره بالغناء والرقص والسهر.

القذافي حالة فريدة في التاريخ العربي، انه رجل يعيش في المتخيل لا يستطيع ان يرى الواقع، يعتبر نفسه ايقونة مقدسة "تستحق العبادة" حتى ولو لم يقل ذلك صراحة، لانه لم يمتلك الجراة مثل فرعون الذي وقف وقال بكل وقاحة:"انا ربكم الاعلى" بل ذهب ابعد من ذلك "وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحا لعلي أطلع إلى إله موسى و إني لأظنه من الكاذبين"..

فلما بني هامان له الصرح ارتقى فوقه فأمر بنشابة فرمى بها نحو السماء ، فردت إليه وهي متلطخة دما ، فقال : قد قتلت إله موسى.. هل هناك شبه بين الحالتين؟

ما تفوه به القذافي يشير الى حالة من "توحد الذات مع المصير" مثل الحاكم بامر الله الفاطمي الذي وصل الى درجة اعلن فيها الوهيته بدون مواربة، والقذافي لا يخفي اعجابه

بالفاطمية بل انه تحدث في خطابه عن "شباب الثورة ..شباب الفاطمية".. وهو لا يرى الشعب اكثر من ادوات لتحقيق مجده الشخصي، وعندما يتمرد الشعب عليه فانه لا يستحق الحياة، ولا بد من قتله وحرقه لانه يتمرد على "الزعيم الخالد والايقونة المقدسة والتراث والمجد"، وهنا مكمن خطورة هذا الرجل الذي لا يستبعد لجوئه الى كل انواع الاسلحة "لتاديب" هذا الشعب "الناكر للجميل" والخارج عن الطاعة والرافض لزعامة "ولي الامر الابدية"،مما ماجعل اقرب اصدقائه وهو عبد الرحمن شلقم، السفير الليبي في الامم المتحدة يرفع عقيرته ويندد بالقذافي الذي يريد" حرق ليبيا من اجل مجده الشخصي"، ويطالب بانقاذ ليبيا.

ما يجري في ليبيا جرى في تونس ومصر رفع الغطاء ليكشف عن كمية من العفن لا يستطيع العالم ان يتحمل رائحتها النتنة، من "الزعيم المقدس" الى زعيم "العصابات والبلطجية" الى "زعيم اللصوص والمافيا"، والبطانات الفاسدة وسراق الذهب والمال وطوابير المنافقين والمدلسين والزبانية الذين يذيقون الشعوب اصناف العذاب في المعتقلات السرية والعلنية.

لم تكتمل الصورة بعد.. فسقوط هذه الانظمة سيكشف المزيد من التفاصيل عن كمية الخراب والفساد والنهب التي دمرت عالمنا العربي ودمرت مقدراته، وعن ماساة حكام رهنوا حاضرنا ومستقبلنا بوجودهم، ورهنوا وجودهم للمستعمر والاجنبي، واشتروا سكوت الغرب في اوروبا وامريكا بالمال المدفوع من ثروات الشعوب، باعوا كل شيء من اجل "كرسي" .. باعوا الامة والشعوب والكرامة والمجد التي تحدث عنها القذافي، ومنحوا الغرب وشركاته "شيكا على بياض" لنهبنا مقابل الرضى والحماية .. مقابل حمايتهم من شعوبهم، وليس من احد اخر، وحمايتهم من "المهلوسين" الذين يتمردون على الظلم والطغيان...

زعيم المرتزقة الأممي

"دقت ساعة العمل ؛ دقت ساعة الزحف؛ دقت ساعة الانتصار ، لا رجوع .. إلى الأمام.. إلى الأمام.. إلى الأمام .. ثورة ؛ ثورة"

بهذه الكلمات انهي الزعيم الأممي وقائد الثورة الليبي كلمته التي خاطب فيها الشعب الليبي وبدا متوترا فاقدا لأعصابه يحرك يدا مرتعشة ويدق على الطاولة بقبضة واهنة صارخا:

"أنا معي الملايين .. معي الملايين ليس من الداخل ؛ معي الملايين من الأمم الأخرى ..

أنا أستطيع توجيه نداء إلى كل ملايين الصحراء ، من الصحراء إلى الصحراء ستزحف الملايين .. الملايين تزحف ؛ ولن يستطيع أحد أن يوقفها .. بسرعة أنقذوا أنفسكم قبل أن نعطي إشارة الزحف المقدس ... إذا لم يكن هذا ، فهناك زحف من الداخل؛ وبعدها هناك الزحف الأممي الذي سأقوده لأن ليبيا تهم كل الأمم ؛ ليبيا مثابة عالمية.. أنا سأوجه نداء للملايين من الصحراء إلى الصحراء، وسنزحف أنا والملايين، لتطهير ليبيا شبرا شبرا؛ بيتا بيتا؛ دارا دار ؛ زنقه زنقه ؛ فردا فرد ، حتى تتطهر البلاد من الدنس والأنجاس"

نعم.. أنا "معمر القذافي" قائد أممي ؛ أنا تدافع عني الملايين.. من غير الممكن أن شبابنا يقودهم أحد آخر ، هم إذا لم يتبعوا "معمر القذافي" ؛ سيتبعون واحد مقمل بلحيته ؟! مش ممكن.."

ووصل القذافي إلى غايته النهائية عندما أعلن بكل صلف وبصريح الكلام:"الثورة تعني كل المكتسبات؛ تعني المجد، تعني العزة ، تعني " معمر القذافي".

"أنا مقاتل ؛ مجاهد ؛ مناضل ؛ ثائر .. وستبقى ليبيا في القمة تقود إفريقيا وتقود أمريكا اللاتينية وتقود آسيا ؛ بل تقود العالم.. لا يمكن أن يعطل هذه المسيرة الظافرة حفنة من شذاذ

الأفاق المأجورين ؛ من هؤلاء القطط والفئران التي تقفز من شارع إلى شارع ومن زنقة إلى زنقة في الظلام".. وأردف "لم نستخدم القوة بعد، وإذا تطورت الأمور سنستخدمها"

خلال إلقاء "الزعيم الأممي العالمي" كلمته العصماء في حصنه "باب العزيزية" كان المقاتلات الحربية تقصف المتظاهرين وتوقع مئات الضحايا وكان "مرتزقته الأفارقة" يعيثون في ليبيا فسادا، يقتلون ويخربون ويسفكون الدماء وينتهكون حرمة البيوت ويعتدون على حرائر ليبيا العربيات المسلمات ..

القذافي ليس أكثر من "زعيم للمرتزقة" الذين يمارسون القتل والاغتصاب وسفك الدماء ..

هل هناك زعيم في العالم يستأجر مرتزقة لقتل أبناء شعبه .. هل ينتمي القذافي الى الشعب الليبي.. هل هو فعلا ابنا لإحدى قبائلها .. هل هناك عربي مسلم تجري في عروقه دماء العروبة والإسلام يقدم على هذا الفعل.

انه عصر سقوط الطغاة .. سقط بن علي، وسقط مبارك .. وسيسقط القذافي لان إرادة الشعب الليبي توحدت لإسقاطه وإنهاء ٤٢ عاما من الظلم والطغيان والاستبداد وتبديد ثروات ليبيا على نزواته وأحلامه المجنونة.

لقد نسب القذافي إلى نفسه ذات يوم قصة ادعى انه كتبها بعنوان " الفرار إلى جهنم".. وهو فعلا يفر إلى جهنم.. فعندما تسيل دماء الليبيين كالأنهار مثلما توعد هو وابنه فان هذه الدماء تتحول إلى نيران تحرق من سفكها ولا تنتهي إلا بعد أن ترسل من لطخت يداه بها إلى جهنم فعلا.

ليبيا.. النموذج الدامي

التطورات في ليبيا تشير إلى متغيرات كثيرة، أهمها هذه الانتفاضة الشعبية العارمة للتخلص من الظلم والاستبداد واحتكار السلطة إلى الأبد، وهي انتفاضة بدأها الشباب وتحولت إلى ثورة عارمة شاركت فيها قطاعات عريضة من الشعب الليبي من أقصى الغرب إلى أقصى الشرق، وهذا تعبير عن الحيوية الشعبية والصحوة الجديدة والجرأة التي تطالب بحقوق الناس، لكن هذه الثورة تتعرض لمخاطر كثيرة داخلية وخارجية، واهم هذه المخاطر محاولة إجهاض الثورة من قبل فئات تسعى إلى اقتسام كعكة السلطة قبل تحقيق الانتصار، وتفكيك النظام القائم وإحلال نظام بديل مكانه، وهناك خطر الهجوم المضاد من نظام القذافي الذي اثبت انه لن يستسلم بسهولة وانه سيقاتل حتى الرمق الأخير، ويشهد على ذلك عمليات الكر والفر التي تقوم بها كتائب القذافي التي يقودها أبناء العقيد الليبي، وهذا يعني بكل وضوح أن القذافي وأبنائه يعتبرون ما يجري معركة حياة أو موت، وهي معركة شرسة دامية، قد تكون أكثر دموية مما يعتقد.

هذا العنصر يجعل من الثورة في ليبيا نموذجا مختلفا عن الثورتين في تونس و مصر، ثورات ميدان التحرير والقصبة كانتا سلميتين إلى حد ما واثر الرئيسين بن علي و مبارك الرحيل والتخلي عن السلطة وتم تحييد الجيش في تونس ومصر من الدخول في صراع مع الشعب أو إطلاق الرصاص، بل لعب الجيشان دورا ايجابيا لأنهما يحظيان باحترام الشعبين في تونس و مصر، هذا العنصر يغيب عن المشهد الليبي فقد أثبتت الأحداث عدم وجود جيش بالمعني العسكري المتعارف عليه، وانه ضعيف مقارنة بكتائب القذافي، وهي عبارة عن مليشيات يدريها أبناء القذافي، وهي كتائب جيدة التسليح ومجهزة عقائديا من الموالين، ومع توالي انحياز قطاعات واسعة من الجيش والضباط والقادة الأمنيين إلى الثورة الشعبية، فان هذه الثورة ستتحول إلى حركة مسلحة بدل أن تكون حركة احتجاجية سلمية شعبية وهذا

يشير إلى أن مؤشر البوصلة يتجه نحو حرب بين الثورة الشعبية المسلحة وكتائب القذافي، وهي حرب تطول أو تقصر اعتمادا على العوامل الداخلية والخارجية، لكن كل الوقائع تشير إلى أن الوضع في ليبيا لن يحسم سلميا، وان الحسم سيكون عسكريا، وهو حسم سيكون عسيرا كما يبدو وقد يتحول إلى حمام دم، خاصة مع اعتماد القذافي على المرتزقة في حربه ضد الثوار.

الأمر الذي قد يفتح الباب أمام تدخل خارجي سيزيد من تعقيد الأمور، بل إن العقيد القذافي عبر عن ذلك صراحة في خطابه الثالث بقوله "إن الآلاف سيموتون إذا تدخلت أمريكا أو النيتو في ليبيا"، ولذلك فان الغرب يجب أن يبتعد عن التدخل العسكري في ليبيا، لان من شان ذلك تحويل الثورة الشعبية إلى حرب يختلط فيها الحابل والنابل، ولا يستبعد أن تتجه بنادق الجميع إلى أي جندي من جنود الغرب "النيتو" يحط بقدميه على الأرض الليبية، مما قد يؤدي إلى إشعال منطقة شمال إفريقيا بالكامل، وسيحول ما يجري هناك إلى حرب ضد الاستعمار الغربي الجديد. وأي تدخل خارجي سيتحول إلى حرب تدميرية على ليبيا والأمة العربية، وهذا يتطلب كف يد الغرب نهائيا عما يجري، لان العرب لا يثقون بالغرب الذي يدعم إسرائيل بدون حدود.

أما الموقف العربي فهو غير موجود، والنظام العربي الرسمي يترنح ويعاني من "الموت السياسي"، ولن يلعب أي دور ايجابي حيال ما يجري في ليبيا، وهذا يعني أن الوضع في ليبيا سيحسم داخليا عبر الصراع بين الثورة الشعبية وكتائب القذافي المسلحة وهو صراع مفتوح على كل احتمالات الدم.

سينتصر الشعب الليبي في النهاية وستنتصر الثورة الشعبية، لكن الانتصار ربما يكون مكلفا، لان الثوار لن يتراجعوا عن حسم الصراع في مواجهة القذافي وأبنائه الذي يخوضون معركتهم الأخيرة.

قبل أن تنفجر ليبيا

يمكن القول أن العقيد معمر القذافي بدا بتنفيذ تهديداته الانتحارية بحرق ليبيا وتحويلها إلى نار حمراء وجمر تغرق في بحر من الدماء، فمن بنغازي ومصراته واجدابيا والبريقة في الشرق إلى الزاوية في الغرب تسيل دماء الليبيين بغزارة بواسطة قصف الطائرات المقاتلة والمروحيات العسكرية والأسلحة الثقيلة وراجمات الصواريخ ومضادات الطيران والقناصة.

القذافي ينفذ فعلا تهديداته ويقصف مخازن الأسلحة بالطائرات والصواريخ وتطلق مليشياته النار على المتظاهرين ويحتل المساجد في طرابلس ويحاصر المصلين، والكتائب التي يقودها أبناء العقيد ومعهم المرتزقة تعيث في الأرض فسادا.

إنها حرب بين الشعب الليبي وبين عائلة معمر القذافي كما قال عبد الرحمن شلقم مندوب ليبيا في الأمم المتحدة، وهي حرب من الواضح ان القذافي وأبنائه قرروا أن يخوضوها حتى الرمق الأخير، وهذا يفتح الباب أمام احتمالات كبيرة لاستخدام المزيد من القوة والعنف وسفك المزيد من الدماء، وهو السيناريو الأقرب إلى التحقق، مع ما تتعرض له المدن الليبية تتعرض حاليا للقصف الطيران والمدفعية وهجمات المرتزقة وكتائب القذافي الذين يقتلون الجرحى في الشوارع والمستشفيات، ومع توارد الأنباء عن زحف الثوار من المنطقة الشرقية باتجاه معقل القذافي الغرب، أي باتجاه سرت، فان الأيام المقبلة ستشهد معارك طاحنة بين كتائب القذافي والمرتزقة مع الثوار الليبيين، لان سقوط سرت يعني بكل بسطة إسقاط ما تبقى من شرعية القذافي التي تهاوت داخليا ودوليا، وسيعمل بكل ما أوتي من قوة لسحق الثورة باستخدام كل ما لديه من أسلحة.

هذا السيناريو القاتم سيغرق ليبيا في حرب أهلية دامية، كما سبق وهدد القذافي، الذي توعد بمقتل مئات الآلاف أيضا، بما يحول ليبيا إلى مستنقع يغرق المنطقة العربية وشمال إفريقيا كله في الفوضى التي ربما تنتقل إلى جنوب أوروبا أيضا.

هذا السيناريو المتشائم يتطلب من الدول العربية التدخل لوقف حمام الدم في ليبيا قبل أن يرتفع المنسوب إلى معدلات لا يمكن السيطرة عليها، وعلى الرغم من الوضع العربي الضعيف إلا أن الدول العربية قادرة على فعل الكثير، قبل أن يتم تدويل الصراع في ليبيا، مما يغري قوى كثيرة على الدخول في المعركة وتحويل ليبيا إلى أفغانستان أو صومال كبير كما قالت وزيرة الخارجية الأمريكية هيلاري كلينتون. والتخل المطلوب من القادة العرب يمكن تلخيصه بالتالي:

أولا: نزع الشرعية العربية عن نظام القذافي بشكل جماعي، ودفع دول العالم لنزع الشرعية عنه

ثانيا: الاعتراف بالمجلس الانتقالي برئاسة مصطفى عبد الجليل ودعمه سياسيا.

ثالثا: السعي لدى الدول الإفريقية لوقف مد العقيد القذافي بالمرتزقة.

رابعا: الحصول على دعم دولي لمساندة كل الخطوات العربية.

خامسا: إقناع العقيد القذافي وعائلته بمغادرة ليبيا.

سادسا: وإذا فشلت الحلول السابقة الذكر اللجوء لتقديم الدعم العسكري العربي للثوار الليبيين للإطاحة بالقذافي دون إرسال جنود عرب، أي أن لا يقاتل على الأرض إلا الثوار الليبيين فقط.

سابعا: منع الولايات المتحدة وأوربا من اتخاذ أي خطوات انفرادية مهما كانت لان أي تدخل غربي سيعمل على توسيع رقعة الصراع وإطالة أمده.

من الواضح أن الحل في ليبيا لن يكون حلا سلميا، وان الحسم سيكون عسكريا ومكلفا، وهذا ما يجعل من الحل العربي فرصة تاريخية لوقف انفجار ليبيا، لأنها تمثل الفرصة الأولى لهذا النظام العربي لاتخاذ قرارات تمنع التدخل الأجنبي من جهة، وتدشن مرحلة جديدة من الحلول العربية للمشاكل العربية.

الإطاحة بالقذافي

القذافي يدمر ليبيا بالطائرات والدبابات، ويخوض حربا دموية بلا هوادة ضد الشعب الليبي، جعلت منه "أمير حربٍ وزعيم مرتزقة"، وما يقوم به القذافي خطير جدا، فهو يرى انه يقصف " جرذان وجراثيم وحشاشين"، ولا يتعامل مع بشر أو شعب كما أعلن في خطاباته النارية ومقابلاته الإعلامية، ولذلك هو يقتل كائنات لا تستحق الرحمة.

علينا أن نتعامل مع هذه العقيدة اللا أخلاقية للقذافي بكل جدية، لأنها تعني ارتكاب مجازر وجرائم حرب و إراقة سيل من الدماء طالما ان هذه الدماء ليست لبشر، والمتتبع لخطابات القذافي و أحاديثه الصحفية يلاحظ أنه يعيش حالة إنكار كامل ولا يرى الشعب إلا مستكينا لرغباته خانعا لشطحاته أو مواجهة الموت والقتل والقصف بالمقاتلات العسكرية، ومن وجهة نظره فإن الشعب، كل الشعب الليبي يحبه، وإذا اتخذ الشعب موقفا مغايرا فانه يستحق الموت.. إنه حب بالإكراه تختلط فيه رائحة البارود بالدم، وهذا ما شاهدناه فعلا في مدن الزاوية ومصراته وبنغازي وراس لانوف وغيرها.

ليبيا الآن في حالة حرب دامية شرسة بين الشعب الليبي من جهة وبين عائلة القذافي ومرتزقته من جهة أخرى، وهي حرب مفتوحة على كل الإحتمالات، أخطرها بالطبع أن يطول أمدها، وتحويلها إلى حرب أهلية داخلية على نطاق محدود والحيلولة دون تمددها الى الخارج "على الطريقة اللبنانية والصومالية" فلبننة الصراع أو صوملته في ليبيا تضمن للقذافي عمرا أطول في الحكم حتى لو تحول الى "أمير حرب وزعيم عصابة".

هناك مؤشرات خطيرة تدل على أن الغرب يريد لهذه الحرب ان تطول الى أبعد مدى حتى يستطيع ترتيب وضع ليبيا ما بعد القذافي، أو الإحتفاظ بالقذافي إذا كانت الخيارات الأخرى لا تضمن مصالحه، فوزيرة الخارجية الأمريكية هيلاري كلنتون، تحدثت عن إمكانية تحول ليبيا الى "صومال كبير" و رئيس الوزراء الايطالي سليفيو بيرلسكوني وبعض أركان حكومته تحدثوا عن

إمكانية تحول ليبيا الى ملاذ آمن للقاعدة، بل تحول بيرلسكوني إلى محام يدافع عن القذافي في المحافل الدولية وعبر عن ذلك صراحة بانه "لا يريد ازعاج صديقه العقيد".

الغرب لا يرى ما يجري في ليبيا إلا من منظار الحفاظ على مصالحه، بعيدا عن القيم الاخلاقية والإنسانية، فالغرب لا يرى ليبيا إلا بئرا للنفط لا أكثر، ولا يهمه من يحكم ليبيا طالما أن النفط يجري في الأنابيب، وهي ترى أن القذافي يقدم خدمات لا تقدر بثمن للغرب، مثل المشاركة في منع الهجرة غير الشرعية وقاعدة متقدمة للتصدي للقاعدة، فقد بادر القذافي لتشكيل كتائب عسكرية بمشاركة دول إفريقية للتصدي لتنظيم "القاعدة في المغرب الاسلامي"، وهي مبادرة ينظر إليها الغرب بإيجابية، وهذا يجعل منه حليفا غير معلن للولايات المتحدة وأوروبا. وبالتالي فهي لن تسارع الى نزع الشرعية عنه إلا إذا مالت الكفة إلى جانب الثوار بشكل لا لبس فيه.

الثوار الليبيون يواجهون الآلة العسكرية للقذافي باللحم الحي العاري، ويخضون حربا باسلة مكنتهم من السيطرة على غالبية الاراضي الليبية، ولم يتبق للقذافي من نفوذ إلا على مثلث رأسه في مدينة سبها الصحراوية وضلعاها في مدينتي طرابلس وسرت.

وإذا كان هذا هو موقف الغرب فان الأنظمة العربية مطالبة بسحب الشرعية عن القذافي ونظامه بشكل لا لبس فيه، والضغط على الأمم المتحدة ومجلس الأمن والقوى الكبرى لسحب الشرعية عن العقيد ونظامه ايضا، والاعتراف بالمجلس الوطني ممثلا شرعيا لليبيا.

ليس ثمة حاجة لكثير من الحسابات والرهانات، فالشعب الليبي اعلن رفضه للقذافي بالدم والشهداء والرصاص، وهو منتصر لا محالة بإذن الله، فالشعوب لا تهزم مهما كانت التضحيات، ولذلك لا داعي للتردد بسحب الشرعية من القذافي فهو لن يبقى في السلطة في اي حال من الاحوال، والتردد لا يعني سرى إتاحة الفرصة لسفك المزيد من دماء الليبيين.

القذافي يربط مصيره بإسرائيل

"إذا نجحت القاعدة في الاستيلاء على ليبيا فإن المنطقة بأسرها حتى إسرائيل ستقع فريسة للفوضى.. واعتقد أن الأسرة الدولية بدأت تفهم الآن أننا نمنع أسامة بن لادن من السيطرة على ليبيا وإفريقيا".

هذا النص جزء من مقابلة للعقيد الليبي-معمر القذافي مع التلفزيون التركي.. ،وإذا أضفنا إلى هذه العبارة التصريحات التالية للعقيد: نحن قدمنا خدمات لأوروبا تتمثل بمحاربة القاعدة ومكافحة الهجرة الشرعية والعمل كصمام امان في البحر الأبيض المتوسط عبر محاربة الأرهاب. هذه الإعترافات جعلت القذافي يسأل أوروبا وأمريكا لماذا تقفون ضدنا مع أننا قدمنا كل هذه الخدمات لكم، أنتم تحاربون الارهاب وأنا شريك لكم بمحاربة الإرهاب، فنحن نحارب الإرهاب مثلما حاربتموه في العراق وافغانستان والجزائر، ومثلما فعلت إسرائيل عندما حاربت الارهابيين في غزة، نحن نفعل نفس الشيء فلماذا ترفضون ذلك؟.

القذافي "الثوري" يكشف في إعترافاته أنه حليف أو تابع للغرب قدم ويقدم له خدمات جليلة، هو يريد الآن الثمن المتمثل بحماية نظامه من السقوط، وعدم السماح للثوار بالاستيلاء على السلطة..الإعتراف الكبير الذي تفوه به القذافي هو أنه شريك بحماية إسرائيل، وأعتبر أن سقوطه سيهدد إسرائيل أيضا، وبطبيعة الحال فإن القذافي لم يلجأ إلى هذا الإعتراف الضخم بكل المعايير إلا بسبب شعوره بتخلي الغرب عنه، فأراد أن يلعب ورقته الاخيره وهي ربط مصيره بمصير إسرائيل، وتسويق نفسه على أنه يشكل درعا لحماية أو على الأقل جزءا من المنظومة التي تدافع عن إسرائيل في المنطقة، وهي نفس المبررات التي سابقها من قبله الرئيسان المخلوعان التونسي بن علي والمصري مبارك، عندما تحدثا عن انتشار التطرف والارهاب وتاثير ذلك على الاستقرار في المنطقة، وهي ذات التبريرات التي يسوقها الرئيس

اليمني علي عبد الله صالح أيضا عبر التصريحات الكثيرة عن الارهاب والإرهابيين الإسلاميين والقاعدة.

القذافي كان أكثر شجاعة وصراحة عندما ربط مصيره بإسرائيل علن، وطلب الدفاع عنه وابقاء نظامه لاكمال مهمته بإشاعة الاستقرار الذي يضمن وجود إسرائيل وعدم تعرضها للتهديد.

علينا ان نلاحظ ان الغرب، بشقيه في أوروبا وأمريكا، يمنح القذافي كل الوقت لانجاز مهتمه بهزيمة الثورة ويحاول في نفس الوقت التواصل مع الثوار لضمان خط الرجعة في حال خسر القذافي معركته، وهو بهذا التصرف "يلعب على الحبلين"، حبل العقيد وحبل الثوار، في ممارسة بشعة لأحط أنواع الانتهازية التي يتميز بها الغرب الذي يعطي تصريحات القذافي اذانا صاغية لانها تدغدغ مشاعره ومصالحه وعلى رأسها إسرائيل، وهذا ما يفهمه العقيد ولذلك فهو يلعب بالورقة الاكثر حميمية للغرب وهي "إسرائيل".

القذافي يخسر حربه كل يوم أمام الشعب الليبي وبالتالي يزداد شراسة ويقصف المدنيين في مصراته والزاوية ويحاصرهما ويقطع المياه والغذاء عنهما، وما يجري في ليبيا كشف عن وجود حلف بين أمريكا وأوروبا وإسرائيل وأطراف إقليمية والقذافي يمكن أن نطلق عليه "حلف الراغبين" او حلف المصالح المشتركة، وهو حلف خطر سيؤدي الى حرق ليبيا والمنطقة في حرب لن توفر احدا.

القذافي يلعب آخر أوراقه بربط مصيره بإسرائيل، ويريد أن يحسم المعركة لصالحه بأي ثمن، والغرب مرتبك ومشوش وفاقد للتوازن في كيفية الموازنة بين وقف المعركة والحفاظ على مصالحه، فيما يسير فيه الثوار الليبيون بخطى ثابتة إلى الأمام رغم كلفة الدم المرتفعة التي يدفعها الشعب الليبي.

رمال ليبيا المتحركة

تغرق ليبيا في حالة مع عدم اليقين، مع تقدم الثوار تارة وتقدم كتائب العقيد تارة أخرى، في حرب يبدو أنها مفتوحة على كل الاحتمالات، فالقذافي أعلن تصميمه على سحق الثوار،ونعتهم "بالأعداء والجرذان والكلاب الضالة" وهدد بنقل المعركة إلى معقل الثورة في مدينة بنغازي ، وتوعد بهزيمة "الاستعمار وفرنسا وأمريكا وبريطانيا "، ويبدو أن "ملك ملوك إفريقيا" يحاول أن يلعب لعبة "الأعصاب الحديدية" مع الشعب الليبي الثائر ضد حكمه، باستخدام تكتيكات "إسرائيلية" مثل حصار المدن وقطع الماء والغذاء والدواء والاتصالات، وقصفها بالدبابات والطائرات وراجمات الصواريخ، في محاولة على ما يبدو إلى تحقيق انتصار سريع تقنع العالم انه لا يزال لاعبا أساسيا في ليبيا بعد أن نزع عدد كبير من دول العالم الشرعية عن حكمه.

في المقابل فان إستراتيجية الثوار تتركز على الصمود والاستمرار في القتال ضد القذافي وكتائبه الأمنية وتحقيق انتصار وانجاز على الأرض لتوطيد الشرعية الشعبية والسياسية التي حصلوا عليها في الداخل والخارج، لكن مشكلة الثوار أنهم اجبروا على خوض حرب لم يريدوها، فالحالة الثورية المسلحة للشعب الليبي بدأت على شكل احتجاجات سلمية تطالب بتغيير النظام وإسقاط "حكم عائلة القذافي"، لكن العقيد تعامل منذ اليوم الأول بالنار والرصاص مع المتظاهرين وهو ما دفع إلى تحول المتظاهرين من محتجين سلميين إلى ثوار مسلحين يخوضون حربا مفروضة عليهم، ومع تصاعد حدة القمع الدموي ضد الشعب الليبي انتقلت الثورة إلى المواجهة العسكرية مع القذافي الذي أعلن تشبثه بالحكم حتى لو احرق ليبيا وحولها إلى جمر ونار حمراء وأفنى الشعب الليبي كله، ولم يتردد باستخدام كل ما في ترسانته من الأسلحة ضد المدن والقرى والبلدات مثلما حصل في الزاوية وزوارة ومصراته وراس لانوف وأجدابيا وغيرها من المدن، مستخدما الطائرات المقاتلة والمدفعية والدبابات،

وهي تصرفات دموية وقف العالم حيالها مكتوف الأيدي، واكتفت الدول الغربية ومعها روسيا والصين بالتلويح بفرض عقوبات جديدة على القذافي وأبنائه واستبعدت الخيار العسكري، وتاهت فكرة "فرض حظر جوي على ليبيا" بين أورقة المجالس والممرات والصفقات والمصالح بين الدول الكبرى، في عملية استنزاف خطير للوقت في الوقت الذي تقوم فيه الآلة العسكرية للقذافي بحصد أرواح الليبيين.

وبينما تنشغل كل الدول بالمساومات لتامين مصالحها "وحصتها من الكعكة الليبية المغرية" يستمر الشعب الليبي بالنزف بلا توقف، و تستمر كتائب القذافي الأمنية بحصد أرواح الأبرياء، والتمدد لإحكام سيطرتها على الأرض، مستفيدة من تفوقها بالعدة والعتاد والسلاح ومن "دعم دولي خفي" يتمثل بالتسويف لمنح القذافي كل الوقت اللازم لانتصار على الثوار.

الغرب، ومعه الصين وروسيا، يمنحون القذافي الزمن المطلوب من اجل البقاء، مقابل توزيع ثروات ليبيا عليهم في المستقبل، وتجلى ذلك حين وعد العقيد القذافي منح المانيا " قطعة كبيرة من الكعكة الليبية" مقابل موقفها بتعطيل فرض حظر جوي على ليبيا.

في المقابل حققت الثورة التي يمثلها المجلس الوطني الانتقالي انجازات مهمة، مثل انتزاع الاعتراف من دول مهمة مثل فرنسا، وتشكيل هيئات تعضد من وجوده، سياسيا ودبلوماسيا واجتماعيا وعسكريا، وشكل مجلسا عسكريا وجيشا وطنيا للقتال ضد كتائب القذافي رغم الاختلال في موازين القوى، وهو خلل يحتاج إلى تعديل من خلال دعم الثوار بالمال والسلاح والعتاد ورفده بالخبرات اللازمة لخوض حرب العصابات، فمصير ليبيا يحسم في الميادين الليبية وليس في أروقة الأمم المتحدة وقاعات الدول الغربية والصين، وذات يوم قال لي زعيم ثوري فلسطيني " لدينا ما يكفي من الرصاص لكي نتحاور"، ويبدو أن اللغة الوحيدة التي يفهمها عقيد ليبيا هي "لغة الرصاص"، فهو لا يرى الشعب الثائر أكثر من "جرذان وجراثيم وكلاب ضالة"، مما يجعل من المستحيل عليه أن يتفاهم "الجرذان"، التي اعتاد البشر على قتلها وليس الاستماع اليها.

يا قاتل يا مقتول

الهجمة الدموية المسعورة ضد الشعبين العربيين في ليبيا واليمن من قبل نظام العقيد معمر القذافي ونظام علي عبد الله صالح تشير بوضوح إلى أن راسي هذين النظامين أعلنا بشكل لا لبس فيه أنهما سيبقيان في السلطة على قاعدة "يا قاتل يا مقتول"، وبما أن من يملك السلاح يتمتع بقدرة اكبر على القتل وسفك الدماء، فان القذافي وصالح اغرقا المحتجين في بحر من الدم، فنظام صالح سفك دماء أكثر من خمسين شخصا دفعة واحدة في ساحة التغيير، واستخدم قناصة لقتل المعتصمين برصاص يستقر في الرأس والقلب والصدر والأحشاء، في تصويب مركز للقتل، كما أظهرت الصور انتشرت على الانترنت وبثتها الفضائيات ، في حين دك القذافي مدن مصراته والزاوية وأجدابيا وبنغازي بالمدفعية وراجمات الصواريخ والطائرات، في ظل الافتقار لمعلومات كافية عن العدد الكلي للقتلى والجرحى في البلاد التي يقتل فيها الصحفيون أو يختفون أو يطردون.

"يا قاتل يا مقتول".. هي الإستراتيجية لدى حاكمين في اليمن وليبيا دفاعا عن شعار " أحكمكم أو أقتلكم"، ولسان حال كل واحد منهم يقول:" لدي ما يكفي من البارود والديناميت والرصاص الخارق الحارق لكي تقتنعوا أو تقتلعوا"، إقناع بالحب المتفجر حتى القتل تجسيدا لشعار "ومن الحب ما قتل".

في اليمن يستخدم "النظام العائلي للرئيس" الذين يحكم سيطرته على كل مرافق الدولة وأجهزتها الأمنية "البلاطجة" وعندما يفشل البلاطجة "البلطجية" يستخدم الرصاص الحي ضد شعب اعزل لا يحمل السلاح، رغم أن الشعب اليمني يعد واحدا من أكثر شعوب الأرض تسليحا، فالنظام العائلي للرئيس يريد جر الشعب إلى المواجهة المسلحة لدفع البلاد إلى أتون حرب أهلية لتبرير استخدام العنف، ولهذا يغرق ساحة التغيير في قلب صنعاء بالدم.

أما في ليبيا فان العقيد يقصف المدن بكل ما لديه من أسلحة ويعلن على رؤوس الأشهاد انه سيتعامل "بلا رحمة مع الأعداء" ويهدد بدك بنغازي "حجرة حجرة"، كما هدد بهدم

الزاوية ومصراته "حيط حيط"، وانه سيشعل النار الحمراء في كل شارع وبيت ودار وزنقة وانه سيقتل المعارضين من الشعب "فردا فردا" وانه لم يبقى أحدا منهم، باختصار يهدد بإفناء الشعب.وهذا لا يعني سوى شيء واحد فقط هو ارتكاب مجازر جماعية وشن حرب إبادة ضد الرافضين لحكمه مهما كان الثمن الذي سيدفعه الشعب، ومن اجل الوصول إلى الإبادة الجماعية لجأ العقيد القذافي إلى استخدام الرصاص منذ اللحظة الأولى ضد المحتجين الليبيين الذين تظاهروا سليما ضد حكمه، ونجح بدفع المعارضة السلمية إلى حمل السلاح في وجه كتائب القذافي الأمنية، واجبر الشعب على التحول إلى "ثوار"، مما أتاح له الفرصة لاستخدام ترسانة من الأسلحة الثقيلة والدبابات والمدفعية الثقيلة والصورايخ والطائرات المقاتلة والمروحيات الحربية والسفن العسكرية ضد سكان المدن والمدنيين.

القذافي يسابق الزمن لقلب المعادلة على الأرض، وإقناع العالم انه لا يزال يسيطر على ليبيا ويتحكم بالأرض، وعلى الرغم من قرارات مجلس الأمن بحظر الطيران وعدم استهداف المدنيين، تمكن من تحريك آلته العسكرية وطائراته لقصف بنغازي واجتياحها وإخضاع أهلها في انتهاك فاضح لقرارات مجلس الأمن وتحدي العالم الذي تعهد بحماية المدنيين، وهذا الأمر يضع علامة استفهام كبيرة على إستراتيجية دول الغرب التي تمنح القذافي مزيدا من الوقت لسحق الثوار رغم قرار حماية المدنيين.

أما موقف الدول العربية فهي مخزية باستثناء قطر والإمارات اللتين أعلنتا المشاركة في الجهود الدولية لحماية المدنيين وفرض الحظر الجوي وكأن الشعب العربي الليبي لا ينتمي إلى العرب.

الأمة العربية مطالبة بدعم الشعب الليبي لتخليصه من الدكتاتور، بكل الوسائل العسكرية والسياسية والمالية، دون إبطاء لان أي تباطؤ بإغاثة ومساندة أهلنا في ليبيا لا يعني سوى المزيد من المجازر، والقتل المجاني.

ليبيا.. وفرصة الغرب التاريخية

اخطر ما صدر من تصريحات حول ليبيا بعد بدء الضربات الغربية لمواقع القذافي ومعسكراته والياته ما أدلى به الأميرال مايك مولن رئيس الأركان الأمريكي ومفاده "أن النتيجة النهائية للتحرك العسكري في ليبيا غير مؤكدة إلى حد بعيد ويمكن أن ينتهي الوضع إلى حالة جمود مع العقيد معمر القذافي"، إضافة إلى إعلان الأميرال بيل جورتني مدير هيئة الأركان الأمريكية "إن القذافي ليس على قائمة أهدافنا".

هذه التصريحات تزرع بذور الشك في ماهية الأهداف الأمريكية من التدخل في ليبيا، على الرغم من الإعلان أنها تستند إلى قرار مجلس الأمن القاضي بحماية المدنيين وفرض حظر جوي على ليبيا للحد من القدرات العسكرية للقذافي وكتائبه الأمنية.

في ظل غياب أي قدرة عسكرية عربية على وقف ميليشيا القذافي الدموية التي توغل في دماء الليبيين فان تدخل المجتمع الدولي لوقف المجازر اليومية للقذافي وجنوده يعد مطلبا حتميا وضروريا ولازما، بل وواجبا أخلاقيا وإنسانيا، ولان الغرب "الولايات المتحدة وكندا وأوروبا" هي الجزء الأهم والفاعل من المجتمع الدولي، كان من الطبيعي إن تبادر إلى التحرك على الأرض للجم القذافي وأولاده وكتائبهم ومرتزقتهم، وهو تحرك نقف معه وندعمه تماما، خلافا للغزو الغربي للعراق وأفغانستان والصومال، الذي وقفنا وما زلنا نقف ضده بكل قوة وثبات.

وإذا كان من الممكن إدماج الشخصي بالشأن العام، اعترف أنني وللمرة الأولى في حياتي، أجد نفسي في خندق واحد مع ما يقوم به الغرب في ليبيا، رغم عدم ثقتي بأهدافه وتحركاته، وغالبا ما "يلعب الفار في عبي" ،كما يقول المثل الشعبي، من مخططاتهم التي تعلن أهدافا وتخفي أهداف سرية تحت الطاولة، ولكن ومع ذلك لا بد من تأييد الضربات الجوية الأمريكية الأوروبية لقواعد القذافي ودباباته.

المفكـرون والمسـؤولون الغربيـون يسـالون دائمـا" لمـاذا يكرهنـا العـرب والمسـلمون؟".. والجواب هو إننا نكرهكم من أفعالكم واستعماركم ودعمكـم الـلا محـدود لجـرائم إسرائيـل والتها العسكرية واحتلالها فلسطين وتشريـد أهلهـا، وهـو دعـم لا يـزال مسـتمرا حتـى هـذه الساعة، ولكن على الأقل فان الغرب على موعد مع فرصة تاريخيـة لا تعـوض بـثمن لتحسـين علاقاته مع الشعوب العربية والمسلمة في العالم، عبر تحقيق انجاز عظيم في ليبيـا، مـن خـلال تمكين الثوار الليبيين من الإطاحة بنظـام القـذافي الـدموي والظـالم، بـدعمهم و دفـع الأنظمـة العربية لمدهم بالسلاح.

الليبيون لا يريدون جنودا غـربيين عـلى أرضـهم، فهـم قـادرون عـلى حسـم المعركـة مـع القذافي وكتائبه الأمنية، ولا يريدون "ألاعيب غربية" وصفقات وسمسرات مع هـذا الطـرف أو ذاك على حساب ليبيا وشعبها، وعدم الوقوف في المنطقة الرمادية عبر الإعلان عن أن المعركـة لن تحسم في ليبيا وان الوضع الحالي سيستمر إلى ما لا نهاية، الأمر الذي يعني تحول ليبيـا إلى "صومال كبير" كما بشرت ذات يوم وزيرة الخارجيـة الأمريكيـة هـيلاري كلينتـون، أو تقسـيم ليبيا بين الشرق والغرب أو إشعال حرب بين القبائل.

على أمريكا ومعها الغرب أن يعلنوا بصراحة وبدون مواربة بدعم خيار الليبيين في الحرية والاستقلال وحكم بلدهم بدون أي تدخل غربي، وإذا مـا حصـل ذلـك فـان الولايـات المتحـدة ستغرس أول بذرة ثقة بين العرب و الغرب، وستعمل على تفكيك حالة العداء المسـتفحل بـين الطرفين، وهي فرصة تاريخية لا تتكرر فلأول مرة يتدخل الغرب ويضرب في بلد عربي دون أن تخرج المظـاهرات في الشـوارع العربيـة ضـده، ودون أن يوصـم هـذا التـدخل بأنـه "احـتلال صليبي"، لأنه يحظى بدعم الشارع العـربي، وإذا مـا أكمـل الغـرب وعـلى رأسـه أمريكـا هـذا التدخل بدون أهداف سرية فان ذلـك سيدشـن مرحلـة تحـول في العلاقـات العربيـة الغربيـة ..إنها فرصة ثمينة على الغرب أن لا يضيعها.

الارتباك الأمريكي في ليبيا

تبدو السياسة الأمريكية مرتبكة ومترددة حيال ليبيا، الأمر الذي انعكس على مجمل التصريحات السياسية لأقطاب إدارة الرئيس الأمريكي باراك أوباما وزعماء المعارضة بل إن هذا الارتباك تجلى في عدد من تصريحات الجنرالات الأمريكيين.

ففي الوقت الذي اعتبر فيه اوباما تدخل بلاده في ليبيا يصب في "المصلحة القومية" الأميركية بوصفها "مصلحة إنسانية وعملية جدا أيضا"، ذهب إلى أن ما يجري في ليبيا قد يكون له أثار وخيمة في المنطقة بأسرها".

الرئيس الأمريكي بدا حملته الدبلوماسية بتوجيه إنذار نهائي للعقيد معمر القذافي وتحذيره من مواجهة عواقب إذا لم يلتزم بمطالب الأمم المتحدة بوقف إطلاق النار ووقف الهجمات ضد المدنيين، مؤكدا أن هذه "الشروط ليست محل تفاوض"، واعتبر أن "القيادة الأمريكية ضرورية" للعمليات في ليبيا.

لكن اوباما سرعان ما واجه تشكيكا من قبل منتقديه الذين وجهوا له نقدا شديدا لتحركاته عبر عنها جون بينر رئيس مجلس النواب الأمريكي الذي دعاه إلى "شرح أهداف المهمة الأمريكية في ليبيا والكيفية التي تعتزم إدارته تحقيقها". وبعد ذلك بأيام غير اوباما رأيه وقال إن " بلاده ستسلم العمليات لتحالف دولي" وأعلن عن "خفض كبير" في طلعات الطائرات الأميركية فوق ليبيا. وواكب ذلك تصريحات عدة أسدلت حالة من الضبابية على الموقف الأمريكي، فقد شكك الأميرال مايك مولن رئيس الأركان الأمريكي بنتائج التدخل الأمريكي وقال" إن النتيجة النهائية للتحرك العسكري في ليبيا غير مؤكدة إلى حد بعيد، ومن الممكن أن ينتهي الوضع إلى حالة جمود مع العقيد القذافي"، وأكد قائد القيادة الأمريكية في أفريقيا إن قوات التحالف "لا تسعى لتدمير الجيش الليبي بصورة تامة وان مهاجمة الزعيم

الليبي ليست جزءا من مهمته، وان هدف عمليات القوات الأمريكية لا تهدف "لتوفير دعم جوي لقوات المعارضة التي تقاتل القذافي".

على الجانب الآخر انتقد السناتور الأميركي جو ماكين تأخر أوباما باتخاذ قرار بشأن ليبيا، لكنه أعرب عن ثقته "بان إخراج القذافي من السلطة هي مسألة وقت"، وهو التصريح الذي سارع رئيس هيئة أركان الجيوش الأميركية الأميرال مايكل مولن إلى الرد عليه بقوله "إن الضربات الجوية ضد ليبيا لا تهدف إلى "إزاحة القذافي من الحكم"، ووافقه وزير الدفاع الأمريكي روبرت غيتس بقوله إن "الليبيين بحاجة إلى تحديد مصير القذافي بأنفسهم"، وذهب ابعد من ذلك حين بشر بتخلي الولايات المتحدة عن قيادة العمليات في ليبيا وان الجيش الأمريكي سيكتفي بدور الإسناد والدعم.

هذا السرد الطويل للمواقف الأمريكية يبين مدى الارتباك الأمريكي، فالإدارة الأمريكية التي أعلنت في البداية عن قيادة العمليات سرعان ما تراجعت، وطرحت نقل القيادة لحلف شمال الأطلسي، لكن مشكلة هذا الطرح انه يواجه اختلافات في وجهات نظر أعضاء الحلف على من سيقود الحملة العسكرية على ليبيا بعد الولايات المتحدة، وهو ما دفع المسؤولين الأمريكيين إلى اقتراح" أن يتولى الحلف إدارة العمليات دون أن يكون مسؤولا رسميا عن القيادة" وهذا طرح غريب جدا، إذ كيف يمكن تنفيذ حملة عسكرية كبيرة دون قيادة واضحة".

الارتباك الأمريكي يمكن إرجاعه إلى احد أمرين، الأول هو أن واشنطن متورطة في حربين كبيرتين مكلفتين في العراق وأفغانستان، ولا تريد أن تخوض غمار حرب ثالثة، فجيشها منهك، واقتصادها لا يتحمل تمويل حرب ثالثة.

أما السبب الثاني فهو أن الولايات المتحدة تعتبر ليبيا حديقة خلفية لأوروبا واحد أهم مراكز مصالحها الحيوية وبالتالي يجب على أوروبا أن تقاتل دفاعا عن مصالحها باستخدام جيوشها وليس باستخدام الجيش الأمريكي. وفي الحصيلة النهائية سيدفع الليبيون ثمن هذا الارتباك والاختلاف من دمائهم وثرواتهم ومستقبل بلدهم، فالدول الكبرى تتحرك بغريزة مصالحها ولو على حساب دماء كل الليبيين

إعدام الشعب

رئيس يرفض أن يسمى رئيسا، لأنه يعتبر نفسه "العقيد والعميد وملك ملوك إفريقيا" ، يتربع على كرسي السلطة منذ ٤٢ عاما، يحاصر المدن، ويقصفها بالدبابات وراجمات الصواريخ ويقصفها بالطائرات، ويضرب مدينة مصراتة بكل ما يملك من قوة ومتفجرات ونار، ويجوع أهلها ويمنع عنهم الغذاء والماء والدواء ويقطع الكهرباء والاتصالات ويعزلها عن الدنيا، ويحولها الى "نار حمراء وجمر وارض محروقة كما سبق وهدد".. ومثل ما يحصل في مصراتة "المدينة الشهيدة" يحدث في أجدابيا والزاوية والبريقة، وغيرها من المدن.

وعلى غرار "عقيد ليبيا" تصرف "عقيد اليمن" حيث احتل القناصة أسطح البنايات المحيطة بساحة التغيير في قلب العاصمة صنعاء، وأطلقوا النار على الرافضين لحكمه، فقتلوا ٥٤ معتصما من المدنيين، وقامت قواته بقتل المتظاهرين في تعز ووقف الرئيس ليقول للشعب "فاتكم القطار".. رئيس يقول لشعبه فاتكم القطار، وكان الشعب هو الراحل وهو من يجب ان يقدم التنازل.

وكما في مدن العقيدين حدث في مدن "الوريث أو الرئيس الوارث"، الذي ورث رئاسة بلد بكل ما فيه من "بشر وشجر وحجر" وهو لم يتردد بإرسال دباباته إلى مدينة ردعا وحاصرها وحولها إلى ميدان حرب سقط فيه الشهداء وكما حدث في مدينة اللاذقية التي احتلها "الشبيحة"، النسخة السورية من البلطجية او البلاطجة بأسلحتهم، وكذا في مدينة دوما، القريبة من دمشق، التي سقط فيها ١٤ شهيدا.. وهنا ايضا وقف الرئيس الدكتور ليقول "إذا فرضت علينا المعركة فأهلا وسهلا"، والحديث هنا واضح لا تنازل عن السلطة إلا بالحرب ودعوكم من تداول السلطة فهذا دونه خرط القتاد.

ما حدث في الدول العربية التي ثار أهلها ضد احتكار السلطة وقمع الحريات والاعتقالات والتعذيب والفساد، جرائم ضد الإنسانية والأخلاق والشرائع والقوانين، فمن ثاروا،

إنما ثاروا من اجل "الكرامة والحرية والعدالة" وهي حقوق طبيعة للشعب لا يملك احد أن يصادرها مهما كان وضعه وصفته "رئيسا.. زعيما.. ملكا.. أو حتى ملك ملوك".

لقد نسي هؤلاء الحكام الذي تسلطوا على رقاب الشعوب أن الحكم عقد بين الحاكم والشعب، وان الناس هو الذين يمنحون الشرعية للحاكم بموجب اتفاق محدد الشروط والمدة الزمنية، وان الشعب هو صاحب السلطة والقرار، كما تنص الدساتير، التي يحكمون بموجبها، وليس من حق العقيد أو الرئيس أو ملك الملوك، فرض حكمه بالحديد و النار، على قاعدة، "أحكمكم أو أقتلكم"، وتحت شعار "ما علمت لكم من رئيس غيري". ونسي هذا "الحاكم العربي" أو ذاك انه موظف عند الشعب، موظف برتبة رئيس لا أكثر، من حقه ان يعزله عندما يريد.

الحكام العرب يتحالفون مع الجميع، لكنهم لا يتحالفون مع شعوبهم، يبحثون عن الأمن والأمان والحماية من الأجنبي، وأجهزة الأمن التي تضخمت حتى أصبحت في بعض الدول العربية بحجم الدولة، بل أصبحت هي الدولة نفسها، يشهد على ذلك وثائق جهاز امن الدولة في مصر، والتي كشفت أن الجهاز الذي كان ينبغي أن يحفظ امن الدولة تحول إلى "الدولة" وتحكم بالناس من الخفير إلى الوزير، يعين ويطرد ويسجن ويعذب ويلفق التهم، ويفجر الكنائس والمساجد والأماكن السياحية، ليثبت انه "امن الدولة".

الحصار والقتل الذي نفذته وتنفذه أجهزة النظم المتهاوية ضد المدن العربية، هي جرائم حرب ضد الإنسانية، لن تمر دون عقاب، وسيحاسبون عليها، عاجلا أم آجلا، فقصف المدن التي يعيش فيها مدنيون عزل بالمدفعية والدبابات والمقاتلات الحربية، هي "إعدام جماعي" ومجازر وإبادة جماعية، ضد سكان هذه المدن، سيسجلها التاريخ في سجل العار لهؤلاء المتسلطين.

لقد تغير الزمن ومن يعاند التاريخ سيهزم لا محالة، والحكام الذي يقتلون الشعوب التي تسلطوا عليها بالحديد والنار والجمر و القنابل والبلطجية سيهزمون لا محالة، والشعوب التي خرجت لتستعيد الحرية والكرامة والعدالة" ستنتصر لا محالة، فالشعوب لا تهزم أبدا.

اغتصاب إيمان.. اغتصاب وطن

من السهل على من اغتصبوا وطنا بأكمله أن يغتصبوا سيدة من حرائر ليبيا، من السهل على من وصفوا شعبا بأكمله بأنهم "مهلوسين وحشاشين وجراثيم وجرذان"، أن يصفوا فتاة واحدة بأنها "مخبولة ومخمورة ومريضة نفسيا"، فمن يقتل شعبا بأكمله يسهل عليها أن يقتل فردا واحدا.

إيمان العبيدي، فتاة عربية ليبية مسلمة، محامية تواصل دراستها العليا في طرابلس، تعرف ما معنى الشرف والعزة ككل حرائر العرب صاحبات الأنوف الشم، اقتحمت فندق الصحفيين الأجانب في طرابلس على مقربة وكر عقيد الشر وأبنائه وزبانيته في "باب العزيزية"، لتصرخ والدموع تملا عينها عن وحوش القذافي أو المليشيا التي يطلق عليها "كتائب القذافي"، الذين أوقفوها عند نقطة تفتيش وقيودها ثم اغتصبوها، تناوب ١٥ وحشا بشريا من كتائب القذافي على اغتصابها على مدى يومين.

السيدة الكريمة إيمان العبيدي، التي احترفت المحاماة للدفاع عن حقوق الناس، قررت أن لا تصمت وان تتحدث عن تعرض شرفها لعدوان آثم، رغم حساسية موضوع الشرف في عالمنا العربي، لان شرف العربية هو رأسمالها الذي لا يقدر بثمن، وكشفت أمام الكاميرات عما تعرضت له من اغتصاب وتعذيب ترك جروحا وندوبا على جسدها من قبل رجال نظام القذافي.

ما أن سمعوا أنها من مدينة بنغازي، حتى انقض عليها "وحوش العقيد" كالضباع المسعورة، لينهشوها ويدموا جسدها ويجرحوا نفسها وروحها وشعورها، لكنها لم تنكسر، ولم تتردد بالذهاب إلى فندق الصحفيين الأجانب لتروي قصة الاعتداء عليها وتصرخ أمام الصحفيين: "صوروا، صوروا، اظهروا للعالم ما فعلوه بي". ما أثار رجال مليشيات القذافي ودفعهم إلى الانقضاض عليها وعلى الصحفيين بشراسة الضواري.. دفعوا الصحفيين وكسروا كاميراتهم وأوقعوهم أرضا، وجروا إيمان إلى سيارة واقتادوها إلى جهة غير معلومة.

احد زبانية القذافي قال للصحفيين "إنها 'مرأة مجنونة. وثملة الم تشموا رائحة الخمر؟"، وآخر وصفها بالعاهرة، وخرج متحدث باسم سلطة القذافي ليقول" هذه امرأة سكرانة، تعاني من خلل في قواها العقلية"، ليعود بعد ساعات، ويغير أقواله، تحت ضغط الصحافة، معترفا بوقوع "عمل إجرامي" يتعلق بالشرف، شارك فيه أربعة أو خمسة أشخاص.

وشارك التلفزيون الليبي البائس بالحملة ضد هذه السيدة، واجبروا أختها على الظهور على الشاشة لكي تقول إن إيمان"مجنونة"، وشككت مذيعة التلفزيون الليبي، "بأصلها ونسبها، ، وان قبيلتها تتنصل منها، واتهمتها بانها تعاني من غسيل مخ، ووصفتها بالوقاحة والحماقة وأنها تذرف دموع التماسيح، وان العاهرة أكثر وطنية منها وأنها باعت البلد والشعب الليبي وضيعت ليبيا".

لكن سلطة القذافي التي أطلقت هذه الأوصاف البائسة على الكريمة العربية، إيمان العبيدي، أيقنت أنها وقعت في شر إعمالها، وأخذت تتصل بعائلتها ووالدها ووالدتها، لكي يقنعوا ابنتهم المغدورة بالتراجع عن اتهاماتها مقابل الحصول على كل ما تريد، إلا أن والدتها طالبت ابنتها عدم تغيير أقوالها أبدا، مهما كان الثمن، وبشرتها أن أخوها مع الثوار في رأس لانوف وانه في طريقه إليها في طرابلس.

إيمان العبيدي ليست الوحيدة فقد كان معها ٦ فتيات أخريات من حرائر بنات العرب، لا نعرف عنهم شيئا، ربما آثرن الصمت خوفا من الفضيحة، لكنها فضيحة لنظام القذافي وكتائبه ومرتزقته وزبانيته، والعربي لا ينسى ثأره أبدا فكيف إذا كان الثار يتعلق بالشرف..

يعيدنا ما فعل زبانية القذافي، ما فعله كثير من أنظمة العرب البائدة، والتي في طريقها إلى الافول، كيف كانت تختطف النساء العربيات من الشوارع، وكيف كانت السرايا، تخلع الحجاب عن رؤوسهن وكيف كن يغتصبن، وكيف اغتصبت الحرائر في السجون، فانتحر بعضهن خوفا من العار.

فجر الثورة الصادق يا إيمان العبيدي قادم، وفجر الحرية يا إيمان في طريقه الينا، لا عليك فالعربي لا ينام على الثار لشرفه أبدا، وكل أحرار العرب سيثارون لك لا محالة. ومن اغتصبوا أوطاننا وبناتنا لن يهنئوا أبدا، وستضيق عليهم الأرض بما رحبت

مصراتة تكتب بالدم

جدران مهدمة يكسوها السواد .. بيوت سويت بالأرض ..ركام أنقاض يرتفع ويخفي خلفه دمارا شاملا .. شظايا قنابل وصواريخ وطلقات مدفعية .. بقايا قنابل عنقودية ..فتحات في الحيطان .. أطفال يبكون.. جوع وعطش وجثث في الشوارع تعلن أن الموت مر من هنا.

إنها مصراتة ..الشاهدة والشهيدة...

مصراتة التي تذبح على مرأى ومسمع العالم وما يسمى "المجتمع الدولي الحر"، رغم قرارات ودعوات حماية المدنيين من القتل والإبادة والمجازر وسفك الدماء، على يد السفاح الذي أبى أن يشرب الدم إلا في جماجم أطفال مصراتة.

مصراتة الصامدة منذ ستين يوما في مواجهة كتائب القذافي المسعورة التي تعشق سفك الدم وبناء المجد لمعتوه، يعتبر نفسه إلها، على أشلاء القتلى..إنها تنزف والعالم ينظر وينتظر ولا يحرك ساكنا لوقف آلة القتل الدامية لمجرم الحرب.

لا أريد أن أتحدث بالسياسة الباردة التي تحول البشر إلى مجرد أرقام، ولا بلغة المصالح الدولية والمساومات، التي يدفع ثمنها أهل مصراتة من دمائهم وحياتهم وحياة اطفالهم ونسائهم، ولكنني أريد أن اكتب بلغة من ينزف، ومن يحتضر، ومن يجوع ، ومن يبكي في هذه المدينة العظيمة التي تحطم على أسوارها مجد المعتوه المتأله والته الدموية القاتلة.

باسم شهداء مصراتة، وباسم الجرحى والنازفين، باسم الثكالى والأرامل، باسم الأيتام والمشردين، باسم من قصفت بيوتهم، وهدمت مخابزهم، باسم من سممت آبارهم ومياههم، باسم من يقتلون بالقنابل العنقودية والصورايخ وقذائف الراجمات ، باسم الذين دمرت مصانع ألبانهم.. باسم كل هؤلاء أقول للعالم:" أنت لا تستحي ولا تخجل" .. تتاجرون بالحرية وحقوق الإنسان وحماية المدنيين، وتتركون أهل مصراتة يقتلون ويموتون.

باسم كل المصراتيين أقول للأنظمة العربية "تبا لكم"، ماعرفناكم إلا خائرين، تستأسدون على شعوبكم وتهزمكم العصابات اليهودية في ست ساعات .. هل تذكرون الحرب التي

سماها اليهود حرب الأيام الستة عام ٦٧ .. لم تكن ستة أيام، بل كانت ساعات ينطبق عليكم قول الشاعر "أسد علي وفي الحروب نعامة".

مصراته التي دخلت التاريخ مثل عكا التي هزمت نابليون، ولينغراد التي صمدت في وجه هتلر ودفعته للانتحار، وهانوي التي مرغت وجوه الأمريكيين بالوحل، وبيروت التي صمدت في وجه شارون، وجنين التي واجهت الموت الإسرائيلي ثلاثة أسابيع، وغزة التي قاومت الفسفور الأبيض .. مصراتة مثل هذه المدن جميعا تقف في وجه الموت الأسود القادم من زفرات ملك الدم القابع في طرابلس الرهينة.

لا مساومة بعد اليوم، ولا صوت خافت.. فكلنا نشارك بقتل مصراتة بجبننا وخوفنا ورعبنا ولا مبالاتنا.. كلنا شركاء في الجريمة.. أفضلنا يشاهد التلفاز ويدمع وأردانا لا يريد أن يعرف شيئا، ولا يرغب حتى أن يشاهد صور حمم الموت التي تنهال على مصراتة.

ما قيمة كل القرارات والاستراتيجيات التي لا تستطيع ان تحمي مدنيا واحدا في مصراتة، وما قيمة كل الحبر والإنشاء الأجوف الذي لا يستطيع أن يمنع سفك دماء الأبرياء هناك.. انه النفاق العالمي والخور العربي، الذي ينظر إلى الجثث دون حتى أن يحصيها، فنحن لا نعد موتانا وقتلانا وشهداءنا.

مصراتة لا تحتاج على الكلام والمؤتمرات والمفاوضات، انها تحتاج إلى فعل يكبح جماح آلة موت القذافي وكتائبه الأمنية، وهي لا تحتاج إلى سفك الحبر على الموائد في الوقت الذي تنزف فيه ويسفك دمها الذي تحول إلى نهر جار.

ألف شهيد سقطوا .. ثلاثة جرحوا .. آلاف شردوا .. أطفال ماتوا من القصف والرصاص والصواريخ و قذائف الدبابات.. وأطفال يموتون من الجوع والعطش .. كل هؤلاء يحتاجون إلى فعل على الأرض لإنقاذهم وحماية أرواحهم، ومن يراهنون على استسلامهم واهمون، ومن يراهنون على هزيمتهم خائبون، ومن يساومون على دمائهم قتلة مجرمون، ومن ينتظرون سيلحق بهم العار إلى الأبد .. انه عار التخلي عن نصرة الأخ والشقيق .. عار التخلي عن قيم الدين والعروبة والإنسانية.

لا مكان لحديث السياسة الفارغ والتحليل الأجوف والإنشاء المنمق .. فمصراتة التي تكتب سيرتها بالدم لا تحتاج إلى الكلام لأنها تحتاج إلى فعل كل العرب .. أيها العرب.

نهاية عصر القذافي

أخيرا اجتاح الثوار معقل العقيد معمر القذافي في طرابلس، بعد ستة شهور من القتال والمعاناة والدماء والدموع، ليكون ثالث طاغية عربي يسقط بعد بن علي ومبارك، وليكون هذا السقوط علامة فارقة في التاريخ العربي الجديد، وبوابة الدخول إلى عصر الحرية والكرامة والعدالة.

لا أريد أن استخدم عبارات دبلوماسية ومصطلحات مواربة وسأعلن عن فرحي وسروري وحبوري بسقوط دكتاتور ليبيا المجنون الذي أبى إلا أن يسفك دماء الليبيين ويبدد ثرواتهم ويخرب حياتهم ويمارس الجرائم التي جعلته واحدا من أشرس المجرمين في التاريخ، قتل وسجن وعذب ونفى وفجر الطائرات وأدار ليبيا كمزرعة عائلية له ولأبنائه، وأضاع المليارات من ثروات ليبيا وتركها في الفقر وسوء البنية التحتية.

القذافي كان علامة سوداء في تاريخ ليبيا والعرب، فهو رجل موهوم كما قال نائبه السابق عبد السلام جلود، وهو مريض بالعظمة يعميه الغرور استعلى على الشعب وشتمه بأقذع الأوصاف ولم يراهم أكثر من "جرذان تستحق القتل.

سقوط القذافي ينهي مرحلة ثالثة من مراحل الطغاة في العالم العربي بانتظار سقوط طاغيتي سوريا واليمن، وينهي مرحلة من القهر والظلم والأساطير المؤسسة للاستبداد، فهو لم يبن وطنا بل أسس مليشيا وكتائب أمنية لقتل الشعب دفاعا عن حكمه وسلطته، وبدل أن يبني امة بنى مجمع العزيزية وأحاطه بالأسوار العالية والأسلحة وأدوات القتل، وأسس دولة "باب العزيزية" بدلا من الدولة في ليبيا التي غير اسمها إلى الجماهيرية وغير أسماء شهورها ليبدأ بشهر النار وهو الشهر الذي احرقه.

حرر الشعب الليبي طرابلس من الطاغية، لكن باب العزيزية لم يسقط بعد ومازالت كتائب القذافي المجرمة التي يقودها أبناء الطاغية تعيث في الأرض فسادا وتقتل وتسفك الدماء.

دولة باب العزيزية التي بناها القذافي لم تكن أكثر من قلعة يتحصن فيه الطاغية الذي كان يخشى الشعب، قلعة تتحكم بالاتصالات والانترنت والبث الفضائي والتلفزيوني في ليبيا، ليس فيها إلا الأنفاق والمسارب والدهاليز والغموض، فقد أراد القذافي أن يحتكر كل شيء للبقاء في السلطة للبقاء حاكما مدى الحياة وفكك الجيش لأنه كان يخشى الانقلابات وحوله إلى مؤسسة ضعيفة مقارنة من الكتائب الأمنية أو بالأحرى مليشيا القذافي التي كانت تدين له بالولاء.

القذافي لم يجلب لليبيا والليبيين إلا مقت الأمم من أعماله الإرهابية وإجرامه وغطرسته وغروره وتعاليه وهو الباحث دائما عن الألقاب الزائفة مثل "المناضل الاممي والزعيم والعقيد وعميد الزعماء العرب وملك ملوك إفريقيا وصاحب النظرية الثالثة والمفكر العالمي" وغيرها من الألقاب التي لا تسمن ولا تغني من جوع، فهو كان يريد أن يرى كل العالم لكنه لم يكن يستطيع أن يرى ليبيا فقد كان يشعر أنها صغيرة عليها وانه اكبر منها.

سقوط مجنون ليبيا يعني نهاية مرحلة استبدادية لأعنف حاكم تسلط على شعبه في العالم العربي وحكمهم بالحديد والنار، وتعني الدخول في مرحلة الرضوخ للإرادة الشعبية ولو بقوة السلاح، والدخول في مرحلة جديدة من "عصر الجماهير" فقد انهار وانتهى اعتى طاغية دموي مارس الإجرام والقتل والاغتيالات وقتل ١٢٣٧ سجينا سياسيا في سجن بو سليم الشهير في بضع ساعات.

انهار القذافي في حرب قاسية ولعل وجهته المقبلة ستكون المحكمة الجنائية الدولية لمحاكمته على جرائمه ليقبع ما تبقى من عمره خلف القضبان وليذهب بعد موته إلى مزبلة التاريخ بل إلى الدرك الأسفل من مزبلة التاريخ مع كل الطغاة والقتلة والمجرمين من أمثاله.

سقوط باب العزيزية

سيطرة الثوار الليبيين على "باب العزيزية" معقل العقيد القذافي وحصنه الحصين علامة فارقة في التاريخ العربي الحديث، بسبب انهيار واحد من أعتى أنظمة الحكم المستبدة التي رانت على قلوب الأمة ومقدراتها أكثر من أربعة عقود، فحصن "باب العزيزية" يرمز للطغيان والتجبر والدم والقتل والإجرام والاستبداد والدكتاتورية ومصادرة الحريات والحكم بالأهواء وسيادة حكم الفرد والعصابة.. باختصار "باب العزيزية" يرمز إلى حكم مافيا القذافي وزبانيته.

هذه الأوصاف ليست من ضرب الخيال بل هي اقل من الحقيقة البشعة لهذا النظام الدموي المتجبر، ففي جماهيرية القذافي شنق الطلاب في الجامعات، والسجناء يبادون في سجونهم مثلما حدث في سجن أبو سليم، وكانت تصادر الحقوق ويقتل الناس خفية دون أن يعرف احد كيف ماتوا، ويخطف الأشخاص ويختفون إلى غير رجعة، ويروع الصحفيين وتقطع أصابعهم.. في جماهيرية القذافي كانت تفجر الطائرات والملاهي الليلية، وتبدد الأموال على العصابات والقتلة من أمثال "أبو نضال" صاحب اشهر بندقية للإيجار، وتصرف الثروات بسفاهة من اجل شراء الألقاب "لزوم العظمة" للقائد الأممي وملك ملوك إفريقيا، الثائر المقاتل المجاهد المناضل من الخيمة ومن الصحراء إلى الصحراء.

سقوط باب العزيزية بأيدي ثوار ليبيا يعني سقوط كل هذا الجنون وسقوط مدو لمجرم لا يتورع عن فعل شيء للبقاء في السلطة، وهاهو المناضل الثائر هائم على وجهه في مكان ما وينتقل من حفرة إلى حفرة مثل الجرذان، وهي الكلمة الأثيرة إلى نفسه والتي طالما شتم بها الشعب الليبي العظيم.

تهاوي باب العزيزية يعني مرحلة جديدة من اجل الانتقال من "الفوضى إلى النظام" ،ومن حكم الفرد إلى حكم الشعب، ومن سيادة الأهواء إلى سيادة القانون، ومن انتهاك الحقوق إلى احترام حقوق الإنسان، ومن العزلة الدولية إلى التواصل مع العالم، ومن دولة

خارجة عن القانون إلى جزء من المجتمع الدولي، ومن جماهيرية القذافي إلى الدولة المدنية، ومن الفرقة إلى الوحدة، ومن الخراب إلى البناء.

لم تنته المعركة بعد، ولا بد من إلقاء القبض على القذافي وفلوله، ومحاكمته على كل جرائمه بحق الشعب الليبي والعرب والعالم، لأنه بدون إلقاء القبض عليه فانه سيعيث في الأرض فسادا، وهو الذي مازال يدعو القبائل إلى تطهير طرابلس من "الجرذان"، ويعتبر خروجه من باب العزيزية "تكتيكا" ويدعو "الجحافل" إلى القتال، ويدعو الناطق باسمه إلى تحويل ليبيا إلى براكين وحمم ونيران والقتال سنوات عديدة، زاعما أن ٦٥٠٠ متطوع وصلوا إلى ليبيا وانه سيمدهم بالسلاح.

يجب عدم التهاون بالتعامل مع هذه التهديدات وأخذها مأخذ الجد، لان القذافي اعتاد على المؤامرات ولديه ما يكفي من المال لشراء المرتزقة، وإغراء فقراء إفريقيا و"شركات الموت" بالقتال إلى جانبه، وربما لن يعدم دولا تدعمه أيضا مثل روسيا التي مازالت تعتبره في السلطة وتطالب بالتفاوض معه، وهذا يتطلب من المجلس الوطني الانتقالي سرعة التصرف والسعي لاستصدار قرار من مجلس الأمن يجرم كل من يتعاون مع القذافي ويقدم له أي نوع من أنواع الدعم، والضغط على الدول التي تساعده أو تغض الطرف عن مساعدته، كما يتطلب من الثوار مواصلة المعركة وعدم الركون إلى الانتصار في طرابلس، فتحرير باب العزيزية، نصر كبير لكنه ليس أكثر من خطوة رمزية، لان النصر لن يكتمل إلا بالقبض على القذافي وابنه سيف وأركان عصابته ومحاكمتهم على جرائمهم. ولا بد أيضا من السيطرة على سرت وسبها، لوقف مراكز الإمداد الخلفية، ووقف إمكانية وصول أي دعم بشري أو مادي للقذافي وكتائبه.

لا شك أن وجود ٦٥٠٠ مرتزق مع القذافي يعني ضرب الاستقرار في البلاد، وتخريب إمكانية بناء الدولة وإحباط انتصار الثورة وتعريض ليبيا إلى مخاطر "اللبننة أو العرقنة"، وتنفيذ تهديدات القذافي بتحويل ليبيا إلى بركان وجمر ونار حمراء تحترق بالحرب الأهلية. فالسيطرة على باب العزيزية بأسوارها المحصنة واستحكاماتها ودهاليزها نصر كبير للشعب الليبي المغوار وللثوار الأشاوس، لكنه نصر لن يكتمل إلا بالقبض على القذافي لوقف شره المستطير وألاعيبه الشيطانية.

المؤامرة على ليبيا

تواجه ثورة الشعب الليبي مشكلة كبيرة على مستويين، يتمثل الأول بوجود القذافي طليقا، وعدم خروج بعض المناطق الموالية له من عباءته حتى الآن ، وهذا يتطلب ملاحقة القذافي والقبض عليه وتقديمه للمحاكمة وعدم السماح لاي دولة في العالم بتقديم ملجئ امن له، لأنه سيستمر بمحاولة التخريب ولن يتوقف عن ذلك، هذا على المستوى الداخلي.

أما على المستوى الخارجي فان الثورة الليبية تواجه هجمات كبيرة من جهات مختلفة من بعض الدول على رأسها روسيا والصين والولايات المتحدة، وهذه الدول تتعامل مع ليبيا بمثابة "مغارة علي بابا" المليئة بالكنوز وتريد أن تستولي عليها، وقد عبرت عن هذه المطامع الاستعمارية علنا، في تطبيق عملي "للاستعمار الناعم" الذي يجري تجميله بأدوات ودراسات وأبحاث وتصريحات تتحدث عن التوازن وحقوق الإنسان وعدم الثأر وعدم التطرف وتطبيق الديمقراطية وغيرها.

وإذا كنا نستطيع أن نتحدث عن الخسارة الفادحة للصين وروسيا برهانهما الخاطئ على القذافي، نستطيع ان نتحدث أيضا عن محاولة الولايات المتحدة ابتزاز ليبيا عبر ترهيب الثوار والمجلس الوطني الانتقالي ومطالبتها بإقصاء الإسلاميين من الثورة وحديث المسؤولين الأمريكيين المتكرر عن وجود متطرفين وأعضاء في القاعدة بين الثوار، لا بد من تنظيف الساحة الليبية منهم، وهذا يعني ان الإدارة الأمريكية تمارس عملية ابتزاز ضد الثوار ومجلسهم للحصول على اكبر قدر من المكاسب ومحاولة ترتيب الوضع في ليبيا كما تريد.

وهنا لا بد من التذكير الى أن الولايات المتحدة ومعها طائرات النيتو لم تتدخل في ليبيا إلى بعد أن منحت القذافي الفرصة لسحق الثورة، وفي هذه الأثناء كان ثوار الشعب الليبي يقاتلون نظام القذافي المدجج بالسلاح وحدهم بدون مساعدة من احد، ولم يتصدى له إلا ثلة من أبناء الشعب الليبي من بينهم الإسلاميون ومقاتلو القاعدة السابقين ومقاتلو الجماعة الليبية المسلحة وعلى رأسهم القائد عبد الحكيم بلحاج.

هؤلاء الإسلاميون قاتلوا من يعتبر نظريا "عدوا للغرب" لكن الأحداث كشفت الكذب وبينت ان القذافي كان حليفا للغرب وليس عدوا، بل ان الغرب، سعى لإنقاذه .بكل الوسائل، وخاصة الولايات المتحدة.

الإسلاميون الليبيون كانوا في مقدمة صفوف المقاتلين من الثوار، ولولاهم لما استطاع الشعب الليبي الانتصار على القذافي وكتائبه، ولهذا من حقهم أن يكونوا جزءا من التركيبة السياسية والعسكرية في ليبيا الغد، فهؤلاء ليسوا متطرفين ولا إرهابيين، وهم قاتلوا القذافي الذي قاتله النيتو، فإذا كان من يقاتل القذافي إرهابي فان هذا يعني أن النيتو إرهابي أيضا، فهل يقبل الغرب بهذه المعادلة وهذا التوصيف.

عبد الحكيم بلحاج وإخوانه من الإسلاميين الليبيين أبطال ساهموا بإنقاذ الشعب الليبي من الطاغية جنبا إلى جنب مع المقاتلات الغربية، وهم يستحقون التكريم وليس الإقصاء، وكم كان عظيما ان يشارك عبد الحكيم في الدوحة إلى جانب رؤساء أركان النيتو وقطر والإمارات والدول التي شاركت بالحرب ضد القذافي، ولم نسمع منه إلا كلاما موزونا بدقة كبيرة، وخطابا معتدلا يشير إلى قدرة كبيرة على الانتقال إلى "عقلية الدولة". ولهذا يجب أن يستقبل عبد الحكيم بلحاج وإخوانه من المقاتلين الإسلاميين في كل العواصم بوصفهم أبطالا وقادة، وعلى الولايات المتحدة أن تكف عن "لعبتها الغبية" لابتزاز الليبيين، وهي التي تحاول أن تتفاوض مع القاعدة كما كشفت مديرة المخابرات البريطانية الداخلية السابقة.

ليبيا تحتاج إلى التاهيل والبناء وإعادة الاعمار، والبترول الليبي لن يشربه الليبيون، بل سيبيعونه من اجل إعادة اعمار بلدهم، لكنهم لن يقبلوا ومعهم كل العرب، إلى أن يكونوا تحت اي وصاية استعمارية جديدة لا من الأمم المتحدة ولا الولايات المتحدة ولا غيرها، ومن يريد ان يشارك ببناء ليبيا، ممن اسهموا بانتصار الثورة، سيرحب به بالتأكيد، أما من يريد أن يعتبر ليبيا "مغارة علي بابا" لنهبها، فهذا زمن قد ولى إلى الأبد، وأما الذين وقفوا ضد الثورة الليبية ومازالوا "يشوشون عليها"، خاصة روسيا والصين، فعليهم أن يبدؤوا بإحصاء خسائرهم، والبحث عن أساليب للتكفير عن خطاياهم بحق الشعب الليبي والمساعدة بجلب القذافي للعدالة إذا كانوا يرغبون بدور لهم في ليبيا المستقبل.

نهاية تليق بطاغية

مشهد العقيد الليبي معمر القذافي وهو يجر من أنبوب الصرف الصحي بأيدي ثوار ليبيا يسجل لحظة فارقة في تاريخ الأمة العربية، فهذا العقيد المسكون بالعظمة والذي كان يصف نفسه ب"ملك ملوك إفريقيا"، ويتصرف مثل اله على الأرض، ويعتبر نفسه مقدس مثل "إمبراطور القذافي".

خالجتني للحظات حالة من الشفقة وأنا أشاهده عبر الشاشات والثوار يتسابقون لضربه وشتمه، لكن ذلك تبدد حين تداعت إلى الذاكرة أفعال القذافي القريبة والبعيدة، بينما كان الثوار يجرونه إلى مصيره النهائي، تذكرت كيف قتل ١٢٧٠ سجينا بريئا من شباب ليبيا في سجن أبو سليم خلال ٣ ساعات فقط، وكيف أبادهم ودفنهم في مقبرة جماعية، دون أن يعلم أهاليهم أين انتهى أبناؤهم، في مجزرة جماعية من المجازر التي سيخلدها التاريخ إلى الأبد، لأنها دخلت في سجلات الدم لاعتى القتلة والطغاة ومنهم القذافي.

تذكرت وأنا أرى العقيد في أيدي الثوار، الأبرياء الذين قتلهم وشردهم، وعدد الذين لم تكتحل عيونهم برؤية بلدهم منذ تسلم الحكم قبل ٤٢ عام، وتفجرت في روحي أحاسيس المعاناة التي عاناها أبناء ليبيا المشردين في الأرض، وكيف انه لم يشفق عليهم، بل كان يرسل القتلة المأجورين لقتلهم في كل أصقاع الدنيا.

انداح على ذاكرتي مشهد القذافي وهو يهدد الليبيين بالويل والثبور وعظائم الأمور، وانه سيحول ليبيا إلى مقبرة لجثث الليبيين، ونار وجمر وارض حمراء من اللهب، وانه لم يستخدم القوة بعد، وهو ما حدث فعلا.

تذكرت مصراتة.. المدينة الشهيدة التي يشهد ثوارها وسكانها على واحدة من اعنف الحروب الإرهابية التي تشن على شعب اعزل وكيف دك المدينة بالصواريخ والقنابل

والمدفعية الثقيلة وكيف سممت كتائب القذافي خزانات المياه لتقتل كل الناس في جريمة يندى لها جبين الإنسانية.

تذكرت، بينما كنت أشاهد الثوار وهم "يجرجرون" القذافي، كيف خاطبهم ووصفهم بأنهم مهلوسين وجرذان، لينتهي هو نفسه كالجرذ في أنابيب المجاري، مختبئا من الثوار ومن الشعب الذي سأله مستنكرا ذات يوم "من انتم؟" وجلب لهم المرتزقة وذوي القبعات الصفر ليقتلونهم في بيوتهم.. لكن الشعب أجابه بلغة فصيحة ورد كيده إلى نحره واعلمه بقوة السلاح انه الشعب الليبي الثائر، أحفاد عمر المختار، وأبناء القبائل العربية والأمازيغية الكريمة.

القذافي لم يترك في ذاكرة الليبيين أي ذكرى حسنة فقد قتل أبناءهم وشرد أحرارهم، واعتقل شبابهم، واغتصب بناتهم، وأهدر ثورتهم، وبدد أموالهم على الإرهاب وشراء الألقاب الزائفة، وترك بلدا خرابا لا صحة فيه ولا تعليم ولا شوارع ولا بينة تحتية.. مول الإرهاب والقتل، ولم يقدم لفلسطين سوى "أبو نضال" الذي لم يقتل إسرائيليا واحدا، وقتل من الفلسطينيين الكثيرين، ومول الحرب في جنوب السودان والمتمردين في دارفور، وخرب تشاد، وقدم لإيران الصواريخ والأسلحة لكي تدمر العراق، وقتل الشرطية في لندن وفجر طائرة لوكربي وقتل الأبرياء وفجر الملهى الليلي في برلين، وعاث أبناؤه فسادا في سويسرا وغيرها، وترك الشعب الليبي فقيرا، وأضاع من عمره ٤٢ عاما.

القذافي لم يكن أكثر من طاغية قاتل سفاك للدماء مهووس بالعظمة، كان يقدس ذاته إلى درجة العبادة، ويعتبر نفسه ملهما في "كتابه الأخضر" وترهاته، ويعتبر نفسه زعيما للعالم وليس فقط ليبيا لأنه كان يراه صغيرة عليه.

لكن الأقدار شاءت أن تكون نهايته في أنبوب لصرف الصحي، تماما كالجرذان التي لا تسكن إلا الأماكن المظلمة في المجاري القذرة، وشاءت الأقدار أن يثأر ثوار مصراتة للجرائم التي ارتكبت بحق مدينتهم، وان يثأر ثوار ليبيا لأكثر من ٥٠ ألف ليبي قتلوا بسبب القذافي وجنونه وجنون أولاده وزبانيته وأعوانه.

لن نحزن على قتل القذافي "فالقاتل يقتل" و"بشر القاتل بالقتل ولو بعد حين".. ولن يحزن الليبيون على أيامه السوداء وخبله ومؤامراته وجرائمه .. وسيكون القذافي عبرة لكل الطغاة في العالم العربي، فلم يكن هناك أشرس واعنف ولا أكثر دموية من القذافي، ورغم كل هذا قبض عليه كالجرذان، وكان يطلب الرحمة من الثوار ويقول لهم "حرام عليكم"، ونسي

انه استباح كل الحرام، ولم يكن في قلبه رحمة تجاه شعب تسلط عليه واستبد بحكمه أربعة عقود كاملة.

القذافي لم يكن أكثر من عقيد للشر وعميد للمجانين وملك لملوك الظلم، حكم الليبيين بالنار والرصاص، لكن الليبيين قذفوه في "مزبلة التاريخ" كالجرذ ليلحق بالهارب زين العابدين بن علي والمخلوع حسني مبارك، وكما سيلحق به المحروق علي صالح، و الطاغية القاتل بشار الأسد..

لا يوجد خيار .. فالشعوب لا تعاند، ومن يعتقد من الطغاة انه سيتنصر عليها فهو واهم ومجنون.. فالشعوب ستنتصر في النهاية حتى وان قاتلت مجرما منفلتا من كل القيود مثل القذافي.

رسالة مفتوحة إلى الليبي الجليل

سيدي الرئيس:

حلقت روحي في فضاء الحرية وأنا أشاهدكم على شاشة التلفاز تعلنون تحرير كامل ليبيا من الطغيان والاستبداد والظلم والمجازر والتعسف، رغم أنني لم أطأ ارض ليبيا الحبيبة في حياتي، وكم شعرت بالفخر وأنت تسجد لله شكرا على نصره، وتعلن أن الشريعة الإسلامية ستكون المصدر الأساسي للتشريع، وتعلن الحرب على الربا وإلغاء والفوائد والسعي لتكوين مصارف إسلامية لان الربا يأتي بالإمراض ويخلق البغضاء بين النفوس وتعلن رفضك لكل إيديولوجيا متطرفة.

سيدي الرئيس:

كلماتك عبرت عن ضمير الأمة وروحها وأشواقها ورغبتها، ولهذا كان لا بد لنا أن نكبر مع المكبرين في بنغازي وطرابلس ومصراتة وكل المدن الليبية العظيمة التي قدمت الشهداء والدماء والجرحى والمشردين من اجل الحرية والعدالة والكرامة..

لقد صدقت حين قلت "هذه الثورة بدأت سلمية وللمطالبة بالحد الأدنى من الحقوق المشروعة ولكنها ووجهت بعنف وعنف مفرط، فسخر الله من ينصرنا بداية من مجلس التعاون الخليجي وجامعة الدول العربية ومؤتمر التعاون الإسلامي والاتحاد الأوروبي والأمم المتحدة التي أخذت قرارها الشهير ١٩٧٣ بحماية المدنيين في ليبيا". نعم لقد سخر الله من ينصركم، فكان نصرا مؤزرا على طاغية العصر وزبانيته"

لذلك نفرح معكم بالنصر ونترحم على الشهداء وندعو الله لهم بالمغفرة والجنة، ونتمنى للجرحى الشفاء وللمشردين العودة، وللثوار السداد والتوفيق والوحدة.

سيدي الرئيس:

الهزيمة ليس لها أب والنصر له ألف أب، وكما قال احد الثوار أو المفكرين فان الثورة يخوضها أبطال ويقطف ثمارها انتهازيون ومحتالون، فاحذروا الانتهازيين والمحتالين والأفاقين من الذين يلعبون على كل الحبال، فهم يتحفزون للانقضاض على "الكعكة الليبية"، لأنهم لا يرون ليبيا أكثر من "كعكة" يقتسمونها، فليبيا بلد غني أعطاه الله الكثير من الخيرات والنعم، وهي ملك لأهلها فقط دون غيرهم، إلا من ارتضى الليبيون ان يعطوهم منها شيئا.

ومن هنا فان التنبه للطامعين من الدول والشركات والأفراد يعد أمرا مهما وضروريا وحيويا، وهؤلاء لا يمكن التصدي لهم إلا بتأسيس نظام يقوم على الشفافية والمؤسسية بعيدا عن الكولسة والغرف المظلمة، وعلى راس هؤلاء المكولسين الدول الغربية، فهذا الدول تسعى الان لتقاسم "الكعكعة الليبية" بحجة تحريرها من القذافي، وقد كذبوا والله في دعواهم، فهم لم يحرروا ليبيا بل كان بعضهم من المخذلين، واشتغل بعضهم "طابور خامس سياسي ودبلوماسي" للقذافي كما أظهرت وثائق مخابرات العقيد.

صحيح أن النيتو ساعد لكنه لم يكن ليهزم القذافي، ولم يكن راغبا بهزيمته أصلا، ومن هزم القذافي وقهره هو الشعب الليبي والثوار الليبيون الذي حاربوا على الأرض، وقاتلوا بلا هوادة وقدموا الشهداء والدماء الغزيرة، ولذلك ليس للغرب منة في ان يقول انه صاحب النصر وصانعه، ولا يجب ان يترك المجال للدول الغربية لكي تنهب ثروات ليبيا وتسيطر على قرارها السياسي بحجة صناعة نصر هم لم يصنعوه، ولذلك لا تثقوا بالغرب، انهم يكذبون ويتآمرون كما فعلوا مع الشريف حسين، وعدوه بمملكة لكنهم قسموا بلادنا بينهم في قسمة "سايكس - بيكو".

علينا ان نعترف بالجميل للدول التي ساعدت الشعب الليبي، وان يكون لشركاتها الأولوية في إعادة اعمار ليبيا، شرط ان تكون العقود واضحة وعلنية ومطابقة للمواصفات العالمية، وعلى ليبيا ان تستفيد من تجربة العراق، حيث عاثت الشركات الأمريكية والغربية فسادا هناك، وبددت الأموال في مشاريع وهمية وغير مطابقة للمواصفات، والأدهى من ذلك الاستيلاء على الصفقات الكبرى ونهب ثروات العراق بلا حسيب او رقيب وهو ما اعترف الأمريكيون أنفسهم ببعضه.

سيدي الرئيس:

هناك محاولات أمريكية وغربية لإبعاد الثوار عن مراكز السلطة وصناعة القرار في ليبيا المستقبل، وهي تعمل على بث الفتن بين الليبيين، وكما أعلنت أن الشريعة الإسلامية هي مصدر التشريع، فان الثوار الإسلاميين الليبيين هم وقود الثورة التي قضت على حكم القذافي

ومن حقهم أن يكونوا جزءا من تركيبة الدولة وجيشها ومؤسساتها الأمنية والمدنية والإدارية، فليبيا لكل الليبيين من كل الأفكار والمناطق والمشارب والمنطلقات والإيديولوجيات، وصندوق الاقتراع هو الفيصل بين الجميع.

جميع المخلصين الليبيين ساهموا بتخليص ليبيا من حكم الطاغية ، وحق لهم جميعا أن يقودوا البلد واعماره من جديد بدون إقصاء لأحد.

سيدي الرئيس

من الخير الاستعانة بالشباب العرب لإعادة بناء ليبيا، فشباب مصر وتونس والأردن والسودان والمغرب وكل الدول العربية متحمسون للمشاركة في بناء ليبيا الجديدة، وإذا كان الأقربون أولى بالمعروف فان هؤلاء سواعد هؤلاء الشباب ستكون خير معين لكم في بناء ليبيا المستقبل.

وكما الشباب فان الدول التي وقفت من الثورة الليبية مثل قطر والإمارات تستحق معاملة خاصة وأفضلية، فهذه الدول غنية ولديها من الخير الكثير ولن تكون طامعة بثروات ليبيا، بل ستساعد في البناء السياسي والعسكري والإداري، وسترفد ليبيا بالمشورة والعون غير المشروط.

نحب ليبيا أيها الجليل مصطفى عبد الجليل، ونحب شعبها وثوارها، وقادتها العظام من أحفاد شيخنا عمر المختار، ونعشق رائحة الحرية التي كتبتموها بالدم ودفعتهم ثمنها غاليا.

سيدي الجليل

كم كنت رائعا عندما كنت واضحا ولم تتلعثم عندما أعربت عن املك " ان يتمكن الشعبان السوري واليمني من تحقيق ما يصبوان إليه وان ينتصرا.".. ولهذا نريد ليبيا قصة نجاح في العدالة والديمقراطية والشفافية والبناء ونصرة المظلومين ومساندة شعب فلسطين المظلوم، كما كانت الثورة الليبية قصة نجاح أطاحت باعتى طغاة العرب على الإطلاق.

إمش يا حمار

صرخ الشرطي في وجه سائق سيارة في سوق الحريقة في قلب دمشق "امش يا حمار" فما كان من الشاب إلا أن رد عليه " أنت ستين حمار"، فضربه الشرطي بعصا كان يحملها فترجل الشاب من سيارته كي يرد الإهانة، فاجتمع ثلاثة من الشرطة وانهالوا ضربا على الشاب وادموا وجهه وسحبوه إلى مدخل إحدى العمارات، وعندما رأى أحد المواطنين الدم يسيل من وجه الشاب ، بدأ بالصراخ والاستغاثة ما استدعى تجمع المارة الذين وصل عددهم إلى حوالي أربعة آلاف مواطن وبدأوا يهتفون "اتركوه اتركوه" ليبدأ رجال امن بالزي المدني بالهتاف " يعيش الرئيس" فما كان من المتجمهرين إلا أن هتفوا "ارفع راسك أنت سوري" في مواجهة الهتاف الذي يمجد الرئيس، ومع تفاقم الحالة أغلق التجار أبواب متاجرهم وفشلت محاولات فض المتجمهرين المطالبين بإطلاق سراح السائق رغم حضور رئيس قسم الحميدية وبعد ذلك قائد شرطة دمشق وتعالت الهتافات أكثر وصرخ الناس " لا تتركوه بيفرموه"، وأغلقت شرطة دمشق الطرق المؤدية إلى منطقة الحميدية والحريقة، وتصاعد الغضب عندما حاولت الشرطة تفريق المتجمهرين بالقوة.. عندها حضر وزير الداخلية السوري بصحبة ٦ عمداء والنائب العام ورفض المتجمهرون الانفضاض

احد الشباب من المتجمهرين صرخ : "هذا ليس سلوك شرطي سير... إنها تصرفات نظام كامل يرى في المواطن عبداً عند اللي خلفوه... وأن آخر شيء يحق له أن يرفع صوته دفاعاً عن كرامته". ولم ينصرف المتجمهرون إلا بعد أن اعتذر وزير الداخلية وتعهد بمعاقبة الشرطي الذي اعتدى على الشاب، عندها خرج الشاب المعتدى عليه وطلب منهم المغادرة.

كثيرة هي أوجه الشبه بين حادثة محمد البوعزيزي التونسي والشاب السوري، فكلاهما تعرض لإهانة من الشرطة، فالبوعزيزي احرق نفسه احتجاجا على شرطية صفعته وبصقت في وجهه وبعد ان رفض الوالي "المحافظ" استقباله والشاب السوري لم يحرق نفسه عندما قال له

الشرطي "امش يا حمار" فرد الإهانة لكن رجال الشرطة تكاتفوا عليه وادموا وجهه.. الفارق بين الحادثين هو ان النظام في سوريا تعلم درس تونس فما كان من وزير الداخلية إلا أن نزل بنفسه إلى الشارع لحل المشكلة التي ربما كان يمكن ان تتطور إلى مظاهرات حاشدة، بعد أن تجمع أكثر من ٤٠٠٠ آلاف شخص في اقل من ساعة ليهتفوا "ارفع راسك آنت سوري".

في كثير من الدول العربية لا يستطيع المواطن أن يمر من الشارع الذي تقع فيه وزارة الداخلية ولا يستطيع أن يرفع عينه في شرطي، فالمواطن يجب أن يكون مكسورا بشكل مستمر إدامة السيطرة والسلطة والتحكم، ومن هنا فان نزول وزير الداخلية السوري إلى الشارع مباشرة يعد تحولا استراتيجيا "ولو على سبيل الفكرة " في دولة يعتبر فيها وزير الداخلية من المحرمات الكبرى.

في عصر الجماهير العربية كسرت هذه المحرمات وهي حالة جعلت الناطق الرسمي باسم الحكومة الأردنية يخرج عن طوره ويطالب بلجنة تحقيق حول " البلطجية" الذي اعتدوا على مظاهرة سلمية في وسط عمان، قال المتظاهرون "إنهم رجال امن بزي مدني".. الوزير السوري اعتذر في الشارع والوزير الأردني أدان الاعتداء على المظاهرة السلمية واعتبر ما جرى "انتهاك لحرية المواطنين وحقهم في تنظيم المسيرات وحرية التعبير".. إنها لغة جديدة تختلف عن اللغة التي تتحدث عن"مجموعات مندسة وغوغاء ومتآمرين من الخارج وشرذمة يهددون الوطن وفئة ضالة توهن نفسية الأمة".

صفعة أججت ثورة تونس وشتيمة كادت أن تشعل أخرى سوريا .. لقد ولى عصر الصفعات و"امش يا حمار" التي توجه للمواطن العربي لان الثمن صار ثورة لا تطالب بمعاقبة شخص بل إسقاط النظام كله.

الأسد والدوران حول الذات

"المؤامرة كبيرة.. ونحن لا نسعى لمعارك وإذا فرضت علينا المعركة اليوم فأهلا وسهلا بها"، هذه هي العبارة الأكثر وضوحا في خطاب الرئيس السوري بشار الأسد، الذي خصص لمناقشة المظاهرات الاحتجاجية التي اجتاحت عددا من المدن السورية خلال الأسبوعين الماضيين.

الأسد الذي صمت أسبوعين كاملين منذ بدء الاحتجاجات في مدينة درعا برر هذا الغياب بقوله:"أنا تأخرت بإلقائها بشكل مقصود ريثما تكتمل الصورة في ذهني.. "، إلا إن الخطاب جاء خاليا من المضامين التي ينتظرها السوريون الذين كانوا يطالبون بالحرية وإنهاء هيمنة حزب البعث على الحياة السياسية وهيمنته على الدولة والمجتمع، وتعديل الدستور، وإلغاء قانون الطوارئ وإقرار قوانين جديدة للإعلام والأحزاب والانتخاب يمهد لمرحلة جديدة في الحياة السياسية السورية.

خطاب الرئيس الأسد جاء مخيبا للآمال واقل من التوقعات التي بشر بها نائبه فاروق الشرع الذي تحدث عن خطاب "مهم"، ولا يعكس تلك التصريحات الحيوية والسريعة لمستشارته بثينة شعبان التي بشرت بدروها بإصلاحات سريعة أقرتها القيادة القطرية لحزب البعث تتضمن "وضع آليات جديدة وفعالة لمحاربة الفساد ودراسة إنهاء العمل بقانون الطوارئ بالسرعة الكلية وإعداد مشروع لقانون الأحزاب وإصدار قانون جديد للإعلام وتعزيز سلطة القضاء ومنع التوقيف العشوائي"، وحين سئلت عن توقيت تنفيذ هذه القرارات، أجابت "اليوم هو توقيت البدء بتنفيذها.. والأسبوع القادم ربما يكون هناك تنفيذ لقرارات أخرى"، وأردفت "إن التوقيت والسرعة هما من صلب هذه القرارات".

الرئيس السوري بدا وكأنه تراجع عما تحدثت به مستشارته، واعترف أن "الدولة طرحت وعودا بالإصلاح لم تنفذها".. وهذا يعكس تباعد الشقة بين السرعة التي تحدثت عنها بثينة شعبان وبطء الرئيس الأسد، وهو ما يضع علامات استفهام كبيرة على آلية صناعة القرارات

ومدى مصداقيتها، ففي الوقت الذي لامست مستشارة الرئيس القضايا الأساسية للتظاهرات بدا خطاب الأسد خارج السياق ويفتقر للعمق وكأنه ليس على صلة بما يجري في المدن السورية.

لا أريد القفز إلى استنتاجات غير سليمة، لكن الخطاب حمل في طياته مجموعة من المتناقضات الخطيرة، فقد اعترف أن العالم العربي يشهد " تحولات كبرى وهامة ستترك تداعياتها على كل المنطقة من دون استثناء" واقر "إن سورية ليست بلداً منعزلا عما يحصل في العالم العربي ونحن جزء من هذه المنطقة نتفاعل نؤثر ونتأثر"، لكنه اعتبر أن "سوريا ليست نسخة عن الدول الأخرى".. وأنها تتعرض لمؤامرة كبيرة خيوطها تمتد من دول بعيدة ودول قريبة ولها بعض الخيوط داخل الوطن"، وان المتآمرين "قاموا بالخلط بين ثلاثة عناصر: الفتنة والإصلاح والحاجات اليومية".

الأسد ذهب إلى اعتبار ما يجري في العالم العربي عبارة عن موجة و "تحولات" وليس ثورات، وربما كان اغرب وصف استخدمه الرئيس السوري هو اعتبار هذه التحولات مجرد صرعات بقوله:"هناك صرعة جديدة اليوم هي ثورات بالنسبة لهم ونحن لا نسميها كذلك"، وهذا مصطلح خطير "فالصرعة" في المفهوم الشعبي تشير إلى تقليعة في الأزياء أو قصات الشعر، والصرعات عادة ما تكون سريعة الانتشار والتأثير، وإذا أخذنا هذا المصطلح على ظاهره فان "صرعة الثورة" انطلقت من تونس وامتدت إلى مصر وأطاحت برئيسين وهي تهز عرشي القذافي وعلي صالح في ليبيا واليمن، ولذلك فهي "صرعة خطيرة ومتفجرة سريعة الاشتعال"، لا يمكن اعتبارها "حربا افتراضية" كما جاء في الخطاب الذي قال فيه "نحن أفشلنا الهزيمة الافتراضية المخططة في عام ٢٠٠٥".

خطاب الأسد دار حول مشاكل السوريين ولم يناقشها، وتفنن بالحديث لكنه لم يناقش القضايا الجوهرية ومطالب الشعب التي دفعته للخروج الى الشوارع، والرئيس تنكب الطريق رغم حديثه عن" بوصلة الشارع والوطن" التي يبدو ان إبرتها تشير إلى اتجاه غير الاتجاه الذي ينظر إليه".

سوريا والثورة المتدحرجة

الثورة تتدحرج في سوريا .. فعندما يخرج الناس إلى الشوارع ويسقط الضحايا ويسفك الدم فان الوضع يصبح أكثر تعقيدا واشتعالا لان الدم هو وقود الثورة، وهذا يفسر لماذا يستمر الناس بالتظاهر في سوريا.

من الواضح أن النظام السوري لم يتعلم من الثورتين في تونس ومصر، ووقع في نفس الأخطاء التي وقع فيها النظامين عندما اعتبر أن "الحل الأمني" هو الترياق الشافي لصداع الشارع، رغم أن الحل الأمني كان سببا في تفاقم الأزمة واتساع دائرة الاحتجاج والرفض في البلدين والانتقال من شعار "الشعب يريد إصلاح النظام" إلى شعار "الشعب يريد إسقاط النظام".

الرئيس السوري بشار الأسد رفض مقارنة بلاده بتونس ومصر واليمن وليبيا وقال "لسنا نسخة عن الدول الأخرى"، رغم تشككه بما يجري وتعبيره عن ذلك صراحة بقوله:"ما نراه الآن هو مرحلة من مراحل لا نعرفها هل هي مرحلة أولى.. هل هي مراحل متقدمة..". ومن اجل تفسير المشهد ألقى باللوم على مؤامرة كبيرة تحاك ضد سوريا وقال "لا يخفى عليكم أن سورية اليوم تتعرض لمؤامرة كبيرة خيوطها تمتد من دول بعيدة ودول قريبة ولها بعض الخيوط داخل الوطن.." ينفذها قلة من المتآمرين والمغرر بهم و"مجموعات دعم لها أشخاص في أكثر من محافظة وفي الخارج.. مجموعات إعلام.. مجموعات تزوير. مجموعات شهود العيان.. هي مجموعات منظمة مسبقاً". يؤازرها بالطبع بعض "الفضائيات التي تحاول التشويش على الشعب السوري..". ووصف ما يحدث على انها "موجة او صرعة وفتنة" تهدف إلى إضعاف سوريا.

هذا التوصيف للمشهد أردفه الرئيس السوري بتهديد من لا يقف في وجه الفتنة بقوله:" وأد الفتنة واجب وطني وأخلاقي وشرعي وكل من يستطيع أن يساهم في وأدها ولا يفعل فهو جزء منها.. فكل من يتورط فيها عن قصد أو من غير قصد فهو يعمل على قتل وطنه

وبالتالي لا مكان لمن يقف في الوسط.. فالقضية ليست الدولة بل الوطن.. المؤامرة كبيرة ونحن لا نسعى لمعارك.. الشعب السوري شعب مسالم وودود ولكننا لم نتردد يوما في الدفاع عن قضايانا ومصالحنا ومبادئنا.. وإذا فرضت علينا المعركة اليوم فأهلاً وسهلاً بها".

اللغة التي استخدمها الأسد تعني عمليا عدم اعترافه بما يجري في الشارع من مظاهرات واحتجاجات لها مطالب إصلاحية لان ما يحدث حسب توصيفه "فتنة يشارك بها قلة" ويقودها مندسون وعصابات، وبالتالي يرفض أن يلوي المتظاهرون، المطالبون بالإصلاح، ذراع النظام قائلا: "علينا أن نتجنب إخضاع عملية الإصلاح للظروف الآنية التي قد تكون عابرة لكي لا نحصد النتائج العكسية". مؤكدا "انه ليس على عجلة من أمره بقوله "من واجبنا أن نقدم للشعب السوري الأفضل وليس الأسرع.. نحن نريد أن نسرع لا أن نتسرع".

هذا الخطاب يعني أن النظام لن يستمع " لمثيري الفتنة من المندسين والعصابات المسلحة"، لان الإصلاح عملية بدأها النظام قبل عقد من الزمان ولا حاجة لان يطالب الشعب بها، فالنظام يريد احتكار السلطة والإصلاح أيضا دون أن يسمع صوت الشعب، وهذا يفسر استمرار المظاهرات الاحتجاجية بل وامتدادها إلى مدن وقرى لم تشارك بالاحتجاجات قبل خطاب الأسد أمام مجلس الشعب، في تعبير واضح على رفض خطاب السلطة.

تحركات النظام السوري تعبر عن سيطرة حالة من التفكير السقيم وغياب الوعي باللحظة والتأخر بادراك ما يجب إدراكه الآن ، وهذه الأخطاء ستكلف النظام السوري غاليا لان الثورة تتدحرج بسرعة، والتاريخ لا يمنح فرصة أخرى لأي سلطة تعتمد على "حسابات خاطئة" وترتكب أخطاء إستراتيجية ولا يرحم من يتمادى بالاعتماد على "الزمن الفائض"، لان فائض الأخطاء يستنزف فائض الزمن، وعندها يسقط النظام لا محالة.. إنها قوانين الشعوب عندما تنزل إلى الشارع وقوانين الثورات عندما تندلع، ولا عاصم منها والتاريخ يشهد على ذلك.

مصير نظام الأسد

يراكم النظام السوري الكثير من الأخطاء التي لا يمكن إصلاحها، فعلى الرغم من سيطرة "الحل الأمني" لا تزال الثورة في سوريا مستمرة، والسوريون أرسلوا رسائل واضحة للعالم ألا وهي أن الثورة مستمرة رغم محاولات التعتيم و دفن الرؤوس في الرمال، و إشاحة الوجه عما يجري هناك.

أطراف كثيرة تحاول إخماد ثورة الشعب السوري، ولكل طرف حساباته الخاصة، فالأنظمة العربية لا تريد أن ترى مزيدا من رؤوس الحكام تتساقط، ولا ترغب أن يتحول سقوط الزعامات إلى تقليد أو فولكلور يتنقل من بلد إلى بلد، أو "عدوى" ثورية تطيح بالأنظمة وتقلب الموازين على الأرض، و إسرائيل تفضل نظام الأسد عمن سواه، لأنه وبحسب صحيفة هآرتس الإسرائيلية فان:" حالة من القلق تنتاب الأوساط الإسرائيلية من احتمال سقوط نظام بشار الأسد، وأن الكثيرين في تل أبيب يصلون من قلوبهم للرب بأن يحفظ سلامة النظام السوري الذي لم يحارب إسرائيل منذ عام ١٩٧٣ رغم "شعاراته" المستمرة وعدائه "الظاهر" لها. وفي التقرير المعنون "الأسد ملك إسرائيل" قالت:" بالرغم من تصريحات الأسد الأب والابن المعادية لإسرائيل إلا أن هذه التصريحات لم تكن إلا "شعارات" خالية من المضمون تم استخدامها لهدف واحد فقط كشهادة ضمان وصمام أمان ضد أي مطلب شعبي سوري لتحقيق حرية التعبير والديمقراطية"

الحسابات والتقييمات الإسرائيلية لا تخدعنا ، لأنها تروج عادة لعكس المقصود منها، وتحاول دس السم في الدسم، لكن القاسم المشترك بين النظام السوري واسرائيل، هو أنهما يفهمان قواعد اللعبة جيدا، ويديران معا حالة "اللا حرب واللا سلم"، مع بعض المناوشات هنا وهناك، مثل حرب لبنان عام ٢٠٠٦ وحرب غزة عام٢٠٠٨- ٢٠٠٩ والقصف الإسرائيلي لبعض المواقع السورية، وهي جميعها مناوشات تندرج تحت بند "حروب التحريك" واثبات الوجود بين الطرفين، وتحسين الأوراق التفاوضية لكل واحد منهما.

أما فيما يتعلق بالمصالح الإيرانية، فان النظام السوري وفي إطار سعيه لتقوية وضعه في مواجهة إسرائيل، فتح الباب أمام إيران على مصراعيه للدخول كلاعب قوي في قلب المنطقة، وعلى تماس مباشر مع إسرائيل، من خلال دعم وتسليح حزب الله وحماس والجهاد الإسلامي، وهي الورقة التي أثبتت قوتها وفاعليتها في الأعوام الأخيرة، وهزت قوة الردع الإسرائيلية، وألحقت بها هزائم حقيقية على الأرض، استغلها النظام السوري للعودة بقوة إلى الطاولة بعد أن كان يواجه تهديداً كبيرا بعد الغزو الأمريكي للعراق، واستطاع أن يكسب الجولة مع الإسرائيليين، ومن خلفهم الأمريكيين؛ وان يكرس نفسه لاعباً إقليميا لا يمكن تجاوزه، وبمقدار ما حققت هذه الإستراتيجية من فوائد للنظام السوري حققت أيضا مكاسب إستراتيجية لإيران في المنطقة دفعت أمريكا وأوربا إلى الاعتراف بها كقوة إقليمية ينبغي اخذ مصالحها بعين الاعتبار.

أما تركيا "العدالة والتنمية" فقد نجحت بتعديل علاقاتها مع النظام السوري باعتماد سياسة "الأبواب المفتوحة"، مما حسن العلاقات بين البلدين وقطع بالتالي كل الدعم عن مقاتلي حزب العمال الكردستاني الذين يخوضون حربا ضد انقرة، وبالتالي فان من مصلحة تركيا استقرار النظام السوري لضمان استقرار البوابة الجنوبية لتركيا وإبعاد المشاكل عنها.

وبالطبع هناك مصالح أمريكية أوروبية روسية متقاطعة تعتمد على استقرار النظام السوري وعدم انهياره، وهي مصالح محكومة بالتوازنات الإقليمية والدولية والوضع في العراق على وجه التحديد، وعدم تحول سوريا إلى جسر من "الفوضى" يربط بين العراق المحتل ولبنان الذي يتأرجح على حد السيف، وفلسطين المحتلة، مما يعني إمكانية تكون "هلال النار" الذي يمتد من العراق إلى فلسطين، وهو ما لا يريده احد منهم.

في خضم هذه الاستراتيجيات الدولية والإقليمية، تقف الأنظمة الغربية مذهولة وفاقدة للتوازن لا تدري ماذا تفعل، فهي قلقة من إمكانية سقوط النظام، ودخول سوريا في المجهول بسبب عدم معرفة الجهة أو الجهات التي يمكن أن تحل محله.

من المبكر القول أن النظام في سوريا سيسقط، رغم انه يترنح فعلا، لأنه لم يتعلم من أخطاء الأنظمة التي سقطت في تونس ومصر والبلدان التي تترنح مثل ليبيا واليمن، لكن المؤكد هو أن استمرار نظام الأسد بمراكمة الأخطاء واعتماد الحل الأمني وسفك الدماء وعدم الاعتراف بشروط ومتطلبات "الزمن الجديد"، سيسقطه لا محالة.

سوريا ومصيدة المربع الأمني

الاحتجاجات الشعبية السورية بدأت تتحول من "صرعة" كما وصفها الرئيس السوري بشار الأسد إلى "صراع" يتمدد أفقيا وعموديا، فهي من جهة صراع في الشارع بين المطالبين بالإصلاح او التغيير وبين المتشبثين بإبقاء الوضع الراهن عما عليه، وهي من جهة أخرى تتبدى من خلال "التباينات" على مستوى صناعة القرار الرسمي، وهي تباينات دقيقة تكاد تكون غير مرئية إلا لمن يضعها تحت المجهر، مما قد يشير إلى محاولات "شد وجذب" بين أكثر من طرف، على صعيد طرح الحلول لما يجري في سوريا.

فالوعود الاالتي اغدقتها مستشارة الرئيس بثينة شعبان في وقت مبكر من اندلاع الاحتجاجات والتي تتضمن "محاربة الفساد وإنهاء قانون الطوارئ وإعداد مشروع لقانون الأحزاب و قانون جديد للإعلام وتعزيز سلطة القضاء ومنع التوقيف العشوائي"، تبخرت بسرعة بعد أن بددها بشار الأسد بعد أيام، وظهر رافضا " املاءات" المتظاهرين المطالبين بالحرية، وان أحدا لن يكون قادرا على لي ذراعه"، ولن يقدم أي تنازلات تحت الضغط، وهو ماذكره صراحة في خطابه امام مجلس الشعب السوري،

هذا الموقف للأسد يأتي منسجما مع تصريحات أدلى بها صحيفة وول ستريت جورنال نشرت في يناير كانون ثاني الماضي قال فيها "ان التسلسل الهرمي الحاكم في سوريا يرتبط ارتباطا وثيقا بمعتقدات الشعب وانه لا يوجد سخط جماهيري ضد الدولة"، وانه "لا يزال أمامنا طريق طويل لنقطعه ولكي نكون واقعيين علينا أن ننتظر الجيل القادم لتحقيق هذا الإصلاح" معطيا الأولوية للأمن بقوله:" هكذا يصبح الأمن أولا ،وكيف يمكنك تحقيق استقرار بلدك وكيف يمكنك حماية مجتمعك من المتطرفين ثانيا الاقتصاد هذه الأولوية الثانية الملحة"

هذه هي المقتطفات الكاملة من حوار الأسد مع الصحيفة أوردتها كاملة لكي لا اترك أي مجال لإخراج النص عن مقصده، وهي تعبر بشكل واضح عن أولويات الرئيس الأسد:"الأمن

أولا"، وربما هذا يفسر جزئيا لماذا نزلت الدبابات إلى مدن درعا واللاذقية وبانياس، ولماذا غادرت القيادة السياسية السورية "المربع السياسي" الذي تحدثت عنه بثينة شعبان إلى "المربع الأمني"، لتيار آخر في القيادة يرى أن الحل هو في المواجهة وليس الحوار.

اللفتة الثانية من "المشهد السياسي المرتبك" عبر عنها إقالة الأجهزة الأمنية رئيسة تحرير صحيفة تشرين الحكومية سميرة المسالمة من منصبها على خلفية لقاء مع قناة الجزيرة، وهذا يضفي الكثير من التساؤلات عما يجري، فتعيين رئيس تحرير صحيفة في سوريا قرار يتخذ على أعلى المستويات، فهو منصب أهم من معظم الوزراء في الحكومة وبالتالي فان إقالتها هو قرار كبير أيضا"، ولا شك أن إقالة سميرة المسالمة،ضربة تحت الحزام، هزت صورة النظام في وقت يحتاج فيه إلى الظهور بمظهر الثابت والمتماسك"، وهي إقالة تم إخراجها بشكل ردئ تثبت أن "الأجهزة الأمنية" تتحكم بالمفاصل، وأنها الطرف الآخر الذي حاول أن يلعب من وراء الستار، لكنها ظهرت على المسرح بإقالة رئيسة تحرير كانت يجب أن تتم من قبل وزير الإعلام وليس مسؤولا امنيا".

رئيسة تحرير صحيفة تشرين المقالة في مقابلتها لم تكن معارضة بل عبرت عن دعمها للرئيس السوري ودعت لمحاسبة من قتل متظاهرين بقولها: "إن كان إطلاق النار قد بدا من الجهات الأمنية فعلينا فعلا أن نحاسب هذه الجهات ونبحث عن الأسباب التي جعلت هذه الجهات تخالف"، الأوامر الرئاسية بعدم إطلاق الرصاص. و"إن كان هناك طرف ثالث وأنا اعتقد بطرف ثالث، فعلى الجهات الأمنية أن تقدمه إلى الناس، هذه أرواح شعب ولا يمكن التسامح فيها"، وحملت الأجهزة الأمنية مسؤولية ما يحدث صراحة وقالت:"احمل قوات الأمن المسؤولية، عليهم أن يمسكوا بهذه العصابات إن كانت موجودة وان يقدموها للمحاسبة".

المسالمة كشفت أنها "اتصلت مع بعض المثقفين المعارضين لإقامة حوار حول الإصلاحات السياسية والحريات العامة لكي تأخذ السلطات علما بها"، في إشارة إلى أنها تسير في نفس طريق الحوار للمستشارة بثية شعبان، لوقف انزلاق سوريا إلى "مربع اللاعودة"، إلا أن هذه الجهود أحبطت في مهدها، لصالح "الحل الأمني والرصاص والدبابات"، مما أدى إلى سقوط قتلى وجرحى، وحول الشعارات المرفوعة من "اعتصام.. اعتصام حتى إصلاح النظام" إلى شعار "الشعب يريد تغيير النظام"، ورافق ذلك تصعيد في لغة النظام وصلت إلى حد وصف المتظاهرين بأنهم "مخربين ومندسين ومتآمرين ومثيري الفتن ينفذون أوامر خارجية وأجندات أجنبية ".

الاحتجاجات السورية المستمرة منذ ما يقارب الشهر لم تصل إلى حد الثورة الشاملة رغم تمددها إلى معظم المدن باستثناء دمشق وحلب، وإذا ما استمرت التظاهرات فإنها قد تحفز المترددين على المشاركة في الاحتجاجات الشعبية الأمر الذي قد يقابله لجوء السلطة لاستخدام مزيد من العنف ضد المتظاهرين.

ما يجري في سوريا ،بعد شهر من التظاهرات، تجاوز طروحات "جناح الحوار" في السلطة خلال الأسبوع الأول من الاحتجاجات، وسيجعل من الصعب "لملمة" الوضع وإقناع المتظاهرين بالطروحات الإصلاحية السابقة، وتجارب الثورات في تونس ومصر واليمن سيجعل من "رحيل النظام" هو مطلب الناس ولن تقف المطالب عند حدود مطالب الإصلاح التي كان ينادي بها الناس في الأيام الأولى.

أخطاء الأسد القاتلة

لم يتوقف الرئيس السوري بشار الأسد عن اقتراف الأخطاء منذ بدء الاحتجاجات المطالبة بالإصلاح السياسي في سوريا، فقد تأخر بالظهور للتعليق على مظاهرات درعا، وبعد ذلك ألقى خطابا في مجلس الشعب تراجع فيه عن الوعود التي قطعتها مستشارته بثينة شعبان، واستخدم لغة فيها الكثير من التهكم و "خفة الدم" التي لا تتناسب مع الدماء المراقة، مما أجج الشارع السوري ونقل الاحتجاجات إلى مدن أخرى، ثم جاءت كلمته أمام مجلس الوزراء الجديد لتكون ثالثة الأثافي وقاصمة الظهر، فقد كانت كلمة "خالية من الدسم" ومنزوعة الفاعلية.

كل هذه الحركات للرئيس السوري أدت إلى تمدد نطاق المظاهرات والاحتجاجات إلى معظم المدن السورية بما فيها دمشق وحلب، ورفع المتظاهرون السوريون سقف مطالبهم من إصلاح النظام إلى إسقاطه ، وتغيرت الشعارات من شعارات مطلبيه في ظل النظام القائم إلى شعارات من طراز " زنقة زنقة دار دار ..بدنا راسك يا بشار" و "لا بعث ولا بشار.. الشعب هو القرار" و "الشعب يريد إسقاط النظام"، وبذلك يكون المشهد السوري قد وصل إلى ذروته على غرار تونس ومصر.

سلسلة أخطاء الأسد تفاقمت لتصل إلى الذروة أيضا عبر إطلاق الرصاص الحي على المتظاهرين وسفك الدماء وقتل ما يزيد عن ٢٠٠ متظاهر على الأقل والهجوم على المحتجين في ساحة الساعة التي تغير اسمها إلى "ساحة التحرير"، وتحويلها إلى ساحة حرب، قتل وأصيب فيها العشرات، وذلك بعد استباحة بلدة البيضا قرب بانياس واعتقال جميع الذكور فيها من سن ١٢ سنة فأكثر، مما دفع أمهات الأولاد وزوجات المتعلقين للتظاهر وقطع الطريق في مؤشر على تدهور الحالة وتفاقمها، ففي مجتمعنا العربي عندما يخرجن الأمهات للتظاهر، فان أي شاب يكون على استعداد للموت دفاعا عن أمه وأخته وابنته دون تردد أو تفكير أو جدال.

كل هذا يحدث بعد سلسلة الأخطاء في درعا واللاذقية ودوما ،التي تعرضت لاعتداءات دامية من قبل أجهزة الأمن والشبيحة، وإسالة الدماء في الشوارع وتزايد عدد الضحايا، مما دفع المدن الأخرى للتحرك دفاعا عن المدن المستباحة من قبل قوى الآمن ومليشيات "الشبيحة" المسلحة.

كل هذه الأخطاء القاتلة أغلقت الأبواب أمام الرئيس السوري لكسب ثقة السوريين، وهذا ما ظهر في المظاهرات التي خرجت عقب حديثه عن نيته إلغاء قانون الطوارئ أمام الحكومة الجديدة، بل إن مجزرة ارتكبت في حمص عقب هذا الخطاب، مما يعني أن ما قاله الأسد يفتقر للمصداقية وان الشعب لا يثق بكلامه، وإلا لذهب كل واحد إلى بيته.

المشكلة الأكبر لنظام الأسد ونظام البعث في سوريا انه يعيش "حالة إنكار" لما يجري في الشارع، فالمتظاهرون ليسوا الشعب السوري "بل مجموعات من المندسين والمخربين ومثيري الفتن الذي ينفذون أجندات خارجية" فهم عملاء للمخابرات الأمريكية ثم عملاء للحريري في لبنان وبندر في السعودية، ثم اكتشف النظام الأمني السوري أنهم عصابات مسلحة ثم "إخوان مسلمون" ثم "مجموعات سلفية"..

المتظاهرون في كل هذه التوصيفات ليسوا "الشعب السوري"، فهذا النظام يتخيل أن الشعب السوري لا يتظاهر ضده خوفا ورعبا من قبضة أمنية يرعاها قانون الطوارئ الذي يخيم على البلاد منذ نصف قرن.

حالة الإنكار التي يعيشها الأسد ونظامه تعمي عيونهم عن رؤية الحقيقة وإدراك مطالب الشعب السوري المتمثلة برفع حالة الطوارئ فورا وإطلاق الحريات وحرية التظاهر والتجمع وإلغاء الاحتكار السياسي ووقف هيمنة حزب البعث وتعديل الدستور، وإطلاق سراح جميع المعتقلين السياسيين ورفع يد رجال الأمن عن رقاب الناس ومحاكمة المسؤولين عن القتل والتعذيب وإلغاء المحاكم العسكرية والاستثنائية وإلغاء العمل بمحكمة امن الدولة وعودة المهجرين والتحقيق في جريمة سجن تدمر والتحقيق في جريمة الحرب على حماة وقتل ٤٠ ألفا من سكانها،وإصلاح القضاء الفاسد ومحاربة الفساد وإلغاء الاحتكارات الاقتصادية، والكشف عن مصادر ثروات رجال الأعمال والكشف عن ثروات أعضاء النظام والكشف عن ثروات المتنفذين وتعديل المناهج الدراسية التي تمجد حزب البعث وعقيدته ووقف السيطرة على المساجد وسحب رجال الأمن الذين يعملون أئمة ووقف استغلال النفوذ والسلطة".

وهذه المطالب تعني باختصار تعني تفكيك المنظومة القائمة بما فيها حزب البعث، وهو ما لا يقبل به نظام الأسد حاليا، الأمر الذي يعني مواجهة مع الشارع قد تنقل سوريا من

الثورة على الطريقة التونسية والمصرية إلى الثورة على الطريقة اليمنية أو الليبية، مما قد يفتح الباب لتدخلات دولية في سوريا تبدأ بقرارات من مجلس الآمن الدولي لحماية المدنيين السوريين، وهو احتمال وارد جدا إذا تصاعدت حدة استهداف المتظاهرين بالقوة المسلحة للأمن والجيش ومليشيات "الشبيحة".

حكم حزب البعث في سوريا بحكم المنتهي نظريا، والأيام المقبلة ستجعل من هذه النهاية واقعا عمليا، لان جرأة السوريين على التمرد على الخوف والاحتجاج والتظاهر والهتاف " لا بعث ولا بشار .. الشعب هو القرار"، لا يمكن الرد عليها بالرصاص أو إخضاعها بالقوة المسلحة .. فالنظام السوري أمام خيارين لا ثالث لهما، إما الانسحاب المشرف من المشهد والاستجابة لمطالب الشارع السوري، أو الاستمرار في "حالة الإنكار" وخوض معركة ضد الإرادة الشعبية في المعركة التي أعلن الأسد استعداده لها، وفي كلا الأمرين سيتنصر الشعب .. انتصار بأقل التكاليف في الاحتمال الأول، أو انتصار غالي الثمن من الضحايا والدم والدموع.

سوريا..واحتمالات الانفجار الشامل

فتح النظام السوري بوابة الدم على مصراعيها في معظم المدن السورية يوم الجمعة الماضي، في تعبير شرس عند بدء خوض المعركة التي أعلن الرئيس بشار الأسد استعداده لخوضها في خطابه أمام مجلس الشعب قبل شهر تقريبا.

هذا العنف من قبل قوات النظام الأمنية وميليشيات "الشبيحة" التابعة له أسفرت عن مقتل ١١٢ شخصا خلال يوم واحد فقط، وهو الأعنف والأكثر دموية منذ اندلاع الثورة سوريا، مما يرفع عدد القتلى بين المتظاهرين إلى أكثر من ٣٠٠ شخص على الأقل.

من الواضح أن مقاربة الأسد للتعامل مع المظاهرات الاحتجاجية أمنية بامتياز، أو أن الأجهزة الأمنية باتت تسيطر على صناعة القرار في سوريا حاليا، مما يدفعنا إلى السؤال عن حقيقة الجهة التي تقود سوريا حاليا، وتدفع باتجاه "الحل الأمني العنيف الملطخ بالدم".

قتل هذا العدد الكبير من الناس في يوم واحد يعني القطيعة بين النظام وبين الشعب، فالشعب الذي خرج ليطالب بالإصلاح والحرية بطريقة سلمية لم يكن ليقدم على هذه الخطوة دون أن يضع أمام ناظريه إمكانية دفع ثمن فادح من الدم، أي انه خرج وهو مستعد نظريا لدفع ثمن الحرية، وهذا يعني أن هؤلاء الناس لن يعودوا إلى بيوتهم دون أن يحصلوا على ما يريدون.

في المقابل فان نظام الحكم احرق أوراقه التي كان بإمكانه أن يلعبها في مواجهة الجماهير الغاضبة ودفع نفسه إلى زاوية المعالجة الأمنية الدامية وأطلق الرصاص بكثافة على الشعب الذي يحكمه، وهو بهذا كتب شهادة وفاته نظريا حتى الآن على الأقل.

من الواضح أن نظام البعث الذي يقوده الرئيس بشار الأسد يجازف حاليا بكل ما لديه من قوة وعنف للبقاء في السلطة، وهي مغامرة قد تؤدي بالوضع في سوريا إلى احتمالات

متعددة أخطرها اندلاع حرب في البلاد تحرق الأخضر واليابس، ويبدو أن هذا الاحتمال هو الأقرب إلى الحدوث ما لم يتخلى بشار الأسد ونظامه طواعية عن السلطة، فالشعب الذي رفع سقف مطالبه "إسقاط النظام"، وعادة فان الجماهير لا تتراجع عندما تصل إلى مرحلة "المفاصلة" مع النظام، خاصة مع نزف الدم وخسارة الضحايا وتشييع الجثث وارتفاع شواهد القبور التي من شانها أن تغذي الثورة و غضب الناس.

ومن هنا فان النظام السوري يخطئ إذا ظن انه يستطيع إخضاع الناس، لان هذا الخضوع يتطلب استسلام الشعب، وهذا لن يحدث لان الشعوب لا تستسلم أبدا، ويخطئ النظام السوري أكثر إذا حاول المضي قدما في "الحل الدموي"، لأنه سينتهي إلى لفشل مهما سالت الدماء، ومن شانه تحويل سوريا إلى ميدان لصراع قاتل بين النظام والته العسكرية ومليشياته وبين بقية الشعب. ولذلك فان إصرار نظام الأسد على المغامرة والمقامرة لن يجدي والحل هو أن يرحل لأنه لا يوجد خيار أخر أمامه.

نظام الأسد انتهى لان الشعب السوري أعلن رفضه له، وهو" ميت سريريا" وسياسيا، وعلى الرئيس السوري أن يدرك أن حقبته وحقبة البعث قد انتهت إلى الأبد، وان التاريخ لن يعود إلى الوراء، وان تشبثه بالسلطة لا يعني إلا المزيد من القتل وسفك الدم، فهو لا يستطيع أن يحكم شعبا يلفظه، ولان من شأن ذلك دفع سوريا إلى احتمالات الانفجار الشامل.

من يحكم سوريا؟

يبدو أننا أمام سؤال محوري في المشهد السوري ألا وهو من يحكم سوريا حاليا؟ وهل الرئيس السوري بشار الأسد يسيطر على مقاليد الأمور؟ أم أن المؤسسة الأمنية القوية والمتنفذة هي التي تدير الأمور وتنفذ إستراتيجيتها في التصدي الدموي للمظاهرات الشعبية؟

المشهد على الأرض يشير بوضوح إلى أن أجهزة الأمن أو "العقلية الأمنية" هي التي تسيطر على النظام السوري قرر مواجهة المواطنين المطالبين بالحرية والكرامة بعنف، مع استبعاد أي إمكانية للحوار، وهو ما أدى إلى استقالة عدد من النواب والمسؤولين الذين اتهموا أجهزة الأمن بارتكاب عمليات قتل بدم بارد من خلال القناصة والعناصر الأمنية بزي مدني و"مليشيات الشبيحة" المنظمة والمسلحة جيدا.

النظام في سوريا تهيمن عليه العقلية العسكرية و"عقدة حماة"، فنظام البعث بقيادة الرئيس الراحل حافظ الأسد تمكن من سحق مدينة حماة عام ١٩٨٢ وقتل حوالي ٤٠ ألف شخص من سكانها دون أن يتعرض لأي نوع من المسائلة، واستطاع ان يوطد أركان حكمه منذ ذلك الحي، وهو الحل الذي يستهوي الأجهزة الأمنية السورية، وإلا فكيف يمكن تفسير محاصرة مدينة درعا وفصلها عن محيطها وعزلها عن العالم وقطع الاتصالات والكهرباء، وكذلك ما يجري من عسكرة في ١٤ مدينة وبلدة منها مدن جبلة ودوما واللاذقية وبانياس.

لا نستطيع أن نتحدث هنا عن احتمالات، بل يمكننا الجزم أن نظام البعث في سوريا بدا خوض معركة "حياة أو موت" ضد المحتجين، وفي مثل هذه المعارك عادة ما يستخدم النظام كل ما لديه من أسلحة وقوة وعنف، وهو العنف الذي استخدم فعلا وأوقع ١٢٠ قتيلا في يوم واحد، كما أوقع ١٥ قتيلا في مدينة صغيرة مثل جبلة وعشرات القتلى في مدن اخرى. وهو دفع نافي بيلاي مفوضة الأمم المتحدة لحقوق الإنسان لمطالبة النظام السوري بكبح جماح قواتها الأمنية والتحقيق في عمليات القتل وتقديم الجناة للعدالة" مما قد يمهد الطريق لنقل

ملف ما يجري في سوريا إلى مجلس الأمن، وبداية تدويل ما يجري هناك، وتشكيل لجنة تحقيق دولية حول عمليات القتل.

الخيار الوحيد المهين على نظام حزب البعث هو خيار العنف في مواجهة المظاهرات السلمية، وهو خيار استبعد منذ البداية تقديم "تنازلات إصلاحية" للشعب، مما أغلق الأبواب أمام الخيارات الأقل دموية.

فأعمال مثل حصار مدينة درعا واقتحامها والسيطرة عليها بالدبابات واستباحتها بالعسكر ، تعني أن النظام السوري يريد اخضاع المدينة مثلما فعل في حماة في مطلع الثمانينيات، ودفعها للتسليم أو الاستسلام، لكسر شوكة المحتجين في المدينة التي أعلنت الثورة، مع ما يحمله ذلك من رمزية كبيرة لانتصار النظام، لكن مشكلة نظام بشار الأسد انه يواجه ثورة في معظم المدن السورية لا درعا وحدها، كما أن الظروف تغيرت تماما، فحافظ الأسد استفاد من الظروف الدولية وسحق مدينة حماة في حقبة "الحرب الباردة"، وهذه الحقبة انتهت منذ عقدين، كما أن ذلك الزمان كان يفتقر للفضائيات ووسائل الاتصال والانترنت والفيسبوك واليوتيوب. ومن هنا فان نظام بشار الأسد الذي اختار "الحسم" مع الشعب دخل في معركة لا بد وان تنتهي بانتصار احد الطرفين، إما النظام وأجهزته الأمنية وإما الشعب، وبما أن الشعوب لا تهزم، فان نظام البعث في سوريا سيهزم ويخسر ويرحل وسيحاسب مسؤوليه، وسيصبح حزبا محظورا على غرار حزبي زين العابدين بن علي وحسني مبارك في تونس ومصر.

الأسد يعلن الحرب على الشعب

يمضي الرئيس السوري بشار الأسد في استراتيجيه الرامية لسحق المظاهرات الاحتجاجية ضد حكمه وحكم حزب البعث بالقوة المسلحة، وسط تعتيم إعلامي وعمليات قتل واعتقالات أدت حتى الآن إلى مقتل ٤٥٣ شخصا واعتقال ٥٠٠٠ آخرين حسب المرصد السوري لحقوق الإنسان، وهي إستراتيجية تغرق البلاد في الدم والدموع والمعاناة.

فدبابات الجيش اجتاحت مدينة درعا وكأنها تريد تحريرها من الشعب، ومعها آلاف الجنود وقوات الأمن والقناصة وميلشيات "الشبيحة"، وأقامت الحواجز وقطعت الطرق، وأطلقت النار على خزانات المياه ومنعت وصول الأدوية، واعتقلت الجرحى.. في سلسلة من الانتهاكات التي يعاقب عليها القانون الدولي، في مشهد تكرر في مدينة دوما التي دخلتها القوات المسلحة على ظهور الدبابات حاملة رشاشات ثقيلة، ونشر دبابات على المرتفعات المحيطة بمدينة بانياس وكأنه يستعد لخوض حرب ضد قوات عسكرية معادية.

للأسف الشديد فان المشهد في سوريا يمتد من ليبيا إلى اليمن بخيط من الدم يربط درعا بمصراتة التي تقصف بالصورايخ وكان جيشا مسلحا يتمترس فيها، أو صنعاء التي أغرقها القناصة بالدم.

هل يعقل أن تخرج حرائر العرب في درعا ودوما في مظاهرات للمطالبة برفع الحصار عن المدينتين وإطلاق سراح المعتقلين.. فخروج نساء العرب للتظاهر يعني أن الأمور وصلت إلى الحائط الأخير، وان المعاناة وصلت إلى ذروتها وان النظام يقاتل بالسلاح والدبابات شعبا اعزلا، بطرق التجييش والحشد العسكري، أو كما قال القذافي إعلان الحرب من الصحراء إلى الصحراء، ولكن على الشعب.

النظام السوري خسر معركته مسبقا مع الشعب، فمنازلة الشعب في الشوارع تعني الخسارة الأكيدة لأي نظام في العالم، ولم يسجل التاريخ أن نظام حكم استطاع أن ينتصر على

الشعب، ولذلك فان نظام الأسد والى جانبه القذافي وصالح سيهزمون، لان المنطق والعدل وسنن الحياة تقول إن حاكما فردا لا يستطيع أن ينتصر علي شعب بأكمله.

على أية حال ما يجري في سوريا حاليا يسير نحو التدويل، فمجلس حقوق الإنسان التابع للأمم المتحدة سيبحث قضية استهداف المدنيين من قبل الأمن والجيش، وبعد ذلك ستنتقل القضية إلى مجلس الأمن، مع وجود دول تريد إصدار قرار لحماية المدنيين، ودول تعمل على فرض عقوبات على النظام السوري وأركانه، وإقامة دعوى في محكمة الجنايات الدولية ضد أركان النظام السوري بتهم انتهاك حقوق السوريين.

مشكلة نظام الأسد انه احرق مراكبه "ولم يترك للصلح مطرح" كما يقول المثل، وهذا يجعل من سقوط النظام مسالة حتمية حتى ولو ارتفعت كلفة الدم في الشوارع والمدن، فهذا النظام الذي اعترف أن مطالب الناس مشروعة في البداية وقرر عدم إطلاق النار عليهم، عاد لينقلب على ما اقر به في البداية ليعتبرها مطالب "مندسين و مخربين" وعصابات مسلحة سلفية لا تستحق سوى الرصاص والدم.

لا استطيع أن أقدم نصائح للنظام السوري في كيفية الخروج من الأزمة أو التصالح مع الشعب، لان وقت النصائح قد ولى، ولكن المطلوب من نظام الأسد أن لا يوغل في الدم لان ذلك لن يمنع سقوط نظامه، وسيحاسب عليه بالتأكيد.. ما زال في يد بشار الأسد ورقة واحدة يستطيع أن يلعبها ألا وهي أن يتنازل نظام البعث عن السلطة بشكل منظم وهادئ بدون إراقة دماء، وان لا يترك البلد ومقدراته بيد الأجهزة الأمنية التي تغرق الشعب بالرصاص والدم.

الأسد يغرق سوريا في الدم

يمضي النظام السوري قدما في طريق الدم، ويصعد من إجراءاته القمعية الوحشية ضد الشعب الأعزل الذي يطالب بإسقاط النظام، فبشار الأسد وحزبه وأجهزته الأمنية وحلفاؤه مصرون على حرق سوريا إذا ما واصل السوريون تمسكهم بالحرية والعدالة والكرامة وإنهاء الاستبداد والفساد، والحكم الفردي الذي حول البلد إلى مزرعة خاصة.

نظام الأسد الذي يحتكر السلطة في سوريا ينزلق نحو ارتكاب المزيد من الجرائم ضد المدنيين وهو ما يمكن تصنيفه دوليا "كجرائم ضد الإنسانية" ويعضد ذلك اكتشاف بعض مقابر جماعية وقصف المدن بالدبابات والمدفعية ومحاصرتها ومنع الغذاء والدواء والماء عنها وقطع الكهرباء والاتصالات وعزلها عن العالم، ومنع الصحفيين من نقل حقيقة ما يجري من جرائم على الأرض.

تصعيد نظام البعث الأمني الشمولي انتقل إلى ما هو اعنف باستخدام المروحيات الحربية ضد المتظاهرين في مدينة بلدة جسر الشغور الصغيرة، ونشر ١٥ ألف جندي لمحاصرة المنطقة بالكامل وتحويلها إلى منطقة عمليات حربية كما أظهرت الصور، مما يعني تحول النظام في سوريا من قمع المحتجين إلى إعلان الحرب عليهم باستخدام آلاف الجنود المدججين بالسلام والمدعومين بالدبابات والمروحيات المقاتلة ومليشيات "الشبيحة."

الأوضاع في سوريا تضع العالم، وخاصة العالم العربي، أمام ساعة الحقيقة في مواجهة استحقاقات اللحظة، وهي استحقاقات لا يمكن غض الطرف عنها، والتي بدا العالم يتحدث عنها،فمفوضة الأمم المتحدة لحقوق الإنسان نافي بيلاي حثت النظام السوري على "وقف اعتداءاته على شعبه" وطالبت بلجنة لتقصي الحقائق، وقالت إن الحكومة السورية " تشن حربا على شعبها الذي يطالب بحقوق الإنسان ، وتحاول إرغامه على الخضوع باستخدام الدبابات والمدفعية والقناصة"، كما طالبت فاليري آموس نائبة الأمين العام للأمم المتحدة

للشؤون الإنسانية بالسماح لفريق أنساني بدخول سوريا لتقييم الوضع، وقال وزير الدفاع الأمريكي روبرت غيتس إن شرعية حكم بشار الأسد أصبحت محل تساؤل بعد إقدام قوات الأمن على قتل محتجين مشيرا إلى أن "ذبح أبرياء في سوريا يجب أن يكون مشكلة ومثار قلق للجميع" وقالت وزيرة الخارجية الأمريكية هيلاري كلينتون إن شرعية الأسد "نفدت تقريبا"، ودعا البيت الأبيض نظام الأسد إلى "الوقف الفوري للوحشية والعنف" وحذر من أن بشار الأسد يقود شعبه إلى "طريق خطير". وقال متحدث باسم الأمم المتحدة إن الأمين العام بان غي مون "حاول الاتصال بالأسد طوال الأسبوع الماضي، وقيل له إن الرئيس غير متاح" وحث بان الأسد على إنهاء القمع العنيف للمواطنين، وأكد "أن استخدام السلطات السورية القوة العسكرية ضد المدنيين أمر غير مقبول ."

الموقف التركي كان أكثر صراحة حيث اتهمت أنقرة نظام البعث بارتكاب "فظاعات" ضد المتظاهرين المناوئين للنظام، وقال رئيس الوزراء التركي رجب اردوغان "للأسف لا يتصرفون بطريقة إنسانية"، ووصف التعامل مع جثث النساء اللواتي يقتلن على يد قوات الأمن السورية بأنها "من الفظاعات".وحذر من أن تركيا "لن تتسامح مع حماه أخرى"، ودعا الصليب الأحمر للسماح لموظفيه بحرية مقابلة المدنيين والمصابين والمعتقلين السوريين، وهو ما لم يتم.

مشكلة نظام بشار الأسد انه يعيش حالة كاملة من الإنكار،ولا يعترف بالشعب الرافض لحكمه ويغالط العالم ويحاول تزوير الحقائق الصور، ويصور الشعب على انه مجموعة من الإرهابيين والعصابات المسلحة، فوزير الخارجية السوري وليد المعلم بعث برسالة إلى رئيس مجلس الأمن الدولي اتهم فيها المعارضة بالعنف والتخريب، وطلبت مساعدته "لمكافحة التطرف والإرهاب، ووصف المظاهرات بأنها "أعمال عنف وقتل وتدمير."

ما يجري في سوريا مجزرة حقيقة يرتكبها نظام البعث ضد الشعب السوري، الذي تحول إلى قتيل وجريح ومعتقل ومطارد ونازح، ولا يجوز أخلاقيا وإنسانيا ودينيا الصمت على المذابح التي يرتكبها نظام الأسد ضد المدنيين السوريين، وعلى العالم العربي أن يتخذ موقفا أكثر حزما وحسما لوقف حمام الدم والحيلولة دون غرق سوريا في بحر من الدماء والدموع.

الجراثيم تريد إسقاط النظام

تدور معركة ثقافية حامية الوطيس بين" الأنظمة الحاكمة المتمردة" وبين المتظاهرين المطالبين بإسقاطها، فقد رفع المتظاهرون السوريون لافتات تعلق على بعض ما جاء في الخطاب الأخير للرئيس بشار الأسد تقول " الجراثيم تريد إسقاط النظام" تعليقا على عبارة "المؤامرات كالجراثيم تتكاثر في كل لحظة وكل مكان"، بينما رفعت مظاهرة أخرى لافتة تقول:" خطاب الأسد الأخير برعاية ديتول"، وديتول لمن لا يعرف هو مطهر يقضي على الجراثيم.

الأسد ليس أول من استخدم "معجم توصيف الشعب" فقد سبقه الرئيس التونسي الهارب زين العابدين والرئيس المصري المخلوع مبارك والرئيس "المحروق" علي صالح والرئيس المقدس "القذافي"، فجميعهم استخدموا سلسلة من المصطلحات لنعت من يطالبونهم بالرحيل وشملت "مخربين ومندسين وإرهابيين وعملاء وخونة وخارجين على القانون وجرذان وجراثيم" وهذه الأخيرة كانت ماركة مسجلة محتكرة باسم العقيد الليبي "معمر القذافي"، إلى أن أنهى بشار الأسد هذا الاحتكار بوصف المحتجين بالجراثيم.

مهزلة زعماء هذه الأنظمة تبدأ من عدم قبولهم بالاعتراف بوجود "شعب"، فالنسبة لهم لا يوجد شعب يعترض على حكمهم إلى الدرجة التي وقف معها عقيد ليبيا المقدس ليسال الشعب "من أنتم"؟ في اغرب سؤال من نوعه في التاريخ، حيث لا يستطيع حاكم استفرد بالحكم ٤٢ عاما أن يعرف من هم هؤلاء الناس الذين يحكمهم، وينكر وجودهم بالسؤال عن ماهيتهم، ليصل إلى النتيجة القاتلة ان "الليبيين ليسوا شعبا بل جراثيم وجراذين"، لكن المفارقة هي أن القذافي وقع في مصيدة الجرذان التي صمدت في مصراتة وتزحف إلى قلعته في "طرابلس الرهينة"، وتحول الشعار عمليا إلى "الجرذان تحاصر القذافي" وصارت على بعد ٦٠ كيلومترا من حصنه في "باب العزيزية."

أما عقيد سوريا "والعقيد هنا مستمدة من مسلسل باب الحارة وليست رتبة عسكرية"، فقد كان أكثر تفصيلا حين قسم السوريين إلى "صاحب حاجة أو خارج على القانون أو تكفيري"، ولا يعترف بوجود شعب يريد إسقاط نظامه، ولذلك فهؤلاء حسب رأيه "يلبسون الأقنعة ويقبعون في "الزوايا المعتمة" ويخربون باسم الإصلاح ويقتلون باسم الدين وينشرون الفوضى باسم الحرية ويستخدمون المسيرات السلمية كغطاء للمسلحين وينفذون عمليات اغتيال وهم يحملون فكر قبيح"، ويعلن ببساطة أن عدد الخارجين على القانون يصل إلى ٦٥ ألف شخص.

يصلح خطاب زعماء هذه الأنظمة الخارجة على القانون والمتمردة على الإرادة الشعبية مادة للهزل والسخرية والكوميديا السوداء، لكنها تعبر في الحقيقة عن طبيعة العقل الحاكم في العالم العربي، وطبيعة الخطاب الذي يحكم "الفئة الحاكمة" على وزن "الفئة الضالة" ،في سوريا وليبيا واليمن، التي تستخدم أيضا لوصف المعترضين الاستبداد والظلم واحتكار السلطة، وهو خطاب "أعمى البصر والبصيرة" لا يرى الناس إلا قابلين بمن يحكمهم عنوة أو "ضالين"، ولا يستطيع أن يتصورهم إلا خانعين لإرادة الحاكم أو مستحقين للحصار والقتل والتجويع مثلما يحصل في مصراتة والزاوية ودرعا وخربة الجوز وجسر الشغور.

من وجهة نظر ثقافية خالصة غير مختلطة بالايدولوجيا والتنظير السياسي والمصالح النخبوية لا يمكن التعايش مع هذه "الأنظمة الخارجة على القانون والفاقدة للشرعية الشعبية والمتمردة على إرادة الشعب"، فالأصل أن أنظمة الحكم وجدت لخدمة الناس وليس استعبادهم، شرط قبول ورضى الأغلبية، ومن هنا فان هذه الأنظمة فاقدة للشرعية السياسية لأنها لم تات للسلطة عبر صناديق الاقتراع ، وهي متهمة بالفساد والإضرار بمصالح الأمة وبعضها متهم بالتفريط بالوطن والقبول بالاحتلال، والاهم من ذلك أنها فاقدة للشرعية الأخلاقية لأنها تقتل الشعب الذي يفترض أنها خادمة له وأمينة على مصالحه ومستقبله، وتسفك دمه وتحاصره وتجوعه وتدمر مدنه بالطائرات والمروحيات والدبابات .. فهل يبقى بعد ذلك أي شرعية لهذه الأنظمة.

الأسد ومتاهة الدم

أفضل وصف لخطاب الرئيس السوري بشار الأسد في جامعة دمشق انه "منتهي الصلاحية" ومتأخر، بعد تورط نظام البعث بسفك الدماء وشن حملات عسكرية قاسية على عدد من المدن السورية وتهجير آلاف السوريين إلى تركيا ولبنان، مع حقيقة سقوط ١٣٠٠ قتيلا على الأقل ونزوح ما يقرب من ١٧٠٠٠ شخص إلى تركيا ولبنان، واعتقال ١١٠٠٠ شخص وفقدان نحو ١٠٠٠٠ شخص، والكشف عن مقابر جماعية إضافة إلى ألاف الجرحى، وهي حصيلة تصعب قبول الشعب بنظام البعث المتشبث بالحكم.

خطاب الأسد جاء ملغما بالإنشاء والوعود المبهمة الهلامية والتهديد والوعيد، ومفصولا عن السياق العام وتضمن وصفا لا يتسق مع ما يجري على الأرض، وبدا الرئيس السوري وكأنه غير راغب، أو غير قادر على" الاعتراف بما يجري، وانه يهرب إلى الأمام لبيع مواقف سياسية للخارج في مسعى لتخفيف الضغوط الخارجية على نظامه، وتقديم "ذخيرة سياسية وهمية" تساعد روسيا والصين على الدفاع عن نظامه، والحيلولة دون سقوطه وعزله وحصاره كليا، وهي محاولة باءت بالفشل داخليا، إذ سرعان ما خرجت المظاهرات المنددة بهذا الخطاب في عدد من المدن السورية،وتطالب برحيله ورحيل حزبه عن السلطة.

الخطاب الأسد الثالث عمق الأزمة، ودخل في لعبة الأحاجي والألغاز عند حديثه عن حوار وطني مرتقب مع مائة شخصية، وفي نفس الوقت حث السوريين على" العمل على إعادة الحياة لطبيعتها حتى ولو استمرت الأزمة شهورا أو سنوات"، وهو إعلان صريح أن "الأزمة" قد تستمر وقتا طويلا، مما يعني انه لن يقدم أية تنازلات للمطالب الشعبية.

الأسد اعتبر أن ما ينفذه البعض "تخريبا" وانه "لا يوجد حل دبلوماسي ممكن مع أناس يحملون السلاح"، واستعار بعضا من خطاب العقيد الليبي معمر القذافي الذي تفنن بوصف الشعب الليبي " بالجراثيم والجراذين والخونة والمتآمرين والسلفيين والقاعدة"، فذكرنا بهذه

اللغة حين قال: "المؤامرات كالجراثيم تتكاثر في كل لحظة وكل مكان لا يمكن إبادتها"، وقسم الشعب إلى شرائح قائلا: "ما يحصل في الشارع له ثلاثة مكونات الأول هو صاحب حاجة أو مطلب يريد من الدولة تلبيتها له، والثاني يمثله عدد من الخارجين على القانون والمطلوبين للعدالة، أما المكون الثالث فهو الأكثر خطورة بالرغم من صغر حجمه وهو يمثل أصحاب الفكر المتطرف والتكفيري الذي اختبرناه منذ عقود عندما حاول التسلل إلى سورية واستطاعت أن تتخلص منه.. لا نرى اليوم هذا الفكر المتطرف التكفيري مختلفا عما رأيناه منذ عقود فهو نفسه وما تغير هو الأدوات والأساليب والوجوه فهذا الفكر يقبع في الزوايا المعتمة ولا يلبث أن يظهر كلما سنحت له الفرصة وكلما وجد قناعا يلبسه فهو يقتل باسم الدين ويخرب تحت عنوان الإصلاح وينشر الفوضى باسم الحرية لذلك كان التصعيد والفوضى هما المرادف لكل خطوة إصلاحية وعندما فقدت المبررات كليا كان استخدام السلاح هو الخيار الوحيد أمامهم لتنفيذ المخطط ففي بعض الأحيان استخدمت المسيرات السلمية كغطاء يختبىء تحته المسلحون وفي أحيان أخرى كانوا يقومون بالاعتداء على المدنيين والشرطة والعسكريين عبر الهجوم على المواقع والنقاط العسكرية أو عبر عمليات الاغتيال، واتهم "أصحاب الفكر المتطرف باستحضار خطاب مذهبي يعبر عن فكر قبيح واعتبر " مشيرا إلى أن "عدد الخارجين على القانون والمطلوبين للعدالة ٦٤٤٠٠ بقضايا مختلفة تصل من بضعة اشهر حتى الإعدام أحكامها وهم فارون من وجه العدالة، ٢٤ ألفا من هؤلاء حكمهم من ٣ سنوات.

وحسب الأسد نفسه فان هذا العدد "يعادل بالمعنى العسكري خمس فرق عسكرية تقريبا..أي جيشا كاملا"، لكنه نسي أن يقول لماذا لا يحمل هؤلاء "الخارجون عن القانون" السلاح طالما أن عددهم كبير إلى هذه الدرجة، بل اكبر من عدد جيوش بعض دول المنطقة، ولم يكشف في الوقت نفسه عن هوية من يحملون السلاح ويقتلون ويرتكبون المجازر، ومن هم "الشبيحة"، وماهي الأفعال الدامية إلى تقوم بها الفرقة الرابعة التي يقودها شقيقه ماهر، وغيرها من القوى العسكرية والأمنية التابعة للنظام ، وبما انه قرر انه "لا يوجد حلا سياسيا مع من يحمل السلاح"، فانه يوفر بذلك من حيث لا يدري غطاء لمطالب الشعب الذي يطالب بإسقاط نظامه، بعد أن استخدم ضده المدافع والدبابات والمروحيات، فهذا النظام اجتاز "خط الدم" وهو الخط الذي يجعل من المستحيل على الشعب السوري القبول بحكم حزب البعث وعائلة الأسد تحت أي ظرف من الظروف.

الأسد تجاهل وجود الشعب السوري بتصنيفه إلى " صاحب حاجة أو خارج على القانون اوتكفيري"، دون أن يعترف أن هناك شعبا ثائرا في الشوارع يطالب بإسقاط نظامه ورحيله،

ومحاكمة الذين حاصروا المدن وقتلوا أهلها وسفكوا الدماء في الشوارع، وتجاهل مطالب الناس بالحرية والعدالة والكرامة وحق اختيار من يحكمه وعزله، وهو بذلك يدخل إلى مربع جديد في "متاهة الدم"، التي ستعجل برحيل نظامه"

يغالط الأسد نفسه عندما يقول "لمست حب هذا الشعب الذي طالما مدني بصدقه ووقفاته الأبية.. بالقوة والاستمرار في خطنا السياسي ونهجنا المقاوم" ويعمق الفجوة بين ما ورد من خيالات في الخطاب والحقائق على الأرض، ويرسم "إستراتيجية من السراب" في محاولته طبخ خطاب سياسي يطيل أمد حكمه، وهي إستراتيجية لن تنجح ولن تنقذ نظامه، والحل الوحيد هو أن يستجيب للمطالب الشعبية، وبغير ذلك فان المعركة ستطول حتى انتصار الشعب.

الصراع التركي الإيراني على سوريا

يغيب العرب تماما عن المشهد السوري حيث لا مواقف من أي دولة عربية حيال المظاهرات الاحتجاجية التي تطالب بإسقاط النظام، بينما تتخذ كل من إيران وتركيا مواقف مؤثرة على الأحداث هناك.

فقد انحازت إيران إلى نظام بشار الأسد كليا وأعلنت دعمها الكامل له، وتحدث الأمريكيون والأتراك وشهود عيان عن إقدام إيران على تقديم دعم عسكري لنظام الأسد من اجل التصدي للاحتجاجات، وصلت إلى حد اتهام إيران بإرسال جنود من الحرس الثوري أو بعض مقاتلي حزب الله اللبناني للتصدي للمتظاهرين، وهي اتهامات لم يتم تقديم أي أدلة عملية عليها، باستثناء احتجاز تركيا لطائرة أسلحة إيرانية كانت متجهة إلى سوريا.

في الجانب الأخر اتخذت الحكومة التركية موقفا صارما يطالب الأسد بالإصلاح وإجراء انتخابات ديمقراطية والاستجابة للمطالب الشعبية، وان لم تصل تركيا في مطالبها إلى درجة مطالبة نظام الأسد بالرحيل، وكذلك الأمر بالنسبة للموقف الفرنسي وموقف الاتحاد الاوروبي وبدرجة اقل المواقف الأمريكية المرتبكة والمترددة والتي "تقدم رجلا وتؤخر اخرى"، ومع ملاحظة تطور الموقف الروسي حيث اعلن رئيس الوزراء فلاديمير بوتن انه لا يوجد علاقات خاصة بين روسيا وسوريا، وهو ما يفتح الباب امام تغير اكبر في هذا الموقف والابتعاد عن دعم نظام الاسد.

في ظل هذا المشهد يغيب أي رد فعل عربي رسمي ، فالحكومات العربية منقسمة بين من يؤيد نظام الأسد تحت الطاولة ، وبين من ينتظر النتيجة النهائية للصراع بين نظام الأسد والشعب.

وخلافا لليبيا التي انحازت فيه بعض الدول العربية للشعب الثائر، خذل الجميع الشعب السوري على الصعد كافة، سياسيا وإعلاميا، خاصة في الأيام الأولى للثورة حيث تعاملت

وسائل الإعلام العربية مع ما يجري هناك إما بالتجاهل التام أو على طريقة "رفع العتب"، وهو ما أثار غضب الثوار السوريين، أما سياسيا فقد لاذ الجميع بالصمت على أمل أن يحسم النظام السوري المعركة لصالحه، وهو ما لم يستطع فعله.

لا شك أن التأثير الجيوسياسي لسوريا كبير جدا، خاصة وإنها على تماس تام مع عدد من الملفات الساخنة في المنطقة، من إيران والعراق ولبنان وفلسطين، وبالتالي فان سقوط النظام بشار الأسد قد يؤدي إلى بعثرة الأوراق وتغيير قواعد اللعبة، وهذا ما يجعل من نظام البعث السوري ورقة مطلوبة عربيا وإقليميا وإسرائيليا، وهذا بالضبط ما يربك الحسابات الرسمية العربية ويجعلها في حيرة من أمرها، أو مساندة نظام الأسد من وراء ستار، كما أعلن وليد المعلم، وزير الخارجية السوري عندما أكد "أن جميع الدول العربية بلا استثناء" تدعم نظامه. وهو أمر يمكن أخذه على محمل الجد وتصديقه في ظل "مواقف الصمت" المعلنة للأنظمة العربية الحاكمة.

في ظل هذا المشهد العربي تمسك إيران وتركيا بالورقة السورية، فإيران ومعها حزب الله اللبناني اختارا دعم نظام الأسد والدفاع عنه، وتطور الموقف التركي خلال ١٠٠ من الثورة في سوريا، فقد انتقل من مرحلة الصمت، إلى مطالبة النظام بتنفيذ إصلاحات، ومن ثم الى التهديد بالانحياز إلى المواقف الأوروبية ضد النظام السوري، وحثه إلى الكف عم ممارسة العنف ضد المدنيين العزل، وهو ما دفع بشار الأسد إلى إرسال مبعوث إلى أنقرة لمحاولة تخفيف الضغط التركي.

في المقابل يغيب أي فعل عربي على الساحة السورية، ويتصرف النظام في دمشق وكأنه يضع جميع الحكومات العربية "في جيبه"، مما يجعل الساحة السورية ملعبا للقوى الدولية والإقليمية. في ظل شلل عربي وعجز عن التأثير.

مشكلة نظام الأسد انه لا يقدم ما يمكن الحكومات العربية من لعب أي دور ايجابي لإيجاد حل يخرج سوريا من أزمتها، فالنظام متمسك بالسلطة، واحتكار الحكم بواسطة أجهزة الأمن، ويرى أن "الحل الأمني" هو الأمثل، ويمارس أقصى درجات العنف ضد المتظاهرين، ويحاصر المدن، ويمنع المدنيين من الفرار من الموت إلى ملاذات آمنة في تركيا، ويمعن في التضليل والخداع دون أن يقدم أي إجراءات لإرضاء الشعب باستثناء الوعود التي لا يصدقها السوريون.

الغطاء الروسي الصيني لجرائم نظام الأسد

لا يمكن وصف الموقف الروسي والصيني حيال ما يجري في سوريا إلا بالمخزي وغير الأخلاقي والإنساني، فالبلدان يحولان دون لجم آلة الحرب الدموية لنظام الأسد، فكيف يمكن تبرير الصمت على قتل شعب بأكمله وعدم التدخل لحمايته؟ وعلى أية أسس تتعامل موسكو وبكين مع حصار المدن السورية؟

روسيا والصين تدوران في فلك المصالح، التي لا تتفق بالضرورة مع القيم العليا للبشرية أو حقوق الإنسان، ومن هنا نفهم أسباب موقف البلدين من حمام الدم في سوريا، وهو موقف مناوئ لتطلعات الشعب السوري إلى درجة منع مجلس الأمن من إصدار أي قرار يدين الممارسات القمعية لنظام بشار الأسد.

هذان البلدان لهما سجل حافل في انتهاك حقوق الإنسان، فروسيا تخوض حربا صامتة ضد الشيشان وهي "الحرب المنسية"، التي لا يتناولها الإعلام العالمي، وترتكب هناك فظاعات لا نعلم عنها، وهي التي ارتكبت مجزرة في بيسلان، واستخدمت الغازات القاتلة في المسرح من اجل تحرير الرهائن. أما الصين فان مجزرة ساحة " تيان ان من" ما زالت ماثلة للعيان، والانكى من ذلك ما قام به الجيش الصيني في منطقة تركستان الشرقية المسلمة التي يطلقون عليها اسم "شينغ يانغ"، في ظل صمت كامل وتغييب لوسائل الإعلام العالمية عما يحدث، وهو ما أغرى العقيد الليبي معمر القذافي بتبرير استخدامه للعنف ضد المحتجين في ليبيا بممارسات السلطات الروسية والصينية، واستحضر قصف الرئيس الروسي الأسبق بوريس يلستن للبرلمان تحت سمع العالم وبصره، كما استحضر سحق الدبابات الصينية للطلاب المحتجين في قلب بكين، واعتبر أن ما يقوم به يماثل تصرفات البلدين.وكأنه يمنح نفسه مشروعية القيام بالمثل.

روسيا دائما تدور مع مصالحها التي لا تتفق بالضرورة مع القيم الإنسانية، ويكفي ان نتذكر أن روسيا التي كانت تقود "الاتحاد السوفيتي السابق" كانت أول دولة في العالم تعترف بقيام "إسرائيل" على حساب الشعب الفلسطيني وأرضه غير عابئة بمعاناة وعذابات الفلسطينيين، وكانت الخزان البشري للهجرة اليهودية إلى فلسطين المحتلة، وهي الدولة التي احتلت أفغانستان المسلمة، وعاثت فيها فسادا وتخريبا وقتلا وتدميرا.

أما الصين فقد اكتفت بالجلوس في المقاعد الخلفية لحصد المكاسب من الصراعات المختلفة في العالم العربي لكنها بدأت بالانحياز لإسرائيل بشكل علني عندما رفض الوفد الصيني التوقيع على وثيقة مشتركة صينية -عربية تعتبر القدس الشرقية عاصمة للدولة الفلسطينية العتيدة خلال الدورة الرابعة للاجتماع الوزاري لمنتدى التعاون العربي الصيني والذي ضم وزراء الخارجية العرب، وتزامن هذا الرفض مع إعلان وزارة المالية الصينية عن منح إسرائيل الصين قرضا بمزايا تفضيلية بقيمة ٤٠٠ مليون دولار، مع التذكير ان الصين واسرائيل وقعتا بروتوكولا ماليا تعهدت بموجبه تل ابيب تقديم قرض بقيمة مليار دولار في منتصف التسعينيات لتمويل ١٩٠ مشروعا بلديا في ٢٩ مقاطعة ومنطقة من مناطق الحكم الذاتي.

طبعا من السخافة اعتبار الصين رهينة "حفنة من الدولارات"، وهي التي تتمتع بأعلى فائض في الميزان التجاري مع معظم دول العالم، إن لم يكن كلها، ولكن الصين تسير في اتجاه "جاذبية المصالح " وإسرائيل مصلحة تزودها بالتكنولوجيا الأمريكية مثل الطائرات بدون طيار أو غيرها من المنافع.

ومن هنا ليس غريبا على روسيا والصين تبني وجهة نظر النظام البعثي في سوريا، وغض الطرف عن محاصرة المدن وتجويعها وقطع الماء والكهرباء والاتصالات عنها ومنع الحليب من الوصول للأطفال، واستخدام المدافع والدبابات والمروحيات لقتل المتظاهرين المدنيين العزل وتشريد السوريين من وطنهم وتحويلهم إلى نازحين. وهو ما يمكن ان يصنف "بارهاب الدولة".

نعلم تماما ان روسيا والصين لا تعبئان بالشعب السوري او الامة العربية، وتستخدمان ما يجري في وطننا العربي ورقة مساومة مع الدول الغربية.. فهما تتنازلان في بلاد العرب للغرب، مقابل تنازل لروسيا في الشيشان واسيا الوسطى وتنازل للصين في شرق آسيا أو أفريقيا، ويلعبون بنا في غياب أي موقف عربي معتبر.

روسيا والصين جزء من اللاعبين الكبار في لعبة الأمم، وهما يحركان بيادقهما على رقعة الشطرنج الدولية دون اعتبارات قيميه، وللأسف الشديد فإننا نحن العرب، لسنا أكثر من بيادق على هذه الرقعة، فالدول الكبرى ومنها روسيا والصين والغرب، تلعب بشعوبنا مصالحنا

وحقوقنا وأرضنا ودمنا، ولهذا لا غرابة أن تنحاز موسكو وبكين إلى القاتل في سوريا ضد الشعب الذي يسفك دمه هناك.. وهو انحياز سيؤثر حتما في مستقبل العلاقات بين العرب وبين الصين وروسيا، فذاكرة الأمة العربية ليست مثقوبة، ولأول مرة نشاهد شعبا عربيا يحرق العلم الروسي في الشوارع كما حدث في سوريا.

على الصين وروسيا إدراك أن المستقبل للشعوب وليس للأنظمة الدكتاتورية الدموية، وان الشعوب ستنتصر مهما دفعت من ضريبة الدم، وتخطئان حتما إذا بنتا إستراتيجيتهما على فرضية انتصار أنظمة فاشلة مثل النظام السوري الذي هزم سياسيا وأخلاقيا وإنسانيا قبل أن يسقط فعلا بالضربة القاضية للشعب السوري، وعليها أن يدركا أن مصالحهما مع الشعوب العربية وليس مع الأنظمة الاستبدادية مثل نظام الأسد.

الأسد يجتث الشعب السوري

يشن رئيس النظام السوري بشار الأسد حربا شعواء ضد الشعب السوري باستخدام آلته العسكرية الدموية وشبيحته وفرقته الرابعة التي يقودها شقيقه ماهر، ويعلن الحرب على حماة ودير الزور والبوكمال ودرعا ودوما وتلكلخ والمعضمية وجسر الشغور ومعرة النعمان وغيرها من المدن السورية الثائرة.

نظام الأسد يريد إركاع الشعب السوري وإخضاعه وإعادته لبيت الطاعة من جديد، وعندما أيقن أن هذا الشعب التمرد عصي على الاستسلام قرر أن يجتثه ويستأصله في حرب إبادة حقيقية تتوفر فيها كل شروط الجرائم ضد الإنسانية وانتهاك حقوق الإنسان.

ينشر هذا النظام الدموي دبابات الموت والخراب في كل أرجاء سوريا ويحاصر المدن ويقطع الماء والكهرباء والغذاء والاتصالات ويحتل المدن بعساكره وشبيحته وقناصته الذين ينشرهم على أسطح المباني والمآذن، ويغلق المساجد ويصادر مفاتيحها ويخوف الناس من الصلاة ويعتقل الأئمة والعلماء والمثقفين والفنانين، ويرسل الطائرات إلى دير الزور، ليمارس "القتل على أصوله" و يحول سوريا كلها إلى حمام دم في حرب يائسة للبقاء في الحكم.

نظام بشار الأسد يخوض حربا عسكرية شاملة ضد الشعب السوري أمام العالم كله الذي يتواطئ بصمته معه على قتل السوريين، فهل تسمح الأخلاق والقيم ومعايير حقوق الإنسان والقانون الدولي والشرائع الأرضية والسماوية لنظام في العالم أن يحاصر المدن ويجوع أهلها المدنيين ويقتلهم وهم عزل يتظاهرون من اجل الحرية؟ وهل تسمح كل القيم والقوانين لنظام بشار الأسد أن يداهم مدينة حماة من جهاتها الأربعة بالدبابات ويحتلها ليحررها من أهلها؟ وهل تسمح القيم والشرائع والقوانين بقتل ١٤٠ مواطنا في يوم واحد وجرح واعتقال آلاف الأشخاص وتعذيبهم وترويعهم؟ وهل يسمح بتشريد شعب كامل من دياره؟

الحكومات العربية والغربية والإقليمية "تركيا وإيران" وروسيا والصين تتواطئ مع نظام بشار الأسد الدموي الذي يمارس إرهابا ممنهجا ضد الشعب السوري، فكل هذه الأنظمة

ترغب ببقاء هذه النظام الذي ثبت انه يخدم إسرائيل أكثر من أي نظام آخر في المنطقة، وهو ما عبر عنه رامي مخلوف رجل أعمال النظام وابن خال بشار الأسد عندما قال إن "سقوط نظام الأسد يهدد إسرائيل".. جميع الأطراف المتناقضة تجتمع على دعم نظام الأسد، إيران وإسرائيل، أمريكا وروسيا والصين وأوروبا، أما الحكومات العربية، فبعضها مستعد لإنقاذ رأس بشار الأسد رغم انه وصفهم ذات يوم أنهم "أشباه رجال".

النظام البعثي الطائفي في سوريا يريد أن "يطهر" سوريا من السوريين، الذين اعتبرهم "جراثيم"، ومن يشاهد صور مدينة حماة على الشاشات، لا يراها إلا مدينة يخيم فوقها الموت والحزن والرصاص والغمام الأسود والدخان، يموت الناس في الشوارع بسبب القصف العشوائي للدبابات ورصاص القناصة والشبيحة، ويعيد بشار الأسد الابن سيرة حافظ الأسد الأب الذي قتل في حماة ٤٠ ألفا من سكانها، وها هو ابنه، وارث مملكة الأسد في سوريا يجرب حظه في القتل والإبادة في هذه المدينة العصية على الإخضاع.

الشعب السوري بطل بكل ما في الكلمة من معنى ، لأنه يخوض صراعا سلميا مع واحد من أشرس الأنظمة الأمنية في العالم، ويواجه بالدم رصاص وقذائف هذا النظام الإرهابي الستاليني ، ويستحق الشعب السوري الحرية والعدالة والكرامة والتخلص من الظلم والاستعباد، وهو الشعب العربي الوحيد الذي ظلمت ثورته إعلاميا وسياسيا وترك وحيدا ليواجه نظاما امنيا دمويا، فهذا الشعب يصارع الآلة العسكرية للنظام والصمت العربي وتآمر أطراف عربية وغربية وإقليمية، ورغم ذلك فانه وحده من سيقرر مصير نظام الأسد رغم رغبة الجميع بالإبقاء عليه للحفاظ على التوازن الإقليمي الذي يضمن وجود إسرائيل واستمراريتها.

سينتصر الشعب السوري وستنتصر حماة ودير الزور ودرعا والبوكمال وجسر الشغور وتلكلخ، وسينتصر السوريون حتى لو تحالف العالم كله مع نظام الأسد الفاقد للشرعية والأهلية والغارق في الدم حتى الركب، فنكوص العرب والعالم عن دعم ثورة الشعب السوري ربما يؤجل سقوط نظام الأسد لمنه لن ينقذه بالتأكيد.

استباحة حماة من الوريد الى الوريد

يصر نظام بشار الاسد على استباحة مدينة حماة وقتلها من الوريد الى الوريد لاخضاعها وكسر شوكة اهلها، تماما كما فعل والده عام ١٩٨٢ عندما دمر المدينة على رؤوس اهلها وقتل ٤٠ الفا من سكانها في ٢٢ يوما، واليوم يعيد الابن ميراث ابيه، ويثبت انه وارث الدم وليس الحكم فقط.

يصر بشار الاسد على الحل الامني ويرسل الدبابات لتحاصر المدن وتقصفها، وهو ما حدث في حماة التي حاصرها وجوع اهلها وقطع عنها الكهرباء والاتصالات وقصفها بالدبابات والمدفعية اسبوعا كاملا قبل ان "يحتلها" وكانه يواجه عدوا مسلحا بالاسلحة الثقيلة، ثم يعلن "تحريرها" من اهلها، ويدخل جنوده رافعين الى ساحة العاصي معلنين النصر على الاعداء، ويهنئهم بشار الاسد بهذا النصر العظيم، في مفارقة "دموية"، فسكان حماة حسب النظام البعثي هم " عصابات مسلحة ارهابية" لا بد من تاديبهم بالمدافع، فكانت النتيجة ١٢٠ شهيدا في يوم واحد و٣٠٠ شهيد في ٦ ايام، وجرح العشرات واستباحة المنازل وتشريد الالاف من سكان حماة.

بشار الاسد اعتمد سياسة الارض المحروقة في حماة ودير الزور ودرعا ودوما وتلكلخ وحمص وغيرها من المدن وقرر "اجتياحها" بالدبابات واغراقها في بحر من الدم للبقاء في السلطة، ومصمم على عدم الاعتراف بالمطالب الشعبية التي تنادي برحيله ورحيل عائلته وحزبه وطائفته ونظامه من السلطة، وقرر الذهاب الى الحد الاقصى من العنف ضد الشعب لقمع ما يعتبره "تمردا" لعصابات لا يريد ان يستوعب انهم "الشعب السوري".

لكن القراءة المعاكسة لما يراه نظام الاسد هي ان مايقوم به ضد حماة والمدن السورية الاخرى انتحار ومؤشر على فقدان السيطرة، وان العنف مهما بلغت شراسته لن يستطيع ان "يقمع" مطالب الناس بالحرية والعدالة والكرامة، وانه لن يستطيع ان ينقذ النظام من الانهيار في النهاية.

هذا النظام يتدحرج نحو الهاوية داخليا وخارجيا، ففي الداخل فشل بطرح اي مقاربة اصلاحية قادرة على اقناع الشعب، وعمد الى الحديد والنار، واغلق باب الحوار لصالح الحل العسكري ولم يعد في الميادين سوى شعار واحد " الشعب يريد اسقاط النظام" و "الشعب يريد رحيل الرئيس"، اما خارجيا فان الغطاء الدولي لنظام بشار الاسد يتاكل يوما بعد يوم، فروسيا تراجعت خطوتين الى الوراء ورفعت غطائها جزئيا عندما وافقت على بيان مجلس الامن الذي ادان الحملة الدموية التي تشنها السلطات السورية على المتظاهرين السوريين، وذهب الرئيس الروسي ديمتري مدفيدف ابعد من ذلك عندما قال ان الاسد يخاطر بمواجهة "مصير حزين" اذا لم ينفذ اصلاحات عاجلة واقامة دولة حديثه"، ويبدو ان بشار الاسد في طريقه الى " نهاية حزينة" لانه يغلب استراتيجية "الكسر والاخضاع" على اي خيار اخر، وهذا ما دفع الادارة الامريكية الى تشديد موقفها واعتبار ان "الاسد فقد شرعيته وانه سبب عدم الاستقرار، وان سوريا ستكون افضل حالا بدونه" وسحبت ايطاليا سفيرها، رات بريطانيا ان "الاسد يعاني من عزلة متزايدة" واعتبرت ان المجتمع الدولي في "نقطة تحول" حيال ما يجري في سوريا، ووصف نائب رئيس الوزراء التركي ان هجوم القوات السورية على مدينة حماة "عمل وحشي"، وحدها الصين بين الدول الكبرى تلتزم الصمت حيال جرائم نظام الاسد وتقدم له دعما صامتا، وهذه السلسلة من المواقف تعني ان موقف الاسد الدولي يتدهور يوما بعد يوم، وانه لا يوجد ضمانه لرهان دائم على روسيا والصين.

اما موقف الحكومات العربية فهو "موقف مخز" وعلامة "عار" فارقة في التاريخ العربي الحديث، فجميع الحكومات العربية تلتزم الصمت على استباحة حماة وحمص ودير الزور، وسوريا باكلمها، ولا يخفي بعضها رغبته باخماد "التمرد" ووضع حد للثورات العربية التي اطاحت برئيسين وتهز عروش ثلاثة اخرين، فهم لا يريدون ان يتحول انتصار الثورة في سوريا الى مصدر الهام لشعوب عربية اخرى، تماما كما اراد نظام الاسد ان يمنع تحول حماة الى رمز ومصدر الهام لكل سوريا"، فاستباحتها وحول رمضانها الى شهر بنكهة الدم والبارود.

سوريا.. من دَق دُق

تضيق الأنشوطة يوما بعد يوم على رقبة نظام بشار الأسد، ويشتد الخناق عليه داخليا وخارجيا، فهذا النظام الذي اعتمد "الحل الدموي" لإخضاع الشعب السوري وإجباره على القبول بحكمه المستمر منذ نصف قرن، يخسر مواقعه يوما بعد يوما، فقد بدأت تقارير غربية تتحدث عن إجهاد يحيق بالجيش السوري الذي دخل في معركة مع الشعب ، فهذا الجيش المستنفر منذ ٦ أشهر يخوض حربا مرهقة ضد المدنيين الذين يفترض أن يقوم بحمايتهم، مما يعرض الجنود لإجهاد نفسي وأخلاقي وجسدي، مما قد يؤدي إلى انهيار الحالة المعنوية للجنود، وهذا ما يفسر انشقاق حوالي ٤٥٠٠ جندي من الجيش ووضع أكثر من ١٠٠ ضابط في السجن وقتل عدد من الجنود لرفضهم تنفيذ الأوامر بإطلاق الرصاص على المدنيين كما قال الجنود والضباط المنشقون في أفلامهم الموجودة على الانترنت، وهذا يعني أن الجيش سيشهد مزيدا الانشقاقات مع توسع دائرة الاحتجاجات والثورة في سوريا ومع ازدياد الزخم الجماهيري.

أما خارجيا فان النظام السوري يواجه مأزقا كبيرا بعد توالي المواقف الدولية والعربية المنددة بوحشية النظام السوري الذي يستخدم العنف المفرط ضد المتظاهرين السلميين، خاصة الموقف الروسي الذي كان يراهن عليه نظام الأسد للإفلات من العقاب الدولي، فموسكو تبتعد شيئا فشيئا عن حليفها القديم،بل حذر الرئيس الروسي ديمتري مدفيديف من أن "الوضع يأخذ منحى مأساويا وان عددا كبيرا من الأشخاص في سوريا وهذا يثير قلقا هائلا لدينا وان الأسد ينتظره "مصير حزين" في حال لم يطبق إصلاحات". لكن الموقف الذي قصم ظهر نظام الأسد هو الموقف السعودي، فقد طالب الملك عبد الله بن عبد العزيز بشار الأسد بوقف "آلة القتل وإراقة الدماء.."معتبرا ان" ما يحدث هناك ليس من الدين ولا من القيم والأخلاق لا تقبل به المملكة"وان "مستقبل سوريا بين خيارين لا ثالث لهما إما أن تختار بإرادتها الحكمة أو أن تنجرف إلى أعماق الفوضى والضياع". وعمدت الرياض إلى سحب

سفيرها سفيرها من دمشق وهي نفس الخطوة التي اتخذتها الكويت والبحرين وقبلهم بالطبع قطر، الأمر الذي يمهد الطريق أمام دول عربية وإسلامية أخرى لسحب سفرائها من دمشق،مما يعني بداية تقويض شرعية الاعتراف العربي والدولي بالنظام البعثي السوري، وفي المواقف الدولية تبرز مواقف المانيا وفرنسا وأمريكا التي قالت" أن نظام الأسد فقد شرعيته وان وجود الأسد في سدة السلطة عامل عدم استقرار"، وذهبت الإدارة الأمريكية إلى القول "إن سوريا ستكون أفضل حالا بدون الأسد"، وطالب الأمين العام للأمم المتحدة الأسد "بوقف استخدام القوة العسكرية ضد المدنين" ودعت وزير الخارجية الأمريكية إلى "إعادة الجيش السوري إلى ثكناته"، وصعدت تركيا من لجهتها ضد النظام السوري ووصفت الهجمات العسكرية على حماة والمدة السورية بالوحشية وأعلن رئيس الوزراء التركي إيفاد وزير خارجيته إلى دمشق حاملا "رسالة حازمة" يحث فيها بشار الأسد على وقف إراقة الدماء.

كل هذا في الوقت الذي يدافع فيه الأسد عم جرائم قواته ضد المدنيين بقوله إن قواته تقوم بعمل وطني "بالتعامل مع الخارجين عن القانون من أصحاب السوابق والمخربين المسلحين"، فالأسد لا يرى الشعب السوري الرافض لحكمه وحكم حزبه الدكتاتوري أكثر من زمرة مخربة خارجة على القانون بعد أن وصفهم بالجرائيم سابقا.

لا يوجد أمام النظام البعثي الذي تقوده عائلة الأسد وأجهزتهم الأمنية الكثير من الخيارات، فقد منحهم العالم والحكام العرب ٦ أشهر للقضاء على الثورة، واغفل الإعلام كل الجرائم التي ارتكبها في البداية، لكن رائحة الدم في سوريا أصبحت أقوى من أن يتم تجاهلها، وعدد القتلى والجرحى والمعتقلين والمشردين اكبر من غض الطرف عنهم، وأصر الشعب السوري أن يسمع العالم هتافه " الشعب يريد إسقاط النظام" و "الشعب يريد الحرية"، ولهذا فان البساط يسحب بقوة من تحت أقدام بشار الأسد وعائلته وحزبه وأجهزته الأمنية، وهو سقط نظريا ولم يبق سوى أن يسقط عمليا، وهو الأمر الذي أصبح قريب المنال، وكما قال رئيس الوزراء التركي أردوغان إن "من دَق دُق".. فالأسد دق المدن والأبرياء، والشعب السوري سيدق النظام لا محالة.

الأسد.. دقت ساعة الرحيل

انتقل نظام بشار الأسد في سوريا من "مغامرة الحسم إلى مقامرة الدم" بتغليبه الحل العسكري الدموي ضد الإرادة الشعبية المصممة على إسقاط نظامه، ودخل إلى المرحلة النهائية متخطيا المغامرة محسوبة المخاطر إلى المقامرة الاقصائية التي يعبر عنها الشعار " الأسد أو لا احد"، مما افقد نظام البعث السوري الشرعية، التي لا يمتلكها أصلا، وادخله في حالة من الموت السياسي، عبر عنه رئيس الوزراء التركي رجب اردوغان بقوله انه وجه للأسد رسالة قوية دعاه فيها الى "الكف عن إراقة الدماء الناجم عن عملية القمع الوحشية للاحتجاجات المطالبة بالديمقراطية" وذهبت مجموعة الأزمات الدولية إلى التأكيد ان النظام السوري "وصل في أعمال العنف إلى مستوى يجعل من الصعب على أي طرف أن يبقى صامتا حيال ما يجري وان العالم بدأ يشعر باليأس من هذا النظام". ووافقه على ذلك مدير معهد كارنيغي لدراسات الشرق الأوسط بول سالم الذي رأى نظام الأسد يترنح وانه "نظام سيسقط، ولكن يصعب التكهن متى وكيف"، وهذا يعني أن "الفرص بدأت تتضاءل أمام نظام الأسد.. وان الوضع يتجه نحو انهيار دراماتيكي، من الصعب معرفة توقيته وظروفه"، وان لحظة الانهيار هذه قد تأتي في أي لحظة، ولم يستبعد بول سالم" انقلاب مؤيدي النظام السوري في الداخل عليه مما قد يشكل نقطة التحول في مسار الأحداث". وان"العلويين والجيش والأجهزة الأمنية وتجار دمشق وحلب" سيكون لهم دورا حاسما في مسار الأحداث.

صحيح أن النظام السوري يعاني من عزلة دولية بعد تزداد يوما بعد يوم مع ازدياد الضغوط من كل حدب وصوب، حتى من اقرب حلفائه مثل روسيا، إلا انه لا يظهر أي تراجع في موقفه فقد أعلن الأسد بعد اجتماعه بوزير الخارجية التركي "انه لن يتهاون بملاحقة المجموعات الإرهابية المسلحة"، وهو بهذا يختار الحل العسكري المسربل بالدم والقتل ويدير ظهره للعالم ويرفض مطالب وقف آلة القتل التي تحصد المدنيين. ولا يظهر أي بادرة تدل

على التخلي عن الحكم وإفساح المجال للشعب السوري ليقرر من يحكمه، لكن هذا الصمود في وجه الضغوط يعتريه عوامل ضعف كثيرة بدأت تظهر على بنية النظام مثل تغيير وزير الدفاع والتجييش الطائفي والتوسع في استخدام مليشيات الشبيحة.

ولكن كم يستطيع النظام السوري أن يصمد في مواجهة المد الشعبي؟ وهل يستطيع الجيش البقاء في حالة استنفار دائم؟ وهل يستطيع الاقتصاد السوري تحمل استمرار هذا الوضع؟

المؤكد هو أن النظام البعثي لن يستطيع تحمل حالة الشلل للاقتصاد السوري، مما د يعني انضمام شرائح جديدة من "المحايدين" للاحتجاجات وفي مقدمته التجار في دمشق وحلب، الذين يستطيعون إحداث نوع من التحول الحقيقي في ميزان القوى ضد النظام.

في مقابل شعار "الأسد أو لا احد"، يرفع الشعب السوري شعار "الشعب يريد إسقاط النظام"، فالسوريون يريدون رحيل هذا النظام وقد يكون هذا الرحيل انهيارا مفاجئا وسريعا قد يؤدي لدخول سوريا في نفق مظلم، كما يمكن أن يكون حلا متدرجا يبدأ من وقف القتل العسكرية الدموية للنظام وسحب الدبابات من المدن ورفع الحصار عنها والإفراج عن كل المعتقلين السياسيين وإقالة الحكومة وحل البرلمان وإلغاء المادة الثامنة من الدستور وتشكيل حكومة وحدة وطنية من جميع القوى السياسية تشرف على تشكيل هيئة تأسيسية لوضع دستور مؤقت وقانونين مؤقتين للأحزاب والانتخاب لانتخاب برلمان جديد ومن ثم تشكيل حكومة منتخبة تشرف على إعداد دستور دائم وقوانين دائمة وبناء مؤسسات جديدة

هذا هو السبيل الوحيد لإنقاذ سوريا من الحرب الأهلية والفوضى، فسوريا وصلت مرحلة اللاعودة كما قال وزير الخارجية المصري، "والحكومة التركية ستراقب الأحداث في سوريا على مدى الأيام القادمة".كما قال وزير الخارجية التركي داود أوغلو الذي تأمل بلاده انتقال سلمي للسلطة في سوريا يؤدي إلى ان يقرر الشعب السوري مصيره بنفسه، إلا أن الإدارة الأمريكية ترى أن الأسد "لا يبدو انه يستمع لصوت المجتمع الدولي الذي يزداد علوا".. ويبقى القول ساعة الرحيل دقت وان نظام الأسد راحل لا محالة ولكن هذا الرحيل يمكن ان يكون مكلفا جدا الخسائر المادية والبشرية والدم والأرواح إذا بقي مصرا على التمسك بحكم السوريين رغم رفضهم لحكمه.

الأسد أو لا أحد

نجح النظم البعثي في سوريا بتسويق الضرورة المحلية والاقليمية والدولية لوجوده، ولطالما لعب ادوارا محورية " معقدة ومتشابكة ومتناقضة" في المنطقة امنت له حضورا قويا دائما، وهي ادوار تعامل معها بذكاء سياسي كبير مكنه من اطالة عمره وتوفير مظلة امان اقليمي ودولي لوجوده.

نظام الاسد امسك بالملف اللبناني وجزءا من الملف الفلسطيني والملف العراقي، فقد وظف اوراقه اللبنانية ببراعة منقطعة النظير، ولم يكن يتوانى عن تبديل حلفائه والانتقال من النقيض الى النقيض، وكثيرا ما كان ينتقل من ضفة الى اخرى حسب ما تقتضيه مصلحته الاقليمية والدولية، الى ان انتهى به المطاف الى الدخول في شراكة استراتيجية مع حزب الله وحلفائه على الساحة اللبنانية، وبفضل هذه التحالفات تمكن نظام الاسد من تحسين مواقعه مع اسرائيل عبر دعم لحزب الله للتناوش مع اسرائيل او خوض "معارك تحريك" لتسخين الاوراق على طاولة المفاضات.

كما لعب بالورقة العراقية بمنتهى الانتهازية، وتحالف مع الولايات المتحدة الامريكية في حرب الخليج الاولى ضد الجناح الاخر من حزب البعث، وشارك بقواته في الحرب ضد نظام صدام حسين، مما خفف الضغط عنه ووفر له ملاءة مالية ساعدته في توطيد حكمه، واستثمر حرب الخليج الثانية التي اطاحت بحكم البعث العراقي كليا عبر اتخاذ موقف المؤيد سرا والمعارض علنا، لكن هذا الموقف لم يوفر له الطمانينة بعدم استهدافه، فعمد الى استثمار الوضع في العراق من خلال السماح بدخول المقاتلين عبر اراضيه وغض الطرف عن تدفق المسلحين العرب لمقارعة القوات الامريكية بما في ذلك مقاتلي القاعدة، واستضاف عدد من المعارضين العراقيين، مما دفع الامريكيين الى الاقتناع بضرورة الجلوس مع "نظام الاسد" الى طاولة واحدة للتعاون في المجالات الممكنة، خاصة الامنية والاستخباراتية، وهو التعاون الذي اشادت به علنا وزيرة الخارجية الامريكية السابقة كوندوليزا رايس.

والى الشمال لعب ورقة "حزب العمال الكردستاني" مع تركيا، الا انقرة التي امسكت بمفاتيح المصادر المائية التي تحتاجها سوريا، وكشرت عن انيابها، اقنعت النظام البعثي السوري بعبث اللعب من تركيا، مما ادى الى تجميد الدعم لحزب العمال ومن ثم القبض زعيم الحزب عبد الله اوجلان.

والى الجنوب لعب نظام الاسد بالورقة الفلسطينية عبر استضافة بعض الفصائل الفلسطينية مثل حماس والجهاد والجبهة الشعبية والجبهة الديمقراطية او حتى صناعة "فصائل فلسطينية" مثل الجبهة الشعبية -القيادة العامة- وغيرها، واستطاع ان يوظف العلاقة مع هذه الفصائل لتوفير "غطاء شعبي" يضفي علي شرعية ثورية وقومية ويمنحه الفرصة للحصول على لقب " نظام المقاومة والممانعة"، رغم عدم اطلاق طلقة واحدة من الجولان السوري المحتل على اسرائيل.

الا ان اهم ورقة لعبها النظام البعثي بقيادة الاسد، هي الشراكة الاستراتيجية مع ايران، التي وفرت له حليفا قويا، يتمتع بقدرات عسكرية وبشرية ومادية كبيرة، مكنته من فرض نفوذه في لبنان من خلال حزب الله وامتلاك جزء مهم من الورقة الفلسطينية، خاصة في غزة التي تحكمها حماس، ويقيم رئيس مكتبها السياسي في دمشق.

كل هذه الاوراق اتاحت لنظام الاسد الامساك بمفاتيح اللعبة في المنطقة عندما صك شعار " نظام "المقاومة" ثم "لا سلام بدون سوريا" في مرحلة ما بعد مفاوضات اوسلو، وبعد ذلك الانتقال الى "الممانعة"، واخيرا شعار" بقاء الاسد ضرورة اقليمية ودولية" والذي ترجم بعبارة " الاسد او لا احد" في مرحلة الانتفاضة الشعبية السورية التي تطالب برحيله. وهو شعار يهدف الى تسويق الضرورة الوجودية له داخليا بوصفه صمام امان يسيطر على الامور، وانه لا يوجد بديل يمكن ان يحل مكانه في سوريا، ويسوقه اقليميا ودوليا بوصفه ضابط ايقاع لقواعد اللعبة التي توفر الاستقرار لاسرائيل والمصالح الغربية في المنطقة، والمتحكم "بالمقاومة" في لبنان وفلسطين والعراق، وبهذا يكون نظام الاسد "ممانع" يضبط ايقاع "المقاومة" لصالح استقرار المنطقة واسرائيل، وهذا بالضبط ما منع الولايات المتحدة واوروبا على عدم الاستعجال بنزع الشرعية عنه.

تحذير الأسد من اللف والدوران

أحسن رئيس الوزراء القطري صنعا حين وضع النقاط على الحروف في حديثه عن خطورة الوضع في سوريا بقوله " إن المنطقة الآن كلها معرضة إلى عاصفة كبيرة ومن المهم أن يعرف القادة العرب كيفية التعامل معها ليس بالاحتيال أو باللف أو الدوران وإنما بالإصلاح الجاد الذي يخدم الشعوب". في معرض رده على سؤال يتعلق بتصريحات الرئيس السوري بشار الأسد والذي قال فيها ان اي تدخل غربي في سوريا سيزلزل المنطقة ويحرقها.

تصريحات رئيس الوزراء الشيخ حمد بن جاسم آل ثاني واضحة لا لبس فيها، وهي وان كانت عامة وغير مباشرة، إلا أنها تحذير موجه مباشرة للرئيس السوري بالكف عن اللف والدوران والاحتيال، وهي مصطلحات قوية جدا تعبر عن ان الوقت ينفذ أمام نظام بشار الأسد، وان العالم ينتظر القرارات التي ستتخذها الجامعة العربية، وهذا يعني بكل بساطة ان "على النظام البعثي السوري أن يفهم انه لا مجال للمناورة وإضاعة الوقت" لان المنطقة معرضة لعاصفة كبيرة.

نظام الأسد "الاب والابن" يتقن سياسة "البيضات المنتفخة"، التي تقوم على دفع المحاور للجلوس ساعات طويلة وإرهاقه في تفاصيل صغيرة ومتشعبة ومتشابكة، وهي سياسة طبقها مع الأمريكيين، ويبدو أن نظام الأسد الابن يحاول أن يطبق نفس الأسلوب "لنفخ بيضات" الجامعة العربية، وهنا أيضا كان التدخل الجراحي الناجح للشيخ حمد بن جاسم عندما أكد أن وفد جامعة الدول العربية توصل إلى ورقة جدية مع الوفد السوري الورقة "لوقف كل أعمال العنف والقتل في سوريا.. وانه سيتم الكشف عن مضمون الورقة بعد الحصول على رد الحكومة السورية بنعم او لا .. وان الأهم هو تنفيذ الورقة"، وهذا يعني نهاية عصر "نفخ البيضات للنظام السوري" وان المطلوب هو "الموافقة" على الورقة التي تضمن "تلبية مطالب الشعب السوري وتعيد الاستقرار إلى سوريا"، وانه لا يوجد سوى خيار واحد أمام الأسد ألا وهو "الموافقة"، وغير ذلك فان الاحتمالات مفتوحة. وما تسرب من الورقة حسب هو "سحب

الدبابات والآليات العسكرية من شوارع المدن والقرى، والكف عن ممارسة العنف وسفك الدماء، والجلوس مع المعارضة للحوار في القاهرة". وهي مطالب ليست معقدة ولا تتضمن المطالبة برحيل النظام السوري.

يعلم نظام بشار الأسد ان الخيارات المتاحة أمامة ضيقة، وان اعتماده على الموقفين، الروسي والصيني، هو خيار خطر، لان روسيا والصين لن تقفا إلى جانبه إذا قرر أغلبية العرب اتخاذ موقف ضده، فمصالح روسيا والصين مع الدول العربية الأخرى، وخاصة دول الخليج الغنية، اكبر بكثير من المصالح التي تربطها بسوريا، حتى وان قدم النظام السوري إغراءات ما لروسيا الطامحة لإيجاد موطئ قدم في العالم العربي، أما الصين فمعروف أن موقفها عرضة "للبيع والشراء والمساومة"، فهي تتصرف بعقل التاجر الجشع الذي يرغب بتصريف بضائعه، وشحن حاوياته إلى المنطقة، وبالتأكيد فان قدرة دول الخليج العربي على استقبال الحاويات الصينية اكبر بكثير من قدرة سوريا.

حقيقة الأمر انه لا يبقى إلى جانب النظام السوري إلا إيران، التي تعاني من مشاكل داخلية كبيرة، وحزب الله المتحفز والمستنفر لفقدان حليفه الرئيسي، وربما النظامين في اليمن والجزائر، وهو تحالف هش، وإذا أضفنا إلى هؤلاء "إسرائيل" غير الراغبة في تهاوي نظام الأسد، لأنه حسب مدير مخابراتها السابق "لا بديل عن الأسد إلا الأسد"، فان تهديدات الأسد بحرق المنطقة وزلزلتها تبدو جوفاء، فالخيارات المتاحة أمام الأسد، هي إشعال حرب مع إسرائيل في الجولان، وهذا غير وارد لان الجيش منهك لانشغاله في قمع الثورة، أو دفع حزب الله لإشعال معركة مع إسرائيل، وهذا الخيار قد يفجر لبنان كله ويشعل حربا داخلية، والأمر الأخير محاولة إثارة القلاقل في دول الخليج العربية بالتعاون مع إيران، وهذا خيار خاسر، فقد اظهر التدخل السعودي- الخليجي في البحرين، أن هذه الدول مستعدة للذهاب إلى الحد الأقصى دفاعا عن استقرارها.

الخيار الوحيد المتاح أمام نظام الأسد، هو "الرحيل المنظم"، والانسحاب من المشهد بطريقة تقلل التكاليف البشرية والاقتصادية والمالية، لان الشعب السوري الذي يرفع شعار "الشعب يريد إسقاط النظام" لن يقبل بأقل من رحيل النظام، وهو سيرحل لا محالة.. سيرحل بهدوء من خلال مظلة عربية، أو سيرحل على طريقة معمر القذافي، وفي كلتا الحالتين سيرحل، فالمعارضة السورية أعلنت موقفها أن الحوار الوحيد الذي تقبله "تسليم السلطة للشعب" وانه لا حوار حول أي بند آخر.

لا تمهلوا نظام الأسد

ببساطة على جامعة الدول العربية ومجلس الأمن والأمم المتحدة إعلان النظام العبثي في سوريا "نظاما خارجا على القانون"، ومعاملة قيادات هذا النظام بوصفهم "أمراء حرب"، وتقديمهم لمحكمة الجنايات الدولية لمحاكمتهم بتهم ارتكاب جرائم ضد الإنسانية، وجرائم إبادة جماعية.

فنظام الأسد يستبيح المدن والقرى ويعيث فيه فسادا وقتلا واعتقالا، لا يردعه رادع، ولا يقف عند أي حد، ومنح المهل المتتالية ليس أكثر من منحه "رخصة للقتل"، وهذا ما يقوم به فعلا.

هذا النظام الدموي قتل في يوم عيد الأضحى ٢٢ سوريا من الأبرياء، وبدل أن يضحي بالخراف، ضحى بالشعب الذي يطالب بحريته، وتقرب إلى "كرسي السلطة" بسفك دماء الأبرياء، وقصف مدينة حمص أسبوعا كاملا وقطع عنها الماء والغذاء والدواء، وقصفها بالدبابات والمدفعية والطائرات الحربية، ثم استباحها بعد ذلك بقواته وشبيحته ومليشياته.

مدينة حمص السورية الثائرة، تشبه مدينة مصراتة الليبية التي كسرت القذافي، وكانت سببا في سقوط حكمه وقتله بعد ذلك، بل إن ثوار مصراتة هم الذين القوا القبض على القذافي وقتلوه، وربما لا يرغب بشار الأسد ونظامه البعثي تكرار انتصار مصراتة في حمص، لتصبح حمص هي النسخة السورية، لمصراتة التي كسرات قوات العقيد وكتائبه إلى الأبد.

النظام البعثي بزعامة بشار وماهر الأسد قرر أن يخوض الحرب حتى النهاية دفاعا عن سلطتهم التي يحتكرونها منذ ٤٠ عاما بعد أن أورثهم إياها والدهم رغم انف الشعب السوري، ولهذا يقصفون المدن السورية براجمات الصواريخ والأسلحة الثقيلة.

ومن هنا فان أي حوار مع النظام البعثي السوري هو ضرب من العبث، وإضاعة الوقت وهدر للدماء السورية الزكية، التي تسفك في الشوارع، فهذا النظام حدد خياره بمواجهة الشعب وقتاله حتى النهاية.

لا بد من عزل هذا النظام عربيا ودوليا، وتجميد عضوية سوريا في جامعة الدول العربية، ودفع مجلس الأمن لاتخاذ قرارات حاسمة لوقف مجازره، فهذا النظام البعثي يجيد الألعاب البهلوانية السياسية، والمناورة، وإقناع الإطراف المختلفة بأدواره المهمة وتسويق نفسه على انه " صانع التوازن الاستراتيجي و حامي الأمن الإسرائيلي ومانع الصواعق والزلازل والحرائق في المنطقة" وهو ما عبر عنه بشار الأسد عندما قال إن أي تدخل في سوريا سيزلزل المنطقة ويحرقها.

على الدول العربية، وتحديدا الدول الخليجية وفي مقدمتها قطر، لأنها المنظومة العربية الفاعلة التي تقود قاطرة العمل العربي حاليا، أن ترفع الغطاء عن النظام البعثي في سوريا، وان تضع روسيا والصين وإيران أمام الامتحان الحقيقي، وتعرية مواقفها أمام المجتمع العربي والدولي، وإجبارها على رفع الغطاء لا يتمتع بأي أهلية ولا شرعية محلية أو عربية، فرفع الغطاء العربي عن هذا النظام الدموي في سوريا، يعني رفع الشرعية عنه، وتحويله إلى نظام مارق.

إمهال الأسد ونظامه مزيدا من الوقت لا يعني إلا مزيدا من الجثث السورية البريئة والمزيد من الدمار والخراب، ولا يعني إلا تحول سوريا إلى ساحة حرب بين نارين واحدة مشتعلة في العراق وأخرى كامنة في لبنان، مما يعني أن هلال "خط النار" سيبدأ من البصرة لينتهي باللاذقية وتلكلخ، وربما يمتد إلى الحدود اللبنانية الفلسطينية، إذا ما أقدمت إيران على تحريك أدواتها في المنطقة لتخفيف الضغط عن النظام السوري.

كل الاحتمالات مفتوحة، والنار إذا استعرت فان إخماد لهيبها سيكون صعبا، ومن الأفضل التضحية بنظام بشار الأسد، على أن تشتعل المنطقة كلها، وهو خيار اقل كلفة من خيار الدمار الشامل.

سقوط نظام الأسد هو الحل

لا يتقن النظام البعثي في سوريا شيئا اكثر من اللف والدوران والاحتيال وخلط الأوراق وإضاعة الوقت والتسويف وصناعة الشقاق واللعب في الفراغات والزوايا المعتمة.

ففي القوت أعلن فيه نظام الأسد قبوله بالمبادرة العربية بدون شروط، استمر بقصف المدن وسفك الدماء وقتل الأبرياء، وصعد وتيرة ما يقوم به من عنف دموي إلى مستويات قياسية إلى الدرجة التي طالبت فيها المعارضة السورية إعلان حمص "مدينة منكوبة" بسبب ما تتعرض له من حصار وقصف بالأسلحة الثقيلة، واجتياح القوات العسكرية والأمنية ومليشيات حزب البعث والشبيحة للأحياء السكنية وقتل الناس بدم بارد، وهو ما دفع جامعة الدول العربية إلى اتهام نظام الأسد بعدم الالتزام بتعهداتها التي وافقت عليها بشان وقف العنف وقتل المدنيين وسحب الآليات العسكرية من المدن والحوار مع المعارضة في القاهرة، الا ان المجلس الوطني السوري الذي يمثل غالبية تيارات المعارضة رفض الحوار مع النظام البعثي، وقال رئيسه برهان غليون: " لن نتفاوض على دماء الضحايا والشهداء"، وتقدم بطلب رسمي إلى "جامعة الدول العربية والأمم المتحدة لحماية المدنيين في سوريا"، وذهبت فرنسا إلى مدى ابعد عندما قال وزير خارجيتها ألآن جوبيه ان "المبادرة العربية لحل الأزمة في سوريا ماتت وانه لا يمكن الوثوق ببشار الأسد"، واهم من هذا هي هتافات المتظاهرين في شوارع المدن السورية الذين يطالبون بسقوط النظام ولا يقبلون الحوار معه.

النظام البعثي في سوريا لا يمكن ان يكون جزءا من حل المشكلة لأنه هو المشكلة وبالتالي فان الحل الوحيد هو سقوط هذا النظام ورحيله، وتحويل مرتكبي الجرائم ضد الشعب إلى محكمة الجنايات الدولية لمحاكمتهم بتهم ارتكاب جرائم ضد الإنسانية وقتل المدنيين والأبرياء، واختطاف المعارضين داخل سوريا وخارجها كما حدث في لبنان، حيث تم اختطاف ١٣ معارضا سوري، وأكد المدير العام لقوى الأمن الداخلي اللبناني اللواء اشرف ريفي

تورط السفارة السورية في بيروت بخطف شبلي العيسمي وثلاثة أو أربعة أشقاء سوريين من آل جاسم في الشهور الماضية" والى جانب عمليات الاختطاف ارتكاب عمليات تعذيب ضد المعتقلين في السجون السورية الذين ينفذون إضرابا مفتوحا عن الطعام احتجاجا على عدم تنفيذ الوعود الكاذبة من السلطات السورية بالإفراج عنهم."

الورقة الأخيرة التي يحاول نظام الأسد أن يلعبها، بعدما جرب العنف والقتل والكذب والاحتيال وتسويق دوره إقليميا والتهديد بإشعال المنطقة كما قال زعيم النظام بشار الأسد، هي ورقة صناعة معارضة وتسويقها للعالم على أنها تمثل الشارع السوري، وهي معارضة احترف حافظ الأسد صناعتها مثل ما يسمى بالجبهة الوطنية وغيرها من الأسماء الفارغة التي لا تعني أكثر من غطاء لحكم الفرد والأسرة التي تحولت إلى "عصابة" تتحكم بالشعب السوري.

هذه المعارضة المصنوعة هي الأكثر خطرا حاليا، ولا بد من التنبه إلى الدور الذي تقوم به، لان عملها يتركز على التشويش وتضييع البوصلة الشعبية في سوريا والتمويه وإرباك العرب والعالم، وهي لعبة قديمة ومكشوفة، وهي ما كشفته المعارضة السورية مروة حسان الغميان، التي كشفت عن وجود "معارضين سوريين" من صناعة أجهزة المخابرات السورية.

لا نريد ان نسمي أسماء هؤلاء المعارضين المصنوعين الآن، حتى لا ندخل في سجالات شخصية تشغلنا عن الهدف الرئيسي ألا وهو تحقيق مطلب الشعب السوري الوحيد وهو إسقاط نظام الأسد ومحاكمة أركانه على جرائمهم.

جامعة الدول العربية تضيع الوقت إذا اعتقد القائمون عليها انه يمكن حل الأزمة في سوريا بدون رحيل النظام، ويساهمون بمنح بشار الأسد وقواته وشبيحته مزيدا من الوقت لقتل المزيد من السوريين، وعلى جامعة الدول العربية ومجلسها الوزاري أن يكون شجاعا، وان يعلق عضوية سوريا في الجامعة، وان يعلن النظام البعثي نظاما غير شرعي، مثلما فعل مع القذافي. وعندها لن تجد روسيا والصين مفرا من الانصياع للرغبة العربية، فهما لا تستطيعان أن تزاودا على الأمة العربية، وعندها سيتحول الملف إلى مجلس الأمن لتشديد الخناق على نظام الأسد لإسقاطه، سياسيا أو عسكريا، فجرائم نظام الأسد لا تقل بشاعة عن جرائم القذافي، وإذا كانت الحرب ضد القذافي ونظامه عادلة، فان الحرب ضد الأسد ونظامه الدموي ستكون عادلة وضرورية ولازمة أيضا لإنقاذ الشعب السوري من آلة الموت الأسدية البعثية التي حصدت حتى الآن ما يزيد من ٣٥٠٠ شهيدا وآلاف الجرحى.

حزب الله والحرب المتدحرجة

"الحرب على إيران وسوريا لن تبقيا في إيران أو في سورية إنما ستتدحرج هذه الحرب على مستوى المنطقة بأكملها وهذه حسابات واقعية وهذا هو واقع الحال". هذا التحذير أو التهديد أطلقه حسن نصر الله الأمين العام لحزب الله ، يضع بعض النقاط على الحروف فيما يتعلق بمستقبل الحرب والسلام في المنطقة، و إذا ما ربطنا هذه التصريحات بما قالة رئيس النظام السوري بشار الأسد من أن أي تدخل في سوريا سيزلزل المنطقة ويحرقها، فإننا نخلص إلى وجود حلف "إيراني مع نظام الأسد وحزب الله" مستعد لإشعال حرب في المنطقة دفاعا عن وجود النظام البعثي في سوريا.

حزب الله انحاز تماما ضد الشعب السوري وتطلعاته بالحرية والخلاص من النظام المستبد، وذهب خطوة ابعد من ذلك بتهديد زعيمه حسن نصر الله بدحرجة الحرب في المنطقة كلها، وإذا ما أخذنا هذه التصريحات على محمل الجد، فان ذلك يعني إمكانية إشعال حرب ضد إسرائيل، لجرها إلى حرب في لبنان من اجل "خلط" الأوراق في المنطقة، لتخفيف الضغط عن النظام السوري وإيران.

هذا السيناريو يعني أن حزب الله سيقود المنطقة إلى "حافة الهاوية" بإشعال حرب مع إسرائيل، يمكن أن تتحول إلى حرب داخلية في لبنان بل وإقليمية أيضا، وإذا وضعنا في الاعتبار إمكانية تلقي حزب الله دعما عسكريا أو لوجستيا من النظام السوري، فان هذا الأمر يفتح الباب أمام "دحرجة الحرب" إلى سوريا، وبما أن الجيش السوري منهك من "حربه الداخلية ضد الشعب"، فان هناك إمكانية لتدخل إيراني غير مباشر في المرحلة الأولى عن طريق تحريك "أدواتها القوية في العراق" لدعم النظام السوري في حربه الداخلية ضد الشعب السوري، لخوض حرب محتملة مع إسرائيل، أو ربما تتدخل إيران مباشرة بالحرب عن طريق إشعال الوضع في الخليج العربي، مما يعني اندلاع حرب شاملة.

هذا السيناريو ليس ضربا من الخيال، وهو ممكن لتخفيف الضغط عن النظام السوري، وجلب إسرائيل إلى قلب الصراع وتوريطها في حرب ربما تكون "الحرب الإقليمية الكبرى" في العالم العربي.

لا ندري كيف سيتصرف حلفاء إيران الفلسطينيين مثل حماس والجهاد الإسلامي، وهل ستقدم حماس على شن حرب ضد إسرائيل من الجنوب مساندة لجبهة الشمال التي سيشعلها حزب الله؟ الإمكانية واردة، لان هذه اللحظة إيران لن تقبل من حماس والجهاد أن تقفا على الحياد في هذه الحرب المصيرية، مما سيضع التنظيمين في ورطة كبيرة، إما الاشتراك في الحرب أو فقدان الدعم الإيراني إلى الابد.

وهل يمكن أن تتوسع الحرب أكثر لتشمل تركيا ودولا عربية والقوى الأمريكية والاوروبية؟، وما هو رد فعل روسيا والصين وهل ستقفان على الحياد، أم أن الجميع سيتوصلون إلى "صفقة"، يربح فيها النظام السوري وحزب الله وإيران، لان الغرب غير مستعد لخوض حرب جديدة، خاصة مع الأزمة الاقتصادية الخانقة التي تعصف بأوروبا وأمريكا؟ أم أن إشعال الحرب سيكون المنقذ للاقتصاديات الغربية الغارقة؟، على اعتبار أن الفلسفة الرأسمالية تقوم على فكرة الصراع وان الحروب هي محرك التنمية الاقتصادية.

إذا وضعنا في الاعتبار ان الشعب السوري لن يتراجع عن مطالبه بإسقاط النظام البعثي، وان هذا النظام سيمارس أقسى درجات العنف ضد الشعب الثائر، وسيرتكب المزيد من الجرائم ضد الأبرياء، مع عدم قدرة العرب والمجتمع الدولي على السكوت على هذا الوضع، وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار أيضا انهيار الاقتصاد السوري، مما سيدفع النظام هناك زيادة وتيرة العنف فان العالم سيجد نفسه أمام خيار واحد هو التدخل في سوريا لوضع حد لإبادة الشعب السوري.

السؤال الكبير هو ما موقف الأنظمة العربية؟ وهل ستقف متفرجة على ما يجري في سوريا؟ وهل ستؤيد تدخلا دوليا في سوريا؟ وماذا لو شن حزب الله هجوما على إسرائيل؟ وماذا لو صعدت إيران في العراق؟ ماذا ستفعل إذا أشعلت ايران الحرب في منطقة الخليج العربي؟

هذه الأسئلة تتعلق ب"سيناريو يوم القيامة"، وعلى الأنظمة العربية، خاصة في الخليجية الاستعداد العملي للتعامل مع استحقاقاتها على الأرض، وهي مطالبة بالتحرك السريع على عدة مستويات، قبل أن يتم إبرام "صفقة" يدفع العرب ثمنها، وان تدرك أنها يجب أن تدافع عن نفسها، لان الغرب لا يمكن الوثوق به كليا، وهو يدافع عن مصالحه وليس أصدقائه، وإذا كانت المصالح مع إيران فسيبيع "كل الأصدقاء العرب " بثلاثين من الفضة.

الأسد على حد السكين

رفض دول مجلس التعاون الخليجي عقد قمة عربية طلبتها سوريا لبحث الأزمة في سوريا، ومطالبة العاهل الأردني الملك عبد الله الثاني رئيس النظام السوري بشار الأسد بالتنحي، وتصاعد ضغط تركيا التي اعتبر رئيس وزرائها أن نظام الأسد " على حد السكين عند حافة الهاوية"، وهدد وزير خارجيته احمد داود أوغلو أن "النظام السوري سيدفع ثمنا باهظا وقال: " لا يمكننا أن نقف مكتوفي الأيدي .. النظام السوري لا يريد أن ينصت لمطالب شعبه، وللأسف ما زال ما يطلق النار عليه"، وهذا يعني أن رحيل نظام الأسد أمر لا مفر منه كما قال الأمير السعودي تركي الفيصل.

من الواضح النظام البعثي دخل المرحلة الأخيرة؛ وبدا يهتز من الداخل على الرغم من التماسك الظاهري، فهو يواجه اتساع حالة الثورة الشعبية إلى كل المدن السورية، وحتى دمشق وحلب التي لم تتحرك بالشكل المطلوب شهدت بعض التحركات الشعبية الاحتجاجية، وانهيار الوضع الاقتصادي وتردي الحالة المعيشية وعدم القدرة على دفع رواتب الموظفين وتوقف شركات النفط عن الإنتاج، وما قيل عن تهريب مليارات الدولارات من سوريا إلى البنوك اللبنانية، يضاف إلى ذلك توالي الانشقاقات في الجيش السوري، وحدوث بعض الاشتباكات بين الجنود المنشقين وقوات بشار الأسد، وهو ما يعني إمكانية تحول الثورة السلمية في سوريا إلى ثورة مسلحة، مما يؤدي لنشوب حرب أهلية، يحاول نظام الأسد أن يلعب فيها بالورقة الطائفية، هذا على الصعيد الداخلي، أما على الصعيد الخارجي، تزداد عزلة النظام البعثي السوري ولم يبق معه سوى إيران وحزب الله ونظام المالكي في العراق ونظام علي صالح في اليمن، وهي الأنظمة التي تتشابه معه في المصير والسلوك، أما روسيا والصين، فهما بانتظار موقف جامعة الدول العربية، وعندما يعلن العرب عدم شرعية نظام بشار الأسد بشكل كامل، فلن تتردد روسيا والصين عن رفع الغطاء عنه حفاظا على مصالحهما في العالم العربي، وهي مصالح أهم بكثير من بقاء الأسد ونظامه البعثي في السلطة.

الحركة السياسية لأركان النظام البعثي في سوريا تبدو متوترة ومرتبكة، فالمندوب السوري لدى الجامعة العربية استخدم الشتائم وقذف أكواب المياه في وجه وزراء الخارجية للتعبير عن رأيه، وظهر وزير الخارجية وليد المعلم مهزوزا وفاقدا للبوصلة في مؤتمره الصحفي الأخير وهاجم العرب وجامعة الدول العربية وأمينها العام واعتبر قرارها بحق النظام البعثي "مشين وخبيث وقليل الحياء"، وان "رفع الغطاء العربي عن سوريا لن يجعلنا نبرد نهائيا لأنه غطاء مهترئ"، على حد قوله، ثم هدد بالحرب قائلا:" لدى جيشنا الباسل قدرات قد لا يحتملون أن تستخدم.. وان دولا عربية وغربية تعلم أنها ربما تدفع ثمنا عسكريا أعلى لدى مواجهة الجيش السوري"، وأكد أن "السيناريو الليبي لن يتكرر في سوريا"..واستبعد تدويل الأزمة السورية بفضل موقف روسيا والصين"، وراهن على أن هذا الموقف لن يتغير، ثم عاد وأعلن الحرص على العمل العربي المشترك، رغم انه "مهترئ ومشين وخبيث"، وانه يثق بحكمة القادة العرب، رغم أنهم يتربصون بسوريا وينفذون مخططا أمريكيا ثم بشر بان "الأزمة وصلت إلى بداية النهاية".

هذا الخطاب المتهاوي للمسئول الأول عن الدبلوماسية التابعة للنظام العبثي السوري يعكس الحالة التي وصل إليها هذا النظام، والذي لم يجد سوى التهديد بالقدرات التي لا تحتمل للجيش السوري والكلفة الغالية للحرب عليه، وهو تهديد لا يعني سوى التمسك بالسلطة، وانه ما زال يعيش حالة من الإنكار ولا يعترف بوجود شعب ثائر، واعتبر ما يجري عبارة عن "اضطرابات وقلاقل" تصنعها مجموعات مسلحة خارجة عن القانون " سلفيون ومندسون وإخوان مسلمون"، وهي المجموعات التي قدر عددها رئيس النظام بشار الأسد بنحو ٦٥ ألف خارج عن القانون، والتي أعلن انه يحاربها منذ ٤٠ عاما.

لا خيار أمام الأسد ونظامه إلا "الرحيل أو الترحيل"، ولا يوجد طريق ثالث بينهما، فالأنشوطة تضيق حول عنق النظام البعثي، والمساحات التي يناور فيها تتضاءل يوما بعد يوم، والشعب السوري يصر على إسقاطه، وجيرانه من الشمال والجنوب في يطالبون برحيله، ودول الخليج قررت أن هذا النظام انتهت مدة صلاحيته، والغرب لا يريد أن يغامر بحرب أهلية في سوريا .. والمعارضة السورية ترفض الحوار مع النظام البعثي ولا تقبل إلا بالاتفاق على آلية لرحيله.. وهو ما سيتحقق لأنه سيرحل لا محالة، حتى لو أشعل حربا مزلزلة في المنطقة كما قال بشار الأسد نفسه.

إنقاذ الشعب السوري

يتعرض الشعب السوري "لخيانة" مذهلة، بسبب الإهمال والتجاهل، بل وتأييد بعض الأطراف العربية لسفك دماء السوريين، وهو ما لم يحدث مع الثورات في تونس ومصر وليبيا واليمن، ولكي نكون أكثر صراحة فان ثورة السوريين هي الأغلى ثمنا عربيا بسبب "جبن التعامل الرسمي العربي" مع الوضع هناك وتجاهل الحرب الدموية التي يشنها نظام بشار الأسد ضد المطالبين بالحرية والعدالة والكرامة.

الأنظمة العربية تخضع حياة السوريين لحسابات المصالح أو الخوف، فبعضها تؤيد النظام البعثي، وبعض حركات "المقاومة" مثل حزب الله والجبهة الشعبية القيادة العامة تؤيد حرب البعث ضد الشعب، خلافا للمبادئ الثورية التي يؤمنون بها، وأما حماس والجهاد الإسلامي والجبهة الشعبية فتلتزم الصمت حيال عمليات القتل الإذلال للشعب السوري.

هذا الوضع المزري دفع المتظاهرين في سوريا إلى الهتاف " ما إلنا إلا الله" .. " وين النخوة العربية، بدنا حماية دولية"، مما يعبر عن فقدان الأمل بالأشقاء في العالم العربي واللجوء إلى طلب المعونة من الأجنبي.

في سوريا يمارس النظام البعثي الحاكم "جنونا منفلتا من عقاله"، ويملك رخصة دولية للقتل العلني لحسم "التمرد" والقضاء على "الإرهابيين"، ويحظى بالفرصة تلو الفرصة، عربيا ودوليا، لإعادة السيطرة على الشارع ومنع التظاهر والاحتجاج.

هذه المقاربة العربية والدولية للوضع في سوريا مخطئة تماما، فالشعب السوري قرر منازلة النظام الحاكم المستبد، الذي يعتمد على ٤ أضلاع داخلية، هي الطائفية وحزب البعث والتجار ورجال الأعمال والجيش والشبيحة، بدعم اقليمي ودولي، ولا شك أن الوعي الجمعي للسوريين يعلم تماما الكلفة الباهظة لهذا المواجهة مع نظام مدجج بالسلاح ومحمي بالصمت العربي والدولي، ومدعوم من روسيا والصين وإيران وحزب الله، وهذا يعني أن السوريين مستعدين لتقديم "ضريبة الدم" من اجل نيل الحرية.

ليس هناك أي فرصة للتراجع، فالشعوب لا تتراجع إذا نزلت إلى الشوارع، ولا تعود أدراجها إذا قررت إسقاط النظام ولا تتقهقر إلى الخلف مهما كان الثمن، ولهذا فان الأنظمة العربية تخطئ الحساب تماما إذا ظنت ان نظام البعث سينجو وسيفلت من السقوط ، وإذا تخيلت أن إغماض العيون عما يجري في سوريا سيقلب الحقيقة.

لا يجوز ترك النظام البعثي بقيادة بشار الأسد يستفرد بالشعب السوري، ويستمر بمسلسل القتل وسفك الدماء وتخريب سوريا، فقد تجاوز عدد الضحايا حتى الآن أكثر من ٣٠٠٠ شخص، وهناك أكثر من ١٧٠٠٠ معتقل ومابين ١٥٠٠٠ مفقود و٢٥٠٠٠ مشرد، ومئات الأسر الممزقة في المدن المحاصرة والتي تقصف يوميا بالمدافع والأسلحة الثقيلة.

ترك نظام الأسد يعيث فسادا في سوريا أمر غير مقبول وغير معقول، ولا يجوز أن تكون حياة السوريين مجرد أرقام في حسابات المعادلات الإقليمية والدولية وحسابات المصالح، فهذا الحسابات خاطئة وستكون وصمة عار في تاريخ العرب إلى ابد الآبدين. الشعوب لا تعاند، وإذا ثارت أو تمردت فهي ستنتصر مهما كان الثمن، وسوريا لن تكون حالة مختلفة، لان السوريين قرروا إسقاط النظام الذي جثم على صدورهم وسلبهم حرياتهم أكثر من نصف قرن، وسيكون من الأفضل مساندة الشعب السوري وإنقاذه بدل تركه يقتل يوميا بالآلة العسكرية الدموية للنظام البعثي وشبيحته.

حلقة النار السورية

تخطئ الأنظمة العربية، قبل الحكومات الغربية والصين وروسيا، إذا ظنت أن النظام البعثي بزعامة بشار الأسد يمتلك أية فرصة للبقاء، فهذا النظام سقط نظريا عندما ثار الشعب السوري وخرج إلى الشوارع وقدم الشهداء والدماء من اجل الحرية والعدالة والكرامة.

وبما أن الشعوب لا تعاند ولا يستطيع أي نظام حكم أن يقف في وجهها إذا ثارت أو تمردت، فان نظام بشار الأسد المدعوم بثلاث حلقات من الموالين وهم معظم الطائفة العلوية وإيديولوجيي حزب البعث ورجال أعمال النظام وطبقة التجار المستفيدين من وجوده، سيسقط لا محالة، رغم أن الكلفة ستكون مرتفعة على غرار ما حصل في ليبيا.

خلع العقيد في ليبيا كلف ٥٠ ألف شهيد وعشرات الآلاف من الجرحى والمشردين، ودمر البلد بأكملها، وتقدر الخسائر المادية حسب بعض الأرقام إلى ٥٠٠ مليار دولار، وشطر البلد إلى نصفين، القبائل التي قاتلت ضده والقبائل التي تقاتل معه، وهذه جروح من الصعب تضميدها، فمن يقاتل في سرت وبني وليد هم كتائب القذافي المدعومين بالقذاذفة والقبائل المتحالفة معها، وفي سوريا أيضا سيكون هناك جرح كبير، فالمتحالفون مع النظام لن يكون لهم دور في سوريا المستقبل بعد الانتصار النهائي للثورة، وبعيدا عن الكلام الممجوج للوحدة الوطنية، والحديث المنمق فان المجتمع السوري سوف ينشق إلى ثوار وإلى موالين للنظام "طائفيا وحزبيا ومصلحيا"، فنظام بشار الأسد قام بتسليح القرى العلوية، وتوترت العلاقات بينهم وبين القرى والمدن المجاورة، والشبيحة "مليشيا النظام" في معظمهم ينتمون للطائفة العلوية، مع وجود أقلية غير علوية معهم، وهذا يدل على أن نظام بشار الأسد يستخدم الورقة الطائفية بكل قوته، ويحاول أن يجعلها "خشبة الخلاص" من اجل التشبث بالسلطة.

بالإضافة إلى تقسيم المجتمع طائفيا، فان عناد نظام بشار الأسد وإصراره على التشبث بالسلطة أدى أيضا إلى شق الجيش، حيث بدأت عمليات التمرد والانشقاق، وهي العمليات

التي تحولت إلى معارك بين أبناء الجيش الواحد كما حصل في الرستن، التي دارت فيها معارك حقيقية، وهذا يعني ان الجيش الذي يتركب من راس علوي، ومن جسد غير علوي سيشهد مزيدا من الانشقاقات في الأيام المقبلة، مما يعني إضعاف الجيش السوري المنهك من مواجهة ثورة الشعب السوري المستمرة منذ أكثر من ٦ شهور، وهذه خسارة سورية وعربية فادحة، فالجيش السوري "نظريا" جيش قوي يمتلك أسلحة معقولة مقارنة بإسرائيل المسلحة حتى الأسنان، وانشقاق هذا الجيش وتقاتل أفراده إلى جانب انقسام المجتمع السوري أفقيا وعموديا يعني أن سوريا خرجت من المعادلة في المنطقة كما خرج العراق قبل ذلك، مما حول العالم العربي إلى ملعب لإيران وتركيا وإسرائيل والقوى الكبرى، وهنا لا بد من التوضيح أن نظام بشار الأسد لم يكن مكافئا موضوعيا لأي من هذه الدول، لكنه كان الخط الفاصل بينها، ولكن في المشهد السوري المتغير فان بقاء نظام بشار الأسد في الحكم مع استمرار الثورة يعني استنزاف سوريا اقتصاديا وتمزيقه مجتمعيا وعسكريا وتكبيده خسائر بشرية فادحة.

إسرائيل ومعها الغرب، تكسب مما يحدث في سوريا، كما كسبت في كل الفترة خلال نصف قرن من حكم حزب البعث وعائلة الأسد، فما يجري هناك يعني تحول سوريا إلى "ساحة صراع داخلي" كما حدث في العراق، وسيكون العرب هم الخاسر الوحيد والكبير، وكما فتح احتلال العراق وإسقاط نظام صدام حسين الباب أمام تمدد إيران وتحولها إلى قوة إقليمية كبيرة، فان تمزق الداخل السوري يعني أيضا مكاسب لتركيا، القوة الإقليمية الصاعدة، ومكاسب لإسرائيل أيضا، وان اختلفت الأهداف والنوايا، وسيخسر العرب ساحة اخرى ستتحول إلى "جحيم" من الصراع إذا استمر بقاء نظام الأسد الذي يرفضه الشعب السوري.

للأسف الشديد فان الأمة العربية تعاني من انعدام الوزن، وتعاني عدم وجود قيادة مرجعية، وتفتقر إلى القوة المركزة، وتقاتل أنظمته شعوبها، والدول العربية الكبيرة إما مريضة يحكمها مرضى أو تعاني من عدم الاستقرار والصراع بين الثورة والثورة المضادة، واستمرار هذا الوضع سيؤدي إلى انهيار الكيانات العربية التي تشكلت ما بعد الحرب العالمية الثانية وتحولها إلى فسيفساء فوضوية، وهو انهيار لن يستطيع احد وقفه إذا استمر الصمت على ما يجري في سوريا، وإلى جانبها اليمن، وستتحول الحالة إلى "أحجار الدومينو" التي ستتساقط تباعا ولن يفلت أي كيان عربي من العاصفة المقبلة، وسيكون الثمن مرتفعا جدا.

ومن اجل تقليل الخسائر، على الأنظمة العربية "العاقلة" إذا رغبت بإطالة عمرها، أن تخلع السن الفاسد "في سوريا" بدل خلع "الفك" كله، وهذا يتطلب منها الضغط للإطاحة بنظام بشار الأسد، والتدخل لإعادة ترميم الوضع في سوريا اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا.

المسالة لا تحتمل التأجيل، فالنار السورية ستلتهم الجميع بدون استثناء، ويخطئ من يظن أن بوصلة الأحداث ستغير الاتجاه، وإذا لم يتم إسقاط النظام البعثي السوري فان النار قد تتمدد إلى لبنان والأردن في المرحلة الأولى وإلى مناطق اخرى بعد ذلك.

الأنظمة العربية مطالبة بالتدخل لإجبار نظام الأسد على الرحيل قبل فوات الأوان، وأي تأخير يعني أنها قد تكون جزءا من الثمن، وستتحول مواردها وميزانياتها لتمويل العساكر والجيوش لحماية نفسها من السقوط، وستذهب هذه الأموال سدى لان الشعوب إذا ثارت فإنها لا تتوقف..

أيها الحكام العرب.. اخلعوا نظام بشار الأسد بدل أن تجدوا أنفسكم داخل حلقة النار التي تتسع يوما بعد يوم.

فيتو مزدوج ضد وقف النزيف السوري

لم تستطع دماء ٥٠٠٠ آلاف سوري فقدوا أرواحهم في سوريا ان تقنع روسيا والصين على التصويت لصالح قرار في مجلس الأمن لفرض عقوبات على نظام بشار الأسد، ووقف آلته العسكرية على حصد أرواح الأبرياء، وكانت لغة المصالح أعلى واشد قوة من لغة الدم والأخلاق والإنسانية، وكانت الدافع خلف "الفيتو الروسي الصيني المزدوج".

لم يتعذب أي شعب ثائر من شعوب الربيع العربي كما تعذب الشعب السوري، فقد ترك وحيدا دون مساندة معنوية أو أخلاقية أو معنوية من العرب ودول الجوار والمجتمع العالمي، وتم تجاهله من قبل وسائل الإعلام في البداية، ولولا وسائل الاتصال الحديثة ما سمع احد بالثورة العملاقة للشعب السوري.

لم يجرم السوريون حين طالبوا بالحرية والعدالة والكرامة، فهم لم يطالبوا إلا بالإصلاح في البدايات.. طالبوا بمكافحة الفساد وإنهاء الاحتكار السياسي وإصلاح القضاء والسماح بتشكيل أحزاب سياسية وإجراء انتخابات نزيهة، فكان رد نظام بشار الأسد على هذه المطالب "التي للمفارقة اعتبرها شرعية" بالرصاص والمدافع وحصار المدن وقصفها وقتل المحتجين السلميين وتدمير القرى وتشريد السوريين إلى تركيا ولبنان والأردن، فما كان من الشعب السوري إلا أن رفع سقف مطالبه لتصل إلى الدعوة "لإسقاط النظام"، فازدادت شراسة النظام الذي يحتكر السلطة منذ نصف قرن واعتبر أن الحل الوحيد لإقناع الشعب أو إسكاته وإخضاعه هو " الحل العسكري" المدعوم بالشبيحة ومليشيات حزب البعث و١٧ جهازا امنيا نشر عسسها في كل ناحية وزقاق، مما أوصل الوضع في سوريا إلى حالة من صراع الإرادات "بين الشعب السوري الذي يطالب بالحرية والنظام الذي يعلن انه لن يتنازل عن السلطة، وان قرر منازلة الشعب حتى آخر عسكري وشبيح، وهو صراع سيؤول في النهاية إلى انتصار الشعب بلا محالة، بعد أن يتم تخريب سوريا وتدميرها وقتل شبابها وإهدار ثرواتها.

من الحتميات التاريخية أن الشعوب لا تتراجع إذا نزلت الى الشوارع، وهي لا تخسر أبدا، وكل الشواهد التاريخية تشير إلى أن الأنظمة الحاكمة المستبدة والدكتاتورية تخسر في النهاية مهما طال الزمن، وهذا الأمر ينطبق على سوريا أيضا.

مشكلة الثورة السورية المستعرة داخليا أنها محاصرة خارجيا، مما يعني أن الشعب السوري سينازل النظام البعثي وحيدا دون دعم أو سند، وان عليه أن يكسب المعركة وحيدا بدون تدخل من المجتمع الدولي، وهذا ما سيجعل من وضع الثورة السورية حالة فريدة مقارنة مع الثورات العربية الأخرى في تونس ومصر وليبيا واليمن التي حظيت بنوع من الدعم. وهذا ما يجعل من "الفيتو" الروسي الصيني مؤلما للسوريين المتطلعين للحرية وللعرب بشكل عام، فهذا "الفيتو" يوفر غطاء لجرائم نظام الأسد، ويمكنه من الإفلات من العقاب، وسيزيد من عدد القتلى ومن سيل الدماء السورية البريئة التي تراق في الشوارع.

روسيا والصين اللتان منيتا بخسارة فادحة في ليبيا تخسران مرة أخرى في سوريا، ولأول مرة يتجه الشارع العربي في عدائه نحو روسيا والصين، ونجد أنفسنا في توافق مع أمريكا وأوروبا، وهو توافق مقبول شعبيا ومرغوب ومطلوب في نفس الوقت.

مشكلة موسكو وبكين أنهما لا تريدان خسارة آخر مواقعهما في العالم العربي، وهما تعتقدان أن سقوط نظام بشار الأسد سيخرجهما من المنطقة بشكل كامل، وهما على حق في ذلك، فهما لم تمنعا الحرب ضد العراق، ولا استطاعتا الحيلولة دون سقوط القذافي، ودائما كانت مواقفها خجولة ومترددة وغير فاعلة بالنسبة للقضايا العربية، وعلى رأسها القضية الفلسطينية.

كان يمكن لروسيا والصين أن تتحالفا مع تطلعات وآمال وأهداف الشعب السوري لكسب العرب وتعزيز مصالحهما في العالم العربي، لكنها اختارتا دعم الدكتاتورية الدموية، ضمن لعبة المصالح الدولية. وعلى الرغم من استخدامهما نفوذهما في مجلس الأمن لتعطيل تسريع وصول السوريين إلى حريتهم، فان الشعب السوري سينتصر، وستتكبد روسيا والصين المزيد من الخسائر في منطقة يسيل على ثرواتها لعاب العالم كله

الشعب السوري العظيم

يخوض الشعب السوري واحدة من أشرس "معارك الحرية" في العالم، يخوضها وحيدا بلا دعم حقيقي من احد، ولذلك يستحق وبكل جدارة لقب " الشعب السوري العظيم"، لأنه انتفض وثار من اجل حريته وكرامته، ولأنه قاتل سلميا ولم يستسلم، ولأنه يخوض معركة الكرامة والعدالة وحيدا.

ثورة الشعب السوري هي الأعظم بين كل الثورات العربية لان الشعب السوري يواجه مخرز السلطة الدامي بلحمه ودمه بمفرده، ويقدم الشهداء والجرحى والمعتقلين يوميا، فعداد الموت لا يتوقف في سوريا، والنظام البعثي الأسدي يصر على القتل والغرق في الدم، والولوغ في دماء السوريين.

عظيم هو الشعب السوري لأنه يراقص الغول وحيدا، في الشوارع التي تحولت إلى مسرح للدم، بل إلى حمام للدم، دون أن يتحرك احد في العالم للجم هذا الغول الدامي، الذي تأكل آلته العسكرية لحم السوريين ليل نهار.

عظيم شعب سوريا الذي رفض أن يحني رأسه لنظام الشبيحة والبلطجية والمافيا، وأصر على الهتاف " الشعب بدو حرية" و "الشعب يريد إسقاط النظام" و"الشعب يريد محاكمة الرئيس"، وهي هتافات تنطلق من حناجر ترفض السكوت والخنوع، رغم اقتلاع حنجرة إبراهيم قاشوش الذي غنى من اجل الحرية، ولم ترهبه أصوات الرصاص ولا أزير الطائرات ولا هدير المدافع.

عظيمة هي حمص، مدينة القائد العظيم خالد بن الوليد، لأنها تعلم نظام الأسد القمعي المستبد يوميا دروسا في الصمود رغم الحصار والخنق والتجويع والقتل، عظيمة لأنها تسجل يوميا صفحات في ملحمة البطولة لإسقاط نظام الاستبداد والقمع.

وعظيمة حماة التي لا تنحني أمام جنود الطاغية وعسسه وشبيحته، عظيمة لان عظمها لم ينكسر، رغم محاولة نظام الأسد، الأب والابن" كسرها، لكنهم اكتشفوا أن لحمها مر، وان عظام أهلها اقسى من يكسر، لأنها لا تزال تعلم هذا نظام البعث الأسدي أن التاريخ لا ينحني أمام الطغاة، وان المدن العظيمة تنزف لكنها لا تموت.

عظيمة هي درعا ودير الزور والمعضمية وجسر الشغور ومعرة النعمان وريف دمشق وتلكلخ واللاذقية والبيضاء والقامشلي وكل مدن سوريا الثائرة لأنها تحدت أسنان الطاغية وأسنته، ولأنها هتفت بصوت واحد أن الشعب يريد الحرية والكرامة والعدالة.

الشعب السوري العظيم يعاني، لا احد ينكر ذلك، وينزف الكثير من الدم، ويعاني من انقطاع الغذاء والدواء والكهرباء والاتصالات ومن فقدان وقود التدفئة " المازوت".. ولكن من قال إن الحرية مجانية، ومن قال أن الكرامة ستأتي على طبق من ذهب دون تضحيات؟ لا احد يعتقد ذلك، والشعب السوري العظيم يدرك قبل غيره أن الحرية لها ثمن، وان هذا الثمن مرتفع في مواجهة نظام "مافيوزي" مِثل النظام البعثي الأسدي.

لماذا يخذل العرب الشعب السوري العظيم؟ ولم تتقاعس الحكومات العربية على التدخل لحماية الشعب السوري كما فعلت في ليبيا؟ أسئلة كبيرة نطلقها بصوت مرتفع ليسمعها كل الحكام الذين يعتقدون أن الشعب السوري سيكون ضحية الجغرافيا السياسية، وانه سيكون جزءا من صفقة "ترضية" بين هذا النظام وذاك، وانه يدفع ثمن مصالح الدول على مذبح حريته، ان ذلك لن يتحقق.

وهنا تكمن المشكلة بالنسبة للحكومات العربية وتركيا والصين وروسيا والغرب، فالشعب السوري الذي نزل إلى الشوارع لن يتوقف إلا عندما ينتصر، نصرا نهائيا ومؤزرا على النظام البعثي الأسدي، والثورات لا تقف في منتصف الطريق، لأنها ان فعلت ذلك فإنها تنتحر، والشعب السوري الذي ثار من اجل حريته لن يقف في منتصف الطريق ولن ينتحر، فكيف يتوقف وقد نزف وقدم الشهداء؟ وكيف يتوقف وكل يوم يبرهن على أن نظام بشار الأسد معزول عن الواقع، ويتصرف وكأنه يملك البلاد والعباد، ويستمر في القتل والإجرام، ويواصل عمليات الخداع والمراوغة و"اللف والدوران".

الحكومات العربية مطالبة بالتحول من الموقف "شبه المتفرج إلى موقف عملي" لوقف الآلة الدموية لنظام الأسد، بالتعاون مع تركيا وفرنسا والدول التي ترغب بالكف عن المراوغة والكذب في أوروبا والولايات المتحدة، فنظام الأسد لا يريد أن يتخلى عن السلطة أبدا، ويريد أن يستمر باحتكار السلطة إلى الأبد، والحكومات العربية قادرة على الضغط على روسيا

والصين، والتلويح بمقاطعتها اقتصاديا، إذا استمرت بدعم هذا النظام الاستبدادي، وهما ستتراجعان بالتأكيد لان مصالحهما أهم من النظام البعثي.

لا يجوز أن تستمر آلة القتل البعثية الأسدية بحصد أرواح السوريين إلى مالا نهاية، ولا يجوز السماح باستمرار هذا الوضع، وعلى العرب ان يستعدوا لكل الاحتمالات في مواجهة هذا النظام وحلفائه، فنحن لا نقبل أن يكون الشعب السوري العظيم ضحية الصفقات والمساومات والمراوغات والمصالح الجيوساسية وموازين القوى.. فالشعب السوري قرر الإطاحة بالنظام البعثي وعلى العالم أن يحترم قراره ويساعده.

الأسد ومحاولات قلب الطاولة

يحاول نظام بشار الأسد خلط الأوراق وبعثرتها في وجه القوى العربية والدولية للمحافظة على بقائه في السلطة عبر الإيحاء بقبوله "البروتوكول العربي"، وموافقته على استقبال مبعوثين عرب للاطلاع على الأوضاع في المدن والقرى السورية، لكنه لن يتوانى عن "قلب الطاولة" إذا استطاع لذلك سبيلا، إذا شعر أن الأمور ستفلت من يديه.

من ألاعيب هذا النظام "التفجيران الانتحاريان" اللذان استهدفا مقرين للمخابرات والقوى الأمنية، حيث بادر نظام الأسد باتهام القاعدة بعد دقائق قليلة من وقوع التفجيرين، الأمر الذي يثير الحيرة والتساؤل: كيف تمكنت أجهزة النظام البعثي السوري من معرفة الفاعل بعد ١٠ دقائق من الهجومين؟ ولماذا لم تستطع حتى من كشف قاتل عماد مغنية، القائد العسكري لحزب الله، أو غيره ممن قتلوا في ظروف غامضة؟.

حسب ما تم تناقله في الوكالات ومواقع الانترنت فان المنطقة التي وقع فيها الحادث، تعتبر من المناطق المؤمنة والمراقبة بالكاميرات وعناصر الأمن على مدار اليوم، فكيف تم اختراق كل الجدار الأمني في المنطقة وإدخال سيارتين مرة واحدة؟ ولماذا تأخرت القاعدة بتنفيذ التفجيرين إلى يوم صول المراقبين العرب؟ وإذا أضفنا لذلك ما نشره موقع "سوريون نت" نقلا عن احد العاملين في موقع غوغل من أن الأقمار الصناعية رصدت السيارات التي انفجرت منذ ٤ أيام في المكان، أي أنها لم تأت من الخارج، بمعنى أن التفجيرين مدبرين من داخل المؤسسة الأمنية نفسها.

إذا صحت هذه المعلومات بالطبع، فان هذين التفجيرين سيظهران بوصفهما "مسرحية سوداء دامية" لتشتيت الأنظار عن حقيقة ما يجري من عمليات قتل في المدن السورية، واثبات وجود "مجموعات إرهابية" ومن بينهم بالطبع "تنظيم القاعدة" حتى يشهد المراقبون العرب على "العنف الإرهابي" وليس ثورة الشعب السوري.

ثم من هم هؤلاء المدنيين الذين قتلوا؟ وما هي أسباب وجودهم داخل المربع الأمني الحصين؟ وهل هم من المعتقلين أم غير ذلك؟ وما هي أسماؤهم؟ وكيف قتلوا خلف جدار مرتفع ومحروس جيدا إلى درجة أن ذبابة لا تستطيع أن تصل إليه بدون تفتيش؟... بصراحة، قصة التفجيرين الإرهابيين "بايخة" لا تدخل عقل إنسان، ولا يصدقها إلا مجنون، خاصة وان هذا النظام له خبرة بمثل هذه التفجيرات، مع تذكر الفلم الذي عرضه وليد المعلم وزير خارجية النظام لإثبات وجود إرهابيين، ثم ثبت أن هذه الصور كانت في لبنان وليس سوريا كما أفاد الأشخاص الذين ظهروا في الفلم، الذي اعترف المعلم انه كان "سيء الإخراج".

لا اتهم أحدا، ولا حتى نظام بشار الأسد نفسه بالقيام بالتفجيرين، ومن اجل الوصول إلى الحقيقة لا بد من لجنة تحقيق دولية لمعرفة من نفذهما، وتوجيه الاتهامات إلى الفاعل، لكن وبانتظار حدوث ذلك فان النظام البعثي في سوريا يتحمل المسؤولية، لأنه يدير البلاد ويملك اكبر عدد من الأجهزة الأمنية في المنطقة العربية كلها.

هذان التفجيران هما بعض التفاصيل التي ستغرق لجنة تقصى الحقائق العربية أو ما يطلق عليه "المراقبين العرب"، وهي تفاصيل هدفها إشغال الراي العام والمراقبين عن مهمتهم الأصلية، وهي رصد ما يجري للشعب السوري الذي تقتله الآلة العسكرية الفتاكة لنظام بشار الأسد.

وهذا يتطلب من المراقبين العرب التركيز والاهتمام بسيول الدم التي تغرق الشوارع السورية، ولجم الآلة العسكرية لنظام الأسد، ووضع حد للعنف والقتل والإرهاب ضد المدنيين العزل والشعب المطالب بالحرية والانعتاق من حكم عائلة بشار الأسد ونظامه وحزبه وطائفته.

مسيرة الحياة .. وبروتوكول الموت

الهجمة الدامية للنظام البعثي الأسدي وعصاباته من الشبيحة ضد الشعب السوري تفضح مواقف هذا النظام الذي يلعب على المتناقضات والمهل ويمارس هوايته في المراوغة واللف والدوران بينما يسفك يولغ في الدم يوميا.

يمارس بشار الأسد لعبة الاستغباء مع العرب والعالم، ويحاول أن يغرقهم في التفاصيل لكي يجد لنفسه فسحة من الوقت عله يقدر على قمع السوريين أو قتلهم، وهو مصر على إغراق الجميع في "التفاصيل المراوغة" لان الآخر عليه أن يجيد السباحة في التفاصيل لكي لا يغرق كما قال وزير خارجيته وليد المعلم، لكن هذه اللعبة التي انطلت على الكثيرين، لم تنطل على الشعب السوري الثائر الذي يصر على إسقاط النظام ومحاكمته، وهو بهذا يحدد الاتجاه الوحيد لنهاية الأزمة في سوريا، فهي تمر عبر طريق واحد هو رحيل النظام، وبدون هذا الرحيل فان الثورة مستمرة، ولقد عبر السوريون عن موقفهم الواضح عندما أطلقوا على الجمعة الماضية "جمعة بروتوكول الموت"، واعتبروا الاتفاق الذي وقعته الجامعة العربية مع نظام الأسد وصفة للموت، وهي وصفة مرفوضة بشكل كلي، لأنها لا تحمي الشعب الذي يقتل يوميا بالعشرات وتقدم "طوق نجاة" لبشار الأسد ونظامه.

سوريا وما يجري فيها يشكل حلقة من سلسلة متصلة من ميدان التحرير في مصر إلى تعز و ساحة التغيير في اليمن، ومن جمعة "بروتوكول الموت" في المدن السورية إلى "جمعة رد الشرف لحرائر مصر" في قلب القاهرة الثائر وبينهما "مسيرة الحياة" من تعز إلى صنعاء، وهي جميعها تطالب بالحياة بعيدا عن الموت الذي تفرضه هذه الأنظمة، وهي تشكل معا حالة عربية متكاملة من ثورة التغيير العربية.

من العبث الافتراض أن الشعوب ستتراجع عن أهدافها أو انه يمكن الضحك عليها بمبادرات وبروتوكولات لا تساوي قيمة الحبر الذي كتبت به، ومن العبث القاتل إهدار الوقت

بينما تسيل انهار من الدماء في الشوارع والميادين، فسيرورة الأحداث تتحرك قدما إلى الأمام، وهي حركة تعني أن الواقع الحالي مرفوض وغير قابل للبقاء تحت أي ذريعة أو حجة، ومن هنا يبرز السؤال التالي: ما هو المطلوب للخروج من هذه الحالة الراهنة؟ والإجابة هي باعتماد احد النموذجين التونسي أو الليبي، إذ يمكن تطبيق النموذج التونسي في مصر لاختيار حكومة ديمقراطية منتخبة وإبعاد العسكر عن الحياة السياسية والحكم والسلطة، وهو حل قابل للتحقيق إذا اقتنع جنرالات المجلس العسكري المصري بضرورة الانسحاب من الحكم لصالح حكومة مدنية منتخبة من الشعب، أما سوريا فيبدو أنها اقرب إلى النموذج الليبي، إذ لا يظهر نظام بشار الأسد أي ليونة أو مرونة باتجاه التخلي عن السلطة، وهو لا يقدم سوى تنازلات تكتيكية لإضاعة الوقت في محاولة لاسترجاع المواقع التي خسرها في الشارع.

وعلى الرغم من تلويح نظام بشار الأسد بزلزال يحرق المنطقة وتلويح حلفائه في حزب الله بحرب متدحرجة ستشمل الجميع، إلا أن هذا النظام أكثر هشاشة واقل قدرة على الفعل، خاصة إذا تم تحجيم الحليف الإيراني الذي سيفكر ألف مرة قبل الدخول في حرب من اجل إنقاذ بشار الأسد ونظامه، وهي الحرب التي يمكن أن تكون وبالا عليها إذا حدثت مع حقيقة هزيمة الولايات المتحدة الأمريكية في العراق وأفغانستان، مما يعني وجود جبهتين ملتهبتين ضد إيران في الشرق والغرب، يسكنهما كثير من الناقمين على إيران بسبب دعمها للاحتلال الأمريكي في البلدين، وإذا ما رغبت إيران بخوض حرب من اجل بشار الأسد ونظامه فان عليها أن تحسب حساب حريق لن يظل بالضرورة بعيدا عن طهران، ولهذا السبب يرجح أن إيران لن تقدم على أي مغامرة من شانها أن تبدد مكاسبها التي جنتها بسبب الاحتلال الأمريكي في العراق وأفغانستان ويهدد حليفها في لبنان.

أما مسيرة الحياة في اليمن وهي الضلع الثالث من أضلاع مثلث "الربيع الحالي" فهي تصطدم برفض قوى إقليمية للإطاحة بنظام علي صالح بشكل كامل، وهي تشكل درعا واقيا بالنسبة لهذا النظام على الرغم من الرفض الشعبي العارم، وتحاول إنقاذه عبر مبادرة رفضها الشعب اليمني، وهنا أيضا فان الوضع لا يختلف عن سوريا ومصر، فالشعب اليمني مصر على الإطاحة بنظام علي صالح ومحاكمته ومحاكمة أركان حكمه، وإنهاء الحكم العائلي هناك.

لا جدوى من إضاعة الوقت فالشعوب العربية ترفض بروتوكولات الموت ومواصلة سفك دمائها وتعرية نسائها من حرائر العرب، ولذلك سيزهر الربيع العربي وستنصر مسيرة الحياة في كل الدول العربية لأنها مسيرة البحث عن الحرية والكرامة والعدالة.

المراقبون العرب وشجاعة غولدستون

وصول المراقبين العرب إلى حمص لم يشكل إضافة نوعية ولا تغييرا على مجريات الأحداث حتى الآن، فآلة قتل نظام بشار الأسد تواصل حصد الأرواح وقتلت في يوم واحد ٦٠ بريئا على الرغم من وجود المراقبين، وهذا يثير تساؤلات عن حقيقة دور المراقبين، وفيما إذا كانوا مجرد شهود زور على ما يجري؟.

لن نستبق الأحداث ولن نصدر أحكاما على عمل بعثة جامعة الدول العربية، ولكن من حقنا أن نشعر بالقلق من قدرتهم على توثيق ما يجري بدقة وأمانة، وإعداد تقارير تعكس حقيقة ما يجري على الأرض، ونقل وجهة النظر الشعبية التي غيبها القمع الدموي للنظام الأسدي البعثي الذي لجا إلى "اللف والدوران" وقام بتغيير أسماء الأحياء والشوارع في حمص، وأخفى الدبابات في مناطق غير مرئية، وهذا يثير الشكوك فيما إذا كان المراقبون العرب يذهبون إلى الأماكن الصحيحة التي يقتل فيها المدنيين الأبرياء العزل أم يذهبون إلى أماكن أخرى؟.

بعيدا عن التشكيك ننظر إلى الجزء المليء من الكأس، ونمنح المراقبين فرصة القيام بعملهم من دون "تشويش"، منطلقين من الأمل بان يستخدموا قوتهم القانونية والأخلاقية لوقف حمام الدم في سوريا ولجم النظام عن مواصلة القتل، وهي المهمة التي ستحدد نجاحهم، وغير ذلك فان الأمر لا يعدو عن كونه مشاركة في "تراجيديا سوداء دامية" لإضاعة الوقت والوقوع في شباك "الفهلوة" المعروفة للنظام السوري.

أهل حمص كانوا على موعد مع المراقبين واحتشد أكثر من ٧٠ ألف من سكان المدينة التي تحاصرها قوات الأسد وشبيحته، حتى يراهم المراقبون العرب حتى لو كانوا يعانون من "ضعف النظر"، وهو تجمع لسكان حمص الشجعان الذين تحدوا آلة الموت لنظام الأسد ودباباته وقناصته، وهو التحدي الذي عرفته مصراتة التي علمت العالم معنى الصمود،

وعلمت القذافي درسا أن الشعوب لا تهزم مهما بلغت "ضريبة الدم"، وحمص ليست استثناء، فهي التي تتصدي لقوات الأسد وشبيحته، وهي التي تمسك بزمام ثورة أشعلتها درعا، وهي التي تقود الشعب السوري نحو الخلاص من الحكم البعثي الطائفي الذي افسد البلاد والعباد، وحول سوريا إلى إقطاعية وعزبة للعائلة والأزلام.

"الحماصنة" صرخوا في وجه المراقبين: "بدنا حماية دولية" .. وين العالم.. الله يحيي الجيش الحر .. نريد إطلاق المعتقلين.. لقد ذبحونا .. نحن سكان عزل نموت.. الشعب يريد إسقاط النظام .. الشعب يريد محاكمة الرئيس.. الشعب يريد اعدام الرئس"، وتحدى احد سكان حمص احد المراقبين أن يقطع الشارع إذا استطاع، إلى ذلك سبيلا، لان رصاصة قناص ستكون بانتظاره لو فعل، وطالبهم بالدخول إلى الأزقة الضيقة في الأحياء ليروا بأعينهم "آثار الجريمة الكاملة"، وكيف يذبح الأبرياء.

الشعب السوري والشعوب العربية لن تعطي المراقبين العرب "شيكا على بياض"، فالأمة تريد أن تقرا تقارير شجاعة تعكس الحقيقة ولا شيء سوى الحقيقة، وان يتمتع المراقبون العرب بنفس الشجاعة التي كتب بها غولدستون تقريره عن الحرب الإسرائيلية العدوانية على غزة، واتهمها بارتكاب جرائم حرب، رغم انه يهودي، وهو تاريخ يسجل لصالحه حتى على الرغم من تراجعه بعد ذلك.

دماء الشعب السوري التي يسفكها نظام بشار الأسد وشبيحته أمانه في أعناق المراقبين العرب، فتقاريرهم قد يكون لها الكلمة الفصل في وضع حد لسفك الدماء الزكية البريئة في سوريا، وأي تقاعس من جانبهم سيحاسبون عليه من الشعب السوري والأمة العربية ولن يرحمهم التاريخ الذي يقول دائما ان الشعوب منتصرة على الجلادين والطغاة والقتلة.

المراقبون يلعبون بالدم السوري

نجح نظام بشار الأسد بإغراق الجامعة العربية في التفاصيل، وادخل المراقبين العرب الذين أرسلتهم جامعة الدول العربية في نفق اللف والدوران، وضيعهم الذين في متاهات لا يعرف لها قرار، مما يجعلهم شركاء في الجريمة بصمتهم على الجرائم التي يرتكبها النظام البعثي الدموي، ويكفي أن نشير إلى أن ٢٨٦ سوريا قتلوا منذ قدوم المراقبين العرب إلى سوريا، مما يضعهم في دائرة التواطؤ الصامت والممنهج.المراقبون العرب يعملون في ظروف صعبة، فهم محاطون بالعناصر الأمنية التابعة لنظام الأسد من جهة، مما يعقد عملهم، ويحد من قدرتهم على الوصول إلى المدن والقرى والمناطق المستهدفة، لكن المشكلة الحقيقية في وفد المراقبين العرب هي التركيبة البنوية والشكوك التي تحيط برئيس الوفد المتهم بارتكاب جرائم حرب في دارفور، وربما هناك شكوك حول آخرين لا نعلم فيما إذا كانت تحوم حولهم الشكوك أصلا، لكن ما ثبت حتى الآن هو أن رئيس الوفد هو ضابط الاستخبارات العسكرية السوداني الفريق أول الركن محمد احمد مصطفى الدابي ،المتهم بارتكاب جرائم حرب، يلعب لعبة خطرة، فقد وصف الوضع في حمص بأنة "مستقر ومطمئن" على الرغم من تجمع أكثر من ٧٠ ألف من سكان المدينة للتظاهر عند وصول المراقبون إليها، ومن المدهش انه لم يستطع ان يرى هذا العدد الكبير من المتظاهرين الذي شاهدهم العالم على الهواء مباشرة على قناة الجزيرة مباشر، وهو ما يكذب ادعاءاته، ثم عاد ثانية لينفي تأكيدات احد أعضاء الوفد بوجود قناصة فوق المنازل، وهو ما أكده الأمين العام لجامعة الدول العربية الذي قال "أن القناصة ما زالوا يمثلون تهديدا"، معتبرا ان استمرار إراقة الدماء يعد استخفافا بمهمة المراقبين، ولا ندري اذا كانت مهمة الدابي ، هي التصدي لتصريحات المراقبين ونفي إراقة أجهزة امن الأسد وشبيحته لدماء السوريين، وتكذيب تصريحات الامين العام لجامعة الدول العربية.بكل صراحة: المراقبون العرب فشلوا في مهمتهم، لانهم فشلوا في وقف نزيف الدم، وأخفقوا بإجبار النظام البعثي الأسدي على سب دباباته وشبيحته وجلاوزته من المدن والقرى

كما نصت المبادرة العربية والبروتوكول الملحق بها، وما تقوم به بعثة المراقبين ليس أكثر من منح نظام الأسد مزيدا من الوقت لمواصلة القتل. مما يستدعي إعادة النظر بعمل المراقبين واللجوء إلى أفكار أخرى للتعامل مع النظام السوري.مهمة المراقبين العرب هي توفير الحماية للسوريين، وهو ما لم يحدث، حيث ان نظام الأسد يستخدم هؤلاء المراقبين كساتر لما يجري في الشوارع والمدن، ويسعى لتحويل مهمتهم إلى مهمة إنسانية بدون أي أبعاد سياسية أو تقديم أدلة تؤكد ارتكاب جرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية.لا نريد من المراقبين العرب أن يكونوا جزءا من لعبة الدم، وتمثيل النظام العربي الرسمي الذي يميل إلى إنقاذ النظام السوري وهو ما لن يقبل به الشعب السوري، فالسوريون يطالبون بإسقاط النظام ولا يقبلون بإنقاذه.لا نستطيع ان نثق بعمل بعثة المراقبين العرب ورئيسهم، ونحن غير مطمئنين لعملهم، فهم جميعهم موظفين حكوميين باستثناء القلة، وبالتالي فهم ليسوا بعيدين عن توجهات أنظمتهم، وهو ما يلقي بظلال من الشك حول قدرتهم على نقل صورة كاملة عن معاناة الشعب السوري، وهذا ما جعل المتظاهرين السوريين يرفعون شعار "الجامعة العربية تقتلنا"، الذي يمثل الرأي الجماعي الجماهيري السوري المعبر عن نبض الشارع الحقيقي.ليس في سجل جامعة الأنظمة العربية أي انجاز على الإطلاق منذ تأسيسها، وتاريخها عبارة عن سلسلة من الإخفاقات والفشل، ولكن فشل المراقبين في سوريا سيضع مستقبل الجامعة كله في مهب الريح وربما يكون الرصاصة الأخيرة التي تقضي عليها.

برتوكول الموت
يغرق سوريا في الدم

خرج عضو بعثة المراقبين العرب إلى سوريا، الجزائري أنور مالك عن صمته،واعتبر ان "البعثة العربية عاجزة ببروتوكول ميت، لا يتماشى مع الواقع، ومراقبين تحكمهم قيود حكوماتهم وأشياء أخرى وقال: ان الدماء في سوريا لم تتوقف، فيوميًا نقف على جثث في حال لا تخطر على عقل بشر، والعنف في تصاعد، ونحن عاجزون عن فعل أي شيء للضحايا ممن يطالهم القنص والقصف والاغتيال، فالاختطاف مستمر والتعذيب فاق الحدود.. سوريا تتجه نحو الدمار والحرب الأهلية، التي تغذى بالطائفية، والنظام لا همّ له إلا البقاء في الحكم على حساب واقع مأساوي.. الأحياء المنكوبة لن تتراجع، بعد الذي تعرّضت له، ولا تزال، فالوقت يجري نحو أفق آخر، لا نرضاه لهذا البلد الطيب.. أبرّئ ذمتي للشعب السوري البطل من مسرحية ولدت ميتة، وصارت عمياء، غابت الحقيقة وغاب الحق، وغربت شمس العرب في دهاليز الشام الحزينة". أما رئيس الوزراء القطري الشيخ حمد بن جاسم آل ثاني فمارس صراحته المعهودة وقال: "سوريا لا تنفذ الاتفاقية التي أبرمت مع الجامعة العربية بهدف وقف العنف في البلاد.. لا يمكن أن نكون هناك لإضاعة الوقت.. القتل مستمر إذا لم يتوقف القتل فورا فانا اعتقد إن وجود البعثة وعدمه واحد، بل نكون طرفا فيما يجرى في سوريا..الجامعة العربية أرسلت المراقبين بناء على موافقة دمشق على البرتوكول الذي ينص على بنود كثيرة، وعندما وقعت أرسل المراقبون لمراقبة التنفيذ ولكن لم ينفذ شيء للأسف الشديد.. الجيش السوري الملزم بالانسحاب من المدن السورية وفقا للاتفاق لم ينسحب، وعمليات القتل لم تتوقف خلال الأيام العشرة التي قضاها المراقبون العرب في سوريا.. الأخبار ليست طيبة للأسف الشديد ."هذا التصريحان لعضو بعثة المراقبين العرب ورئيس الوزراء القطري تميط اللثام عما يجري في سوريا على لسان شاهد عيان محايد ومسؤول عربي كبير،

وفيهما تنبيه إلى ألاعيب النظام البعثي السوري وإغراقه الأمة العربية والمراقبين في تفاصيل مضللة "اللف والدوران" والمراوغة التي يتقنها نظام بشار الأسد المستمر بسفك الدماء وقتل الأبرياء.لا يجوز للعرب الوقوف عند حافة التصريحات، ولا بد من الانتقال إلى الفعل لإنقاذ الشعب السوري من الموت اليومي، وبعبارات أكثر صراحة، فان الحل في سوريا سيكون على المثال الليبي، فهذا النظام الدموي بقيادة بشار الأسد لن يرحل بدون حرب، ستقع عاجلا أم آجلا.من الأفضل للعرب التدخل في سوريا، لوقف نزيف الدم، بمساعدة تركيا وفرنسا والدول الراغبة للإطاحة بنظام بشار الأسد، وبغير ذلك فان سوريا سوف تتحول إلى عراق ثان، وستنشب حربا أهلية طائفية، ربما تمتد إلى لبنان، وعندها سيكتمل خط النار من العراق إلى سوريا ولبنان، وربما تتدحرج إلى حرب مع إسرائيل اذا قرر حزب الله تخفيف الضغط عن سوريا بفتح جبهة في جنوب لبنان، وهذا الاحتمال وارد، مما يدخل إسرائيل على الخط ويخلط الأوراق ويشعل نارا كبيرة في المنطقة لن تستثني أحدا، خاصة إذا قررت إيران التصعيد في الخليج، وانسحبت القوات الأمريكية من أفغانستان مبكرا لإتاحة الفرصة أمام طالبان لشن حرب على إيران من الشرق لتصفية حسابها الطويل معها.. انه سيناريو الجنون بعينه، لكنه سيناريو ممكن جدا، وربما يتطور إلى ما هو اخطر واعقد من ذلك.رحيل نظام الأسد مصلحة عربية وتركية وإيرانية ولبنانية، ومن يتصور أن بقاء هذا النظام سيخدمه فهو واهم، فنظام بشار الأسد، ليس أكثر من نظام طائفي يستند إلى فرشة إيديولوجية تستخدم أداة حزبية، وهو في حالة حرب مع الشعب السوري كله باستثناء الطائفة التي يمثلها ويدافع عن مصالحها، ولن يبكي عليه احد إذا رحل، وهذا يتطلب حملة دبلوماسية عربية كبيرة لإقناع إيران وحزب الله وروسيا والصين بالتخلي عن هذا النظام الذي يقتل شعبه، ولن يتم ذلك إلا بتوفير مرجعية للمعارضة السورية المفككة والضعيفة والمرتبكة والمنقسمة على نفسها، لتكون راس حربة التحرك العربي في العالم.لا يوجد إلا خيار واحد وهو رحيل النظام بشار الأسد، مع إعطاء ضمانات لأتباع الديانة العلوية "النصيرية القرامطة"، وتامين غير المتورطين منهم بسفك دماء السوريين الأبرياء على أرواحهم وممتلكاتهم لإقناعهم بفك ارتباطهم مع هذا النظام، لان نظام الأسد يعمل على تعبئة العلويين وزرع الخوف في قلوبهم من باقي إفراد الشعب، وهذا ما ينبغي أن نتحدث عنه صراحة وبدون مواربة، وعلينا أن نصف الأمور كما هي بدون لف ودوران.الشعب السوري لن يتراجع عن هدفه لإسقاط النظام البعثي بقيادة بشار الأسد، وهو موقف يؤكده السوريون يوما بعد يوم منذ ١٠ اشهر، ورغم سقوط ٦٥٠٠ شهيد، و ١٧٠٠٠ مفقود و٢٠٠٠٠ جريح و١٠٠٠٠٠ مشرد وآلاف المطاردين، ورغم حصار حمص وحماة ودرعا ودير الزور وغيرها من المدن والقرى، وعلى

العرب أن يساعدوا الشعب السوري على تحقيق هدفه بـالتخلص مـن نظـام الأسـد الـدموي، ومحاكمة رموزه بتهم ارتكاب جرائم حرب وجرائم ضد الإنسـانية.. وأي حـل غـير هـذا يعنـي إضاعة للوقت ومشاركة في سفك دم الشعب السوري، فمن يمـنح النظـام البعثـي المزيـد مـن الفرص والمهل شريك في الجريمة والقتل وسفك الدماء.

يحدث في اليمن

تتصاعد الاحتجاجات في اليمن بوتيرة سريعة، ورغم أن الثورة في اليمن لم تحظ بتغطية إعلامية منصفة بسبب الثورة الدامية في ليبيا، إلا أنها لا تقل أهمية عما جرى في تونس ومصر وما يجري حاليا في ليبيا التي جذبت انتباه كل الصحفيين والفضائيات ووكالات الأنباء.

يمكن القول إن الثورة اليمنية "نبيلة وراقية وسلمية"، لكن النظام اليمني يحاول جر

المحتجين من التظاهر السلمي إلى الصراع المسلح باستخدامه أدوات العنف والرصاص الحي، وقنابل الغاز، حيث أقدمت "جهات؟" على قصف المحتجين اليمنيين في ساحة التغيير بقنابل تسبب تشنج الأعصاب والارتعاش وعدم القدرة على التنفس والاختناق كما قال بعض الأطباء الذين عالجوا المصابين، مما أدى إلى إصابة ما بين ألف شخص على الأقل.

لكن أغرب ما في هذا المشهد أن أحد أركان الحزب الحاكم قال إن قوات الأمن لم تهاجم المحتجين وإن ما جرى كان اشتباكات بين المؤيدين للرئيس اليمني علي صالح والمعارضين له، وهذا النفي فيه إدانة كبيرة للسلطة، فمن يمتلك مثل هذه القنابل التي يفترض أن الحكومة تحتكرها؟ وهل يمتلك البلطجية الذين هاجموا المعتصمين في ساحة التغيير مثل هذه القنابل؟ وإذا كانت معهم فعلا من أين حصلوا عليها؟ وإذا لم يكونوا هم الذين أطلقوها فمن أطلقها إذن؟ وما هي طبيعة الغاز الذي تحتويه هذه القنابل؟

لا نريد إن نقفز إلى استنتاجات تقود إلى إصدار أحكام خاطئة، ولكن السلطات في اليمن مطالبة بتفسير حقيقة ما جرى ونقلته الفضائيات ووكالات الأنباء واليوتيوب والفيسبوك

وشهود العيان من أطباء عالجوا المصابين، وبطبيعة الحال فإن التحليلات المخبرية

لعبوات هذه القنابل ستقود الى الحقيقة بلا ريب.

النظام في اليمن ينزلق من خطأ إلى خطأ، ويستخدم إستراتيجية "القطارة" و "نقطة نقطة" في تقديم الحلول، وفي كل مرة يقدم عرضا يكون الوقت قد انتهى وفات أوانه.. فالرئيس الذي يطالب الشعب برحيله بدأ إستراتيجيته بالعناد الكامل ثم نصف عناد ثم ربع عناد،

وهكذا، وهو عناد يشترك فيه علي صالح مع الرئيسين المخلوعين زين العابدين بن علي وحسني مبارك والعقيد القذافي، لكن الأول هرب والثاني، الذي وصف نفسه بأنه يحمل دكتوراه في العناد، تنحى، والثالث يخوض حربا دامية لن ينتصر فيها أبدا، ومصير "الرئيس العنيد" في اليمن لن يكون بدعا من القول، إذا استمر في سياسة أسلافه الرافضة للاستجابة للمطالب الشعبية.

المتظاهرون اليمنيون أعلنوا "مطالب الثورة الشبابية السبعة " لإنهاء الاحتجاجات وهي "رحيل صالح عن السلطة ورحيل أقربائه الذين يتولون قيادة الجيش والأمن وتشكيل مجلس انتقالي يضم أربعة مدنيين وممثل عن العسكريين، ثم تشكيل جمعية انتقالية تتولى إقرار دستور جديد للبلاد وفقا لنظام الحكم البرلماني، وبعد ذلك تشكيل حكومة انتقالية تتولى الإشراف على إجراء انتخابات حرة ونزيهة، وإقامة دولة مدنية ومحاكمة الضالعين في أحداث العنف وتعويضهم وتعويض أسرهم"، وهي مطالب أعلنوا أنها غير قابلة للمساومة،

وبالتالي فإن تأخر الرئيس اليمني عن الاستجابة لها سيعمق الأزمة أكثر في اليمن حتى لو استخدم كل ما يملكه من أسلحة.

إرادة الشعوب لا تقهر، ولا أحد في الدنيا يستطيع أن يعيد الجماهير إلى بيوتها إذا

نزلت إلى الشوارع، ولا يوجد قوة في العالم تستطيع أن تلجم شعبا إذا اجتاز خط الدم، فعندما تسفك دماء الشعوب فإن ذلك يعني الانتقال من المفاضلة إلى المفاصلة، ومن الحل الوسط إلى حل "كل شيء أو لاشيء"، وما يجري في ليبيا أكبر دليل على ذلك.

الرقص فوق رؤوس الثعابين

يثير الرئيس اليمني علي عبد الله صالح الزوابع والغبار لتشتيت الانتباه عن الرفض الشعبي لحكمه الذي استمر أكثر من ثلاثة عقود،ولا شك أنه استطاع أن يحكم اليمن ٣٣ عاما من خلال مناورات مكنته من اللعب على الاختلافات والتناقضات القبلية والدينية والبؤس المعيشي داخليا وإثارة مخاوف دول الجوار خارجيا، ونجح بتسويق "تهديد القاعدة" لجني الكثير من المال من أطراف عربية وإقليمية لتدعيم أركان حكمه وتمويله.

صالح يحاول هذه المرة إثارة الغبار من اجل التنصل من استحقاقات المرحلة عبر توجيه سهامه السامة لقطر واتهامها "بتمويل الفوضى في اليمن وفي مصر وفي سوريا في كل الوطن العربي.. عندهم مال كثير وتعدادهم صغير، فعندهم مال لا يعرفون كيف يتصرفون به ويريدون أن يكونوا دولة عظمى في المنطقة، دولة عظمى من خلال قناة الجزيرة". متخيلا أن قطر ربما "تكون حيطة واطية"، يمكنه القفز عنها بسهولة للتحايل على اليمنيين الذين وصفهم بأنهم " خونة وعملاء وقطاع طرق".

هذه الغبار يذكرنا باتهاماته لأمريكا وإسرائيل بالسعي لتقويض حكمه وتغير شكل المنطقة عندما، ثم عاد سريعا ليعلن التوبة والندم ويعتذر عن هذه التصريحات، بعد أن اكتشف أن "اللعب مع الكبار قد يحرق أصابعه".

يعلم صالح أن قطر لم تكن يوما إلا جسرا للخير، ولم تكن يوما إلا نبعا لخير يتدفق على العرب في كل الدول العربية، ويعلم أن قطر لم تستخدم المال إلا من اجل وقف الحرب في اليمن، ومن اجل لم الشمل والتنمية ودعم الصحة والتعليم والسياحة والآثار لا لشيء سوى حبها لليمن وشعبها، لأنه أصل العرب ومسقط روحهم وحضارتهم، ولأنها مهوى الأفئدة المحبة لكل ما هو عربي. فقطر لم تدفع فلسا واحدا ثمنا لطلقة يطلقها يمني على أخيه اليمني، لكن علي صالح ربما يعتبر المال الداخل إلى اليمن كأنه غير موجود إذا لم يدخل من جيبه.

من يقدم على وصف شعب يحكمه بأنه "خونة وعملاء وقطاع طرق" ويلمز من قناة حرائر اليمن العربيات ويتهمهن ب"الاختلاط". ليس غريبا عليها أن يكيل اقدح الأوصاف لقطر الذي لم تمد إلى اليمن وشعبه إلا أياد بيضاء من غير سوء ولا منة، فهي يد الشقيق للشقيق.

مشكلة علي صالح انه ما زال يناور، ويستخدم أساليب قديمة في اللعب على الشعوب، وهي أساليب بالية لم تعد تنفع، فهي تفتح طرقا لمغامرات لا تنتهي إلا بكوارث، ومحاولته التحريض على قطر والالتفاف على المبادرة الخليجية واستخدامها كأداة للإطاحة بآمال الشعب اليمني الذي يطالب برحيله ستنتهي بالفشل، واستخدامه تكتيكات "الفوضى الخلاقة"، لقسم الشارع وشراء الأتباع وحشد الأنصار وتسعير الحرب الإعلامية وقتل المتظاهرين من اجل تفجير حرب في اليمن على الطريقة الليبية، لن ينجح لان الشعب اليمني أذكى وأكثر حكمة مما يعتقد.

نعلم تماما أن علي صالح يريد استخدام الاتفاق لتحقيق مآربه وإذا لم يستطع الوصول إلى ذلك فانه سيشعل حربا لا محالة، وهي يريد الحصول على حصانة تبعده عن شبح مصير حسني مبارك المرعب، وهو شبح سيلازمه طويلا حسب منظمة هيومان رايتس ووتش التي قالت إن "الرئيس صالح والذين ينفذون أوامره يجب أن ينتبهوا، لن يعفيكم أي اتفاق حصانة من المسؤولية عن القتل غير المشروع". أي أن الحساب آت مهما كانت الألاعيب والمناورات، فعندما يسفك الدم فهذا يعني أن هناك ثمنا سيدفع.

ذات يوم وصف الرئيس صالح حكم اليمن انه مثل الرقص فوق رؤوس الثعابين، ويبدو انه نسي أن الثعابين تلدغ أحيانا.

الأفاعي تلدغ صالح

أخيرا لدغت الأفاعي الرئيس اليمني علي عبد الله صالح صاحب المقولة المشهورة إن حكم اليمن مثل "الرقص على رؤوس الثعابين"، هذا الرجل الذي تفرد بادراه البلاد ٣٣ عاما ولعب على التناقضات القبلية والعقائدية واستخدام ورقة القاعدة للاستمرار في السلطة.

أخطا علي صالح عندما أعماه حب السلطة عن قراءة التحولات التاريخية الكبيرة في اليمن والمنطقة وظن انه سيكون قادرا على التغلب على ما يجري عبر الكذب والتدليس والخداع " واللف والدوران"، ولم يستطع أن يرى الحقيقة على الأرض، ولم يقتنع أن ملايين اليمنيين خرجوا للمطالبة برحيله في كل المدن اليمنية، وتحول من رئيس دولة إلى "زعيم مظاهرات" يخرج كل يوم جمعة لقيادة من يجمعهم لمناصرته، وعندما وجد أن الأمور صارت قاب قوسين أو أدنى من الإفلات من يده، هدد بإشعال حرب أهلية في البلاد، فكان رد اليمنيين "سلمية ..سلمية"، ورفضوا الانجرار إلى الحرب رغم امتلاكهم لما يقرب من ٨٠ مليون قطعة سلاح، فما كان منه إلا أن قفز إلى الخطة الجنونية وهي تفعيل إشعال الحرب بقصف منزل الشيخ صادق الأحمر أثناء اجتماع لزعماء القبائل وشخصية أمنية كبيرة كانت تقوم بواسطة للخروج من الأزمة.. كان يريد التخلص من الجميع بضربة واحدة وإشعال الحرب الأهلية في نفس الوقت، ونجح جزئيا في إشعال حرب محدودة، ولم يكن يتصور أن الإقدام على قصف منزل الشيخ صادق الأحمر، شيخ مشايخ حاشد، ستكون الورقة الأخيرة التي ستقضي عليه، فقد توعد الشيخ صادق الأحمر بإخراجه من اليمن "حافي القدمين"، وفعلا وفى بوعده وأخرجه ليس حافي القدمين فقط، بل على نقالة يعاني سكرات الموت، تسكن الشظايا صدره وتحت قلبه، وقد احترق وجهه.

هذه المرة لم يستطع صالح أن يرقص على رؤوس الأفاعي، وعندما حاول أن يلعب معها لدغته تلك اللدغة القاتلة، لقد أخطا الحساب والتقدير عندما حاول إثارة العامل القبلي

لإشعال نار الحرب، ونسي أو ربما لم يتعلم أن العبث مع القبائل لا يقود إلا إلى الموت، وانـه لا يوجد في التاريخ أي إمبراطورية، وليس فقط دولة أو حاكم، استطاعت أن تنـتصر عـلى قبائـل تحترف الحرب، وتقاتل بلا هـوادة، ونسي أن ينظـر باتجـاه أفغانسـتان، حيـث تقـارع طالبـان حوالي ٢٠٠ ألف جندي من ٤٢ دولة ومعهـم جيـوش مـن المرتزقـة، ومـع هـذا لم تسـتطع أن تنتصر، بل أقرت بالهزيمة عندما صرح وزير الدفاع الأمريكي روبرت غيتس صرح قبـل أيـام أن لا حل عسكريا مع طالبان وان المطلوب حل سياسي، ويعلن عن سحب القوات الأمريكية مـن هناك.

لم يستفد صالح من دروس الثورات في تونس ومصر، وظـن أن الشـعب اليمنـي لا يتمتـع بنفس الإرادة والتصميم للإطاحة بحكمه كما فعـل التونسـيون بـبن عـلي والمصريـون بمبـارك، فكانت النتيجة نموذجا ثالثا من نماذج الهزيمة للحكام العرب، الأول هروب بن علي من تونس إلى جدة، والثاني خلع مبارك ومحاكمته، والثالث إخراج علي صالح مـن الـيمن حـافي القـدمين على نقالة، وننتظر النموذج الرابع والخامس في ليبيا وسوريا، ولا ندري على أي شاكلة ستكون نهاية عقيد ليبيا ودكتور سوريا، وهما اللذان عَبدا طريقهما بالدم والجثث والدمار.

لم تنته القصة في اليمن بعد، فعلي صالح الذي أشعل النار فأحرقته، انتقـل إلى السـعودية كي يتعالج، لكنه ترك ٣٥ من أبنائه وأبناء أخوته وأقاربـه يـديرون الحـرب في الـبلاد، و كشـف ذلك على أن صالح كان يدير اليمن مثل مزرعة شخصية له وأبنائه وأقاربه.

لم يترك صالح في اليمن أي شيء يحمد عليه، فاليمن بلد يحتل أدنى مرتبة في العـالم علميـا وصحيا ويفتقر للبنية التحتية .. لقد ترك البلد خرابا، حكمه ثلاثة عقود دون أي انجـاز يـذكر اللهم إلا وصفه اليمنين بأنهم ثعابين وتفاخر بقدرته على الرقص على رؤوسهم، وهو التفـاخر الذي سيندم عليه، إذا كان لديه ما يكفي من الوقت لكي يندم.

توكل.. الأكثر ثورية في التاريخ

ليس في تاريخ اليمن كله امرأة أشهر من الملكة بلقيس، التي قادت دولة مزدهرة، كانت عنوانا لنهضة حضارية دفعت العالم إلى قرن اليمن بالسعادة فأصبح "اليمن السعيد"، وصارت الجنة توصف ب"جنة عدن".

اليوم وبعد قرون من الملكة بلقيس، تظهر على الساحة ملكة أخرى إنها "الملكة توكل كرمان"، ملكة الاعتصام والمظاهرات والاحتجاجات وساحات التحرير وميادين المواجهة مع الظلم والاستبداد، فعلى الرغم من كونها أما لثلاثة أطفال لم تتردد عن خوض المعركة ضد الرئيس المزمن "علي عبد الله صالح" الذي يتشبث بالسلطة حتى الموت.

وإذا كان المجتمع العربي في معظمه، وخاصة في اليمن، مجتمع ذكوري لا يرى المرأة إلا "عورة"، وعيبا يجب أن يتم إخفاؤه، فان توكل كسرت ثقافة العيب" وخرجت إلى الشوارع وقادت المظاهرات، بصحبة أخواتها من حرائر اليمن، ودفعت العالم إلى الاعتراف بالثورة السلمية للشعب اليمني، مما دفع مجلة تايم الأمريكية إلى تصنيفها بوصفها "المرأة الأكثر ثورية في التاريخ"، وتحتل المرتبة ١١ على قائمة أكثر ١٠٠ شخصية مؤثرة خلال العالم الحالي، واختارتها منظمة مراسلون بلا حدود كواحدة من ٧ أحدثن تغيير في العالم.

فهذه الشابة الثلاثينية اختارت أن تكون في الصف الأول لمواجهة عساكر علي صالح وبلاطجته، وتعرضت للاختطاف في شهر يناير الماضي وأطلق سراحها بعد ساعات، بعدما أيقنت السلطة أن الاحتفاظ بها سيشعل النار في اليمن، فكانت جمرة لم يستطع نظام صالح الإمساك بها.

توكل عبد السلام خالد كرمان، لم تأت من فراغ، فهي نبت له جذور ضاربة في أعماق اليمن، فهي تحمل الماجستير في العلوم السياسية، وبكالوريوس في التجارة ودبلوما في التربية،

وهي كاتبة صحافية ورئيسة منظمة صحفيات بلا قيود وناشطة وأديبة وشاعرة. وواحدة من أبرز المدافعات عن حرية الصحافة وحقوق المرأة وحقوق الإنسان في اليمن، وهي عضو مجلس شورى لحزب التجمع اليمني للإصلاح اللقاء المشترك المعارض، عرفت بشجاعتها وجرأتها على قول الحق ومناهضة انتهاكات حقوق الإنسان والفساد المالي والإداري، ومطالبتها بالإصلاح السياسي والديني، والاهم من هذا كله أنها كانت دائما في طليعة الثوار الذين طالبوا بإسقاط نظام علي صالح، مما جعل منها قيادية بارزة وأيقونة قيادية في الثورة الشعبية السلمية في اليمن.

توكل كرمان إلى جانب شابات أخريات مثل أسماء محفوظ، وإسراء عبد الفتاح في مصر، عنوان المرحلة الجديدة في العالم العربي، مرحلة التمرد على الظلم وعلى التسلط السياسي والاجتماعي، وبداية قبول المرأة القائدة في المجتمع والدولة، عن طيب خاطر، فنساء مثل توكل وأسماء وإسراء، وقبلهن بالطبع توجان فيصل في الأردن، والنساء الفلسطينيات، وإلى جانبهن حرائر العرب من تونس وليبيا وسوريا إعلان لولادة العصر الجديد للأمة، وتأسيس للشراكة الاجتماعية المتساوية، وتكريس لإستراتيجية "نبني حاضرنا ومستقبلنا يدا بيد"، بدون وصاية من احد، ودون تسلط أو تهميش أو إلغاء للمرأة.

منح جائزة نوبل لتوكل كرمان، اعتراف عالمي بدور المرأة العربية، فهذه السيدة المحجبة التي تنتمي إلى حزب ديني، وتعيش في مجتمع غارق في الذكورية، دفعت العالم إلى رؤية الوجه الآخر للمرأة العربية القادرة على صناعة التاريخ وتحريكه، وعلى قيادة المجتمع بثبات وقوة.

توكل وأسماء وإسراء جزء من العصر العربي الجديد، عصر الشجاعة والثورة من اجل الوصول إلى الحرية والعدالة والكرامة.

البحرين.. صاعق تفجير المنطقة

تحتاج البحرين إلى مراجعة شاملة لأوضاعها للحيلولة دون تعميق الانقسام الاجتماعي، في مجتمع منقسم، لكي لا تتحول إلى صاعق تفجير لمنطقة الخليج العربي التي تتبرص بها الدول الكبرى وإيران وإسرائيل، فخروج الوضع هناك على السيطرة لا يؤثر على البحرين فقط بل يؤثر على كل الدول الخليجية العربية، وقد وصف مسؤول أمريكي المشهد بقوله:" "الوضع حساس جدا في البحرين ولا يمكننا أن نعرف ماذا يمكن أن يتغير".. وهو كلام واضح يعبر عن تغيرات مقبلة، وهي تغيرات يمكن أن تدفع البحرين ثمنها من استقرارها الاجتماعي وانقسامها على الطريقة اللبنانية أو حتى تهديدها وجوديا على الطريقة العراقية، وهذا يعتمد على السيناريو الذي يمكن أن يجد طريقه للتطبيق، واحتمالات عقد صفقة بين الأمريكيين والإيرانيين لترتيب أوضاع المنطقة، وهي احتمالات ممكنة الحدوث، فالولايات المتحدة والدول الأوروبية تتحرك بغريزة الحفاظ على مصالحها على قاعدة " مصالح دائمة لا اصدقاء دائمون"، وليس أسهل على الأمريكيين والأوروبيين من تغيير التحالفات إذا اقتضت الضرورة ذلك بالنسبة لهم، و"بيع البحرين" في حال دفع الثمن المطلوب.ولذلك من الحماقة الثقة المفرطة بالأمريكيين أو الأوربيين

ومن هنا فان القراءة الحكيمة للوضع في البحرين والخليج العربي يتطلب الاقتراب من الواقع لمشاهدة التفاصيل والتعامل معها لاحتواء الأزمة ومن ثم فكفكتها وصياغة عقد اجتماعي جديد يقوم على التوافق والرضى بين الجميع، لان الحل الأمني لن يستطيع كبح جماح الرفض أو التمرد ، فخارطة المجتمع في البحرين تغيرات وكذلك تغيرت موازين القوى الداخلية وهذا يعني تغيرا في الخريطة الجيوسياسية للبحرين الى واحد من أربعة احتمالات هي: انقسام البحرين طائفيا على الطريقة اللبنانية، أو ابتلاع إيران للبحرين بشكل كامل، أو اندماج البحرين مع السعودية، والاحتمال الرابع هو تمكن النظام الحاكم في البحرين من معالجة المشكلة من جذورها بشكل ودي ومقبول.

الاحتمالات الثلاثة الأولى تعني وصفة أكيدة للحرب والعنف، فالسعودية لن تسمح لإيران بابتلاع البحرين، وإيران لن تسمح للسعودية بضمها، والانقسام الطائفي يعني الحرب الأهلية. وهذا يعني أن الخيار الرابع هو الأفضل والأقل كلفة، سياسيا واجتماعيا واقتصاديا، وهذا الخيار لا يحتاج إلى مماطلة وتسويف ومراوغة وإهدار للوقت، بل يحتاج إلى خطة عمل واضحة المعالم بأجندة زمنية محددة وبخطوات واضحة تتضمن: الإفراج عن كل المعتقلين السياسيين، والسجناء على خلفية المظاهرات الأخيرة، باستثناء المتهمين بالقتل، بلا قيد أو شرط، ووقف عمليات التعذيب الممنهجة، وإلغاء السجون السرية، والسماح لوسائل الإعلام بالعمل بحرية وإعادة المفصولين إلى وظائفهم ووقف عمليات الفصل التعسفي، والحد من صلاحيات الأجهزة الأمنية ووقف تدخلها في الحياة العامة والمساواة بين الناس في الوظائف الحكومية، توزيع عادل للثروة، وتقديم خدمات متساوية لجميع المناطق بدون تحيز أو تمييز، وإقرار قانون انتخاب متوازن يضمن تمثيل جميع الفئات الشعبية، وإجراء انتخابات حرة نزيهة وتشكيل حكومة يتم التوافق عليها ومنح الشباب فرصة المشاركة في العمل العام والعمل السياسي وان يكونوا جزءا من التركيبة الحكومية، وإحالة الوجوه القديمة إلى التقاعد، إذ لا يعقل أن يبقى مسؤول في منصبه ما يقرب من نصف قرن.

وفي مقابل هذا يقبل الشيعة بالملكية في البحرين ويكفون عن الارتماء في الحضن الإيراني، الذي يستخدمهم ويستخدم سواهم من الشيعة العرب، من اجل منذ النفوذ الفارسي في المنطقة العربية، وتتوافق على هوية عربية بحرينية جامعة تقوم على أساس المساواة بين الجميع، والكف عن السعي لإقامة كيان شيعي "مادي أو معنوي" في البحرين لان الأغلبية من سكان المنطقة لن يسمحوا بذلك، والاستعاضة عن ذلك بان يكونوا جزءا أصيلا من دولة مدنية تقوم على التسامح الديني، وطمأنة الأغلبية من عدم وجود مخططات للاستيلاء على السلطة، لان المسلمين السنة في الخليج العربية لن يسمحوا بإقامة سلطة شيعية في البحرين، وهنا لا اقصد الحكومات بل الشعوب، وأي محاولة من هذا القبيل ستقود البحرين إلى مصير شبيه بالعراق، وربما انتقال المشكلة مناطق أخرى في الخليج العربي، مما يعني تحويل المنطقة إلى بركان.

من حق الشيعة في البحرين أن يكونوا متساوين في الحقوق والواجبات، ومن حق الأغلبية أن تحصل على ضمانات بعدم وجود مخططات سرية وخفية، ومن واجب الحكومة في البحرين أن تقوم بواجبها وان تجري مراجعات لسياساتها و تغير خطابها ومقارباتها للحل ووقف "التسونامي الطائفي" وان تعمل بجد لبناء دولة مدنية تسود فيها الحريات ويتوقف فيها انتهاك حقوق الإنسان لإصلاح "المجتمع المكسور" في البحرين.

وعلى الدول الخليجية أن تساهم في الحل، وعدم الاستهانة بما يجري في البحرين لأنها تمر في مرحلة فاصلة بين زمنين، ولان اشتعال النار هناك يعني بكل بساطها انتقالها إلى الجميع، فليس هناك من هو في منأى عن الاحتراق أو التعرض للفحها وشواظها، فاستقرار البحرين صمام أمان لكل المنظومة الخليجية، ووقف التدخل الإيراني الذي دمر العراق، وقد يكون سببا بتدمير البحرين أيضا.

البحرين.. زمن جديد وتفكير قديم

أعجبتني عبارة شهيرة تنسب لبيل غيتس ،مؤسس شركة مايكروسوف الشهيرة واغنى رجل في العالم، عندما سأل: لماذا نجحت وفشل الاخرون؟ فاجاب لانني انعطفت مع التاريخ في حين اصر الاخرون على السير في نفس الاتجاه فوصلوا الى الحائط المسدود! وهي اجابة بليغة تنطبق على الافراد كما تنطبق على المجتمعات والدول..

استهل بهذه المقدمة للولوج الى الاوضاع في البحرين، الجزيرة العربية التي تواجه اوقاتا صعبة، وتصدعا في البنية الاجتماعية، وانقسامات طائفية تحولت الى حالة عاصفة من الاحتجاجات استدعت تدخل قوات من دول مجلس التعاون الخليجي للحيلولة دون تدهور الامور.

هذه الوقائع تحولت الى حقائق على شاشات التلفزة والفضائيات والموقع الالكترونية وشبكة الانترنت ومواقع التواصل الاجتماع مثل التويتر والفيسبوك واليوتيوب، وشاهدها العالم بالصوت والصورة، وتفاعل معها بكل جدية واعترف بها العالم لكن المنظومة الوحيدة التي لم تعترف بهذه الحقائق هي الحكومة البحرينية التي عمدت الى هدم دوار اللؤلؤة في تصرف "ساذج" لانكار التململ الاجتماعي، وكان هدم الدوار سينهي المشكلة الى الابد.

يذكرني ما فعلته الحكومة البحرينية بمقبرة كانت على بعد كيلومترات من بيتنا عندما كنت صغيرا، وعندما كنت اضطر للخروج من المنزل في ساعة متاخرة من الليل لاحضار شيء للمنزل كنت اغمض عيني عندما اقترب من المقبرة كي اشعر بالامان، وكانني اردت نفي وجود المقبرة، لكنه كان شعورا كاذبا، لانني كنت اعرف في قرارة نفسي انه امان كاذب، ومع ذلك كنت استمر باغماض عيني.

الحكومة البحرينية تفعل نفس الشيء، تغمض عينيها عن رؤية الاحتجاجات والتململ الاجتماعي، لكي تشعر بطمأنية زائفة، وتتخيل ان الامور على مايرام، وتمضي قدما وكان لا شيء

يحدث، وسرعان ما تثور عندما ياتي من "يقرصها" لكي تصحو من حلم الطمانية الزائفة، وتنظر الى ما يجري حولها، وهذا بالضبط ما حدث مع الحكومة البحرينية عندما شاهدت الفيلم الوثائقي "صراخ في الظلام" الذي عرضته قناة الجزيرة الانجليزية، فكان هذا الفلم بمثابة "القرصة" التي ايقظتها وايقظت صحافتها واعلامها، وخرجت من حالة الانكار، على غير رضى، لتتذكر وجود اوضاع اجتماعية مضطربة وانتهاكات لحقوق الانسان وتجاوزات لا بد من وقفها، وهي امور اقرت بها ضمنيا حين شكلت لجنة قانونية لبحث المظالم والشكاوى.

ومن هنا فان الفيلم الوثائقي لم يزيف الاحداث ، بل كان نقلا لوقائع تجري على الارض، رفضت الحكومة البحرينية ان تعلق عليها لدحض ما تعتقد انه "اكاذيب وافتراءات" واغمضت عينيها خوفا من "المقبرة" بحثا عن الطمانينة الزائفة. وبدل ان تناقش ما تضمنه الفيلم من "افتراءات"، عمدت الى استخدام لغة خشبية مثل وصف وزير الخارجية البحريني قطر "بالعدو وانها تكن لمملكة البحرين عداء غير مفهوم وأن الفيلم خرب جهود رأب الصدع وأعاد الأوضاع في البحرين إلى نقطة الصفر"، وتحول عرض الفيلم الى حفلة لمهاجمة قطر من قبل "كتاب التدخل السريع"، باستخدام منظومة من المصطلحات مثل " اجندة خفية ومفبركة ومشبوهة ومؤامرة وفتنة وافتراءات واساءة" وتكليف مسؤول بحريني بإدارة حملة إعلامية تستهدف قناة الجزيرة والحكومة القطرية، من اساليب تعود الى الماضي ولا علاقة لها بالحاضر.

مشكلة الحكومة البحرينية انها ترفض الدخول الى الزمن الجديد وما زالت تفكر بطريقة قديمة وتستخدم ادوات عفا عليها الزمن، فكيل الاتهامات لفيلم وثائقي او مهاجمة قطر لن يحل الازمة الاجتماعية التي تعصف بالبحرين، فالجزيرة لم تكن سببا في اندلاع الاحتجاجات ولم تخلق الانقسامات الطائفية او انسحاب نواب جمعية الوفاق الشيعية من البرلمان ونزولهم الى الميدان او عدم مشاركتهم بالانتخابات وقطر لم تنكأ جراحا في البحرين.

في زمن الثورات العربية لم يعد بالامكان جر الناس الى بيت الطاعة بالسلاسل، والبحرين ليست استثناء، ولا اي دولة عربية، والحلول الامنية لن تجدي نفعا، ولهذا لا بد من الاستجابة لمطالب الشعب والاستجابة لها بدل الدخول في حالة من الصراع الاجتماعي والسياسي يودي بالبلاد والعباد.

لا احد في قطر يرغب بالدخول في حرب "داحس والغبراء" مع البحرين، فالسياسة القطرية تقوم على بناء "جسور المحبة" وتصرف من مال شعبها على الاشقاء دون ان تمن عليهم بذلك، ولم تكن يوما الا بلسما للجراح وليس سكينا يجرح، ويشهد على ذلك لبنان وفلسطين واليمن والسودان والصومال واريتريا وموريتانيا

ولا احد في الدوحة يرغب بالانزلاق على حرب "بسوس جديدة". فمشاكل الامة ومصائبها اعظم من الانزلاق الى مثل هذه المعارك الجانبية، وسيكون من الحكمة للقيادة البحرينية ان تدرك ان الزمن تغير وان تعترف بالمظالم الاجتماعية للناس لكي تشفى البحرين من الجراح وتقطع دابر كل التدخلات الخارجية.

تعلم القيادة البحرينية ان البحرين دون عمقها العربي لا تساوي شيئا، وتعلم انها دون العمق الخليجي العربي ستكون نهبا للاطماع الايرانية المعلنة، ولذلك فمن الحكمة ان تستميل اشقاءها الى جانبها وان تعمل على حل مشاكلها الداخلية بواقعية وان تتعامل مع مطالب المعارضة بجدية وان تبني البحرين الجديدة على اساس المواطنة المتساوية وان يكون ولاء الجميع للبحرين والامة العربية وليس للفقيه القابع في طهران او قم، وان تقطع اليد الايرانية عن التدخل بالشؤون الداخلية عن طريق بناء هوية عربية بحرينية جامعة يكون ولاءها للامة وليس لمن يطالب بضم البحرين.

لا يمكن الا ان نكون من مع البحرين العربية بكل تاريخها وامجادها وعهودها الزاهرة، وبكل ما تشكله من ثقل في التاريخ العربي، ولن نكون يوما مع الاطماع الايرانية مهما جرى، ولكن هذا لا يمنعنا من المطالبة برفع المظالم واطلاق سراح المعتقلين السياسيين واعادة المفصولين الى وظائفهم والكف عن التمييز بين المواطنين البحرينيين واجراء انتخابات نزيهة عادلة شفافة وتشكيل حكومة منتخبة يتم التوافق على شكلها وهي امور لابد منها ولا يمكن تجازوها في الزمن العربي الجديد

وفي المقابل على المعارضة الشيعية البحرينية ان تتواضع في مطالبها وان لا تنزلق الى الحالة العراقية او اللبنانية وان تبتعد عن المربعات الطائفية المقيته وان تكف عن رفع صور خميني وخامنئي التي تعني ولاء لدولة اجنبية.

البحرين بحاجة لمساعدة اشقائها العرب للخروج من ازمتها، وفي مقدمتهم قطر، ولكنها قبل ذلك هي بحاجة الى مساعدة نفسها بالتصالح مع الذات بدل اضاعة الوقت في معارك "دونكيشوتية" مع الجزيرة وقطر.

خطة خليجية لانقاذ الأردن

يقف الاردن على مفترق طرق، فهو يعاني ازمات سياسية واقتصادية واجتماعية، تبدو للوهلة الاولى انها اقل حدة من الازمات في الدول العربية التي اندلعت فيها ثورات بدات لاسباب اقتصادية ومعيشية سرعان ما تحولت الى مطالب سياسية انتهت باسقاط الانظمة.

صحيح ان الازمة في الاردن اقل حدة من الدول العربية الاخرى، فالمملكة الهاشمية حظيت باستقرار معقول ارسى دعائمه ملك الاردن الراحل حسين بن طلال الذي استطاع ان يبني شبكة علاقات داخلية وخارجية فعالة مكنته من التغلب على الازمات الداخلية والخارجية، ولم يكن هناك تاريخ دموي في الاردن، اذا استثنينا احداث ايلول عام ١٩٧٠ بين الجيش الاردني والفصائل الفلسطينية، وهي احداث لايمكن النظر اليها بوصفها تاريخا من القمع ضد افراد، بل صراعا بين طرفين مسلحين. كما استطاع ادارة شبكة من العلاقات الاقليمية والدولية مكنته من تجاوز كثير من المشكلات، ساعدته في الحصول على دعم عربي واجنبي اسهم بتاسيس بنية تحتية جيدة في الاردن.

ولهذا لا يوجد خلاف في الاردن على "الحكم الملكي"، الذي يحظى بقبول الاردنيين على مختلف انتماءاتهم السياسية والفكرية والحزبية والعشائرية، مما يجعل من "مؤسسة العرش" مؤسسة مرجعية مقبولة من جميع الاطراف.

اذا تجاوزنا حالة الاستقرار السياسي "النسبي المعقول والمقبول"، فان "النار تكمن تحت الرماد" بسبب مشاكل اخرى على راسها بالطبع الوضع الاقتصادي، فالاردن يعاني من شح الموارد الاقتصادية، ويعاني من نسبة عالية من الفقر والبطالة ويرزح المواطن الاردني تحت عبء الاسعار المرتفعة والضرائب التي تعتبر الاعلى في العالم، اضافة الى المديونية التي تتفاقم يوما بعد يوم ووصلت الى ارقام فلكية بمقاييس بلد فقير مثل الاردن.

هذا الوضع تعبر عنه بيانات الحكومة الاردنية اذ تشير اخر الاحصائيات الصادرة عن وزارة المالية الاردنية -الى ان المديونية وصلت الى ١٢,١٢٧ مليار دينار "حوالي ١٨ مليار دولار" وانها

ارتفعت في الشهور الاربعة الاولى من العام الجاري بنحو ٦٦٤ مليون دينار،"حوالي مليار دولار"، اي ان المديونية تزيد ١٦٦ مليون دينار شهريا " ٢٣٣ مليون دولار" وهي ارقام مرشحة للزيادة. واذا بقيت مؤشرات المديونية تسير بنفس الاتجاه التصاعدي خلال الاشهر المتبقية من العام الجاري فان صافي الاقتراض الداخلي والخارجي سيصل الى ٢ مليار دينار ليرتفع بذلك صافي المديونية العامة الداخلية والخارجيه عند مستوى ١٣ر٤ ملياردينار " ٢٠ ملار دولار" مقارنة مع ١١ر٥ مليار بنهاية العام ٢٠١٠، مما سيدفع الحكومة الاردنية الى اتخاذ خطوات صعبة مثل رفع اسعار الخدمات والضرائب ويفاقم من الوضع الاقتصادي الصعب في الاردن، وهو ما دفع الخبير الاقتصادي الدكتور جواد العناني وهو رئيس سابق للديوان الملكي ونائب سابق لرئيس الوزراء الى التحذير من اضطرابات محتملة اذا استمر الوضع على حاله، مشيرا الى ان فوائد القروض الخارجية السنوية تبلغ ٤٩٥ مليون دينار "حوالي ٧٠٠ مليون دولار" ، وهو ما دفع اتب الاقتصادي الاردني فهد الفانك الى القول "بمقياس ارتفاع المديونية فإن سنة ٢٠١٠ قد تكون أسوأ سنة مالية في تاريخ الأردن" مما يعني ان الوضع في العام الحالي سيكون اسوأ اذا اخذنا بعين الاعتبار ارتفاع اسعار النفط وتدني تحويلات الإردنيين العاملين في الخليج، وانخفاض عدد السياح وقلة الاستثمارات الخارجية.

الاردن يحتاج الى خطة انقاذ اقتصادية عاجلة قبل ان ينفجر الوضع على غرار اليونان التي اسعفها الاتحاد الاوروبي بمليارات الدولارات، وهاهو على وشك تقديم خطة ثانية للحيلولة دون اعلانها الافلاس، وبالتاكيد فان خطة الانقاذ الخليجية للاردن اقل كلفة بكثير من كلفة انقاذ اليونان، وهي خطة تستطيع دول الخليج العربية تقديمها لانها ستجني الكثير من فوائد دعم الاستقرار في الاردن،فوقوع الاردن في دوامة العنف يفتح الباب امام انتقاله الى الجزيرة العربية، وليس هناك ضمانة تحول دون انتقال الفوضى الى دول الخليج نفسها، ومن هنا فان كلفة الحفاظ على الاستقرار في الاردن اقل بكثير من كلفة حماية الحدود ومنع الفوضى من التمدد.

صحيح ان الاردن فقير اقتصاديا ويعاني من شح الموارد، لكنه يتمتع بموارد بشرية هائلة، تتسم بالحيوية والتاهيل والكفاءة، وهذا يتطلب اعطاء الاولوية في العمل في دول مجلس التعاون للعمالة الاردنية وتنفيذ استثمارات كبيرة في الاردن من شانها تلبية احتياجات الاسواق الخليجية وتشغيل العمالة الاردنية في بلدها.

وهذا يعني ان الاردن يحتاج الى خطة مارشال خليجية قبل ان يفوت الاوان، وهي خطة مفيدة اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا، للاردن والخليج معا، وهي اموال قد تضطر دول الخليج لانفاقها على السلاح والجيوش والامن لدرء مخاطر فوضى محتملة اذا سادت حالة من عدم

الاستقرار على خصرتها الشمالية، هذا بمنطق المصالح والعقل التجاري، اما بمنطق الاخوة العربية والاسلامية والتداخل العشائري فان الاردن اقرب لدول الخليج من الروابط التي تجمع اليونان بالمانيا وفرنسا والاتحاد الاوروبي ، واكثر مما يجمع ايسلندا بروسيا، وهي الدول التي قدمت المليارات لانقاذ اليونان والبرتغال وايرلندا وايسلندا من خطر الافلاس، فالمديونية الاردنية تعاني من "الفلتان" ولن يستطيع الاردن ان يكبح جماحها وحيدا دون مساعدة خليجية كبيرة، وليس من الحكمة الانتظار حتى يقع الاسوأ وينتقل "فلتان" المديونية الى "فلتان" على الارض.

ملك الأردن.. ومعارك الأوهام السياسية

تتفاعل على الساحة الأردنية نقاشات كبيرة وموسعة تطال هوية الأردن ومستقبله ومدى تأثر وضعه الداخلي بتداعيات ما يجري على الساحة الفلسطينية، وهي نقاشات غذتها في الأيام الأخيرة وثائق السفارة الأمريكية في عمان والتي سربها موقع ويكيليكس والتي كشفت عن الانشغال الأمريكي بقضية الهوية والتركيبة السكانية في الأردن.

وتذهب برقيات السفارة الأمريكية في عمان إلى حد وصف مجلس النواب الأردني "بحثالة الأردن" الذي يضم " عصبة من فاشلين مزاجين انتقاميين وبربريين وعديمي الحياء، و قصيري النظر." وتصفه بأنه مجلس "معرقل ومحافظ عشائريا وسلوكيات أعضائه غير مهنية" وان البرلمان الأردني "أسوأ من برلمان زمبابوي"، على حد وصف رئيس وزراء سابق كما نقلت البرقيات.

وتشير الوثائق إلى أن سبب انعدام المهنية في البرلمان يعود إلى "توزيع الدوائر الانتخابية لضمان تعزيز تمثيل المناطق ذات الأغلبية الشرق أردنية على حساب المناطق ذات الكثافة السكانية العالية من الأردنيين من أصول فلسطينية." و"إن نظام الصوت الواحد يشجع على الانتخاب على أساس عشائري." بالإضافة إلى نظام الكوتا النسائية والشركسية-الشيشانية والمسيحية وكوتا البادية.. وتتهم الأجهزة الأمنية بلعب دورا مباشر في إفراز نتائج انتخابات ٢٠٠٧."

ما سربه موقع ويكيليكس من وثائق عن الأردن أثار زوبعة من التعليقات والنقاشات والحوارات بل والدعوة إلى اعتصام أمام السفارة الأمريكية في عمان،كما تدخل العاهل الأردني الملك عبد الله الثاني في النقاشات اعتبر في لقاء مع مجموعة الكتاب والمثقفين انه "يجب أن نتحدث بصوت عال بالنسبة للهوية الأردنية"، وأن "الوطن البديل ليس له وجود إلا في عقول ضعاف النفوس، وما يسمى بالخيار الأردني ليس له مكان في قاموس الأردنيين، مؤكدا أن الحديث حول هذا الموضوع هو وهم سياسي، وأحلام مستحيلة.. وأن "الأردن هو الأردن، و فلسطين هي فلسطين"

وحذر "لن يكون الأردن وطنا بديلا لأحد.. لدينا جيش ومستعدون أن نقاتل من أجل وطننا ومن اجل مستقبل الأردن وأن الأردن سيدافع عن حقوقه ورؤيته لحل نهائي يضمن قيام دولة فلسطينية مستقلة وقابلة للحياة على التراب الوطني الفلسطيني وعاصمتها القدس الشريف، وتطبيق عادل لحق العودة والتعويض".

النقاشات حول الهوية في الأردن لا تعكس الوضع في الشارع المهموم بلقمة العيش وغلاء الأسعار وتردي الوضع الاقتصادي، وإنما تعكس آراء مجموعة من "الشرق أردنيين" تتعامل مع المكون الفلسطيني بوصفه "كتلة بشرية" على حد وصف منظر هذا التيار ناهض حتر، بدون أي حقوق سياسية باستثناء الطعام والشراب، مقابل دعاة "الحقوق المنقوصة" من "الفلسطينيين الذين يحملون الجنسية الأردنية".

يجب الإقرار بوجود استهداف حقيقي للأردنيين من اصل فلسطيني في الأردن في الوظائف العامة والمناصب والتعليم الجامعي والانخراط في الجيش والمؤسسات الأمنية،ولكن هذا لا يعني تحويل القضية إلى "صراع بين هوية أردنية وهوية فلسطينية" وبالتالي التحول إلى نزاعات فرعية هامشية "أردنية فلسطينية" على حساب الصراع الأصلي من إسرائيل التي تحتل فلسطين وتشرد شعبها.

مشكلة السياسة الأردنية أنها مترددة وغير حاسمة فعلى الرغم من وزير الخارجية الأردني ناصر جودة يقول أن أي حل للقضية الفلسطينية "يجب أن يراعي ويلبي كل المصالح الأردنية الحيوية لاسيما إزاء قضايا القدس واللاجئين والأمن والحدود" إلا انه لم يحدد ما هي المصالح الأردنية خاصة فيما يتعلق باللاجئين حتى انه لم يستخدم مصطلح "العودة"، كما أن الملك عبد الله الثاني طالب في معرض حديثه عن الدفاع عن حقوق الأردن ب"تطبيق عادل لحق العودة والتعويض". ولم يحدد ما هو هذا "الحق العادل"، وهل يتضمن بقاء اللاجئين الفلسطينيين في الأردن أم عودتهم إلى فلسطين" أي انه ترك الباب مواربا لكل الحلول الممكنة.

هذا النوع من الخطاب السياسي يربك الداخل الأردني ويزرع بذور الشك ويوفر البيئة الملائمة لنمو "الأعشاب السياسية الضارة" التي تتعامل مع مسالة الهوية كشكل من أشكال "البزنس" السياسي، ومحاولة احتلال مساحات في السلطة. وهي تريد من خلال هذا الخطاب استهداف الملكية في الأردن في الباطن، فهي تعلن التناقض مع "الأردنيين الفلسطينيين والوطن البديل" لكنها في الحقيقة تبطن الهجوم على النظام الملكي.

الملكية في الأردن صمام أمان لكل المجتمع، والملك يشكل مرجعية مقبولة من جميع الأطراف، رغم وجود فساد وأخطاء وعدم شفافية وتغليب فئة على فئة وإقصاء مكونات من المجتمع وتهميش مكونات أخرى.

ففي بلد يتمتع بتركيبة سكانية معقدة مثل الأردن من حيث المكونات العشائرية والجهوية والمناطقية فان من الصعوبة بمكان إحلال نظام غير النظام الملكي، ولكن ولكي يستطيع النظام الملكي الاستمرار وفرض الاستقرار على الأرض فانه مطالب بتفكيك الدولة الأمنية وعدم الاعتماد على "الحل الأمني" للمشكلات القائمة ورفع الظلم عن الفئات المهمشة وفك الحرمان عن الفلسطينيين لتولي الوظائف والمناصب على أساس الكفاءة والنزاهة والخبرة والانتماء، والمساواة بين المواطنين ووقف عملية الإقصاء المعتمدة منذ السبعينيات والعمل على تعميق التناقض مع العدو الفعلي "إسرائيل" بدل من التناقضات الداخلية، ومحاربة الفساد والواسطة والمحسوبية وتوريث المناصب وتفكيك بنية العلاقات القائمة على المصالح المتبادلة، وتبني خطاب سياسي واضح يقوم على تكريس "حق العودة" المقدس للفلسطينيين، وليس " تطبيق عادل لحق العودة" والتأكيد انه لا يوجد للفلسطينيين إلى وطنا واحدا هو "فلسطين".

الخيارات المعقدة أمام النظام الأردني

يواجه النظام الأردني وضعا معقدا مفتوحا على كل الاحتمالات، فالحراك الشعبي يصعد مطالبه بالإصلاح يوما بعد يوم، وقد يتطور الأمر إلى المطالبة بتغيير النظام كله، إذا اخفق الملك عبد الله الثاني بالتعامل مع الملفات السياسية والاقتصادية والاجتماعية المتفجرة.

مشكلة الخطاب الرسمي الأردني انه يحاول التعامل مع الواقع على "أساس ترقيعي" عبر حلول تبسيطية لمشاكل معقدة تتعلق بهوية المجتمع وغياب أو تغييب النخب القيادية وإضعاف الحياة السياسية والحزبية وتهميش منظمات المجتمع المدني والنقابات، والسيطرة على وسائل الإعلام، والتفكير بالحل الأمني كعلاج للازمات المتتالية. مما أدى إلى ارتفاع سقف المطالب بشدة ، وصرنا نسمع انتقادات لاذعة للملك نفسه من قبيل قول المعارض الأردني ليث شبيلات انه لا إصلاح في الأردن ما لم يبدأ الملك بنفسه"، واتهامه الملك برعاية ملفات الفساد، وقوله انه "لا معنى لأي إصلاح لا يبدأ بالديوان الملكي لإعادته إلى شرف هاشميته وتطهيره من الفساد واختلاط الإمارة بالتجارة"، وان الطريق الوحيد للحل هو تصحيح العلاقة مع الشعب "كطريق أسلم" لتجاوز الأزمات، وكف يد جهاز المخابرات "عن التدخل في السياسة والسياسيين، فلا حياة سياسية في ظل التغول الأمني بل وتكاثر أشباه سياسيين يحركهم ضابط أمني صغير". واعتبر أنه "إذا راجع الملك نفسه، وهو الطريق الأسلم والأسرع، وقرر تغيير نهجه من تلقاء نفسه قبل أن يفرض تغييرها الشعب، قطعنا بيسر وسهولة قمة الأزمات التي نعيشها". لكن أهم واخطر ما قاله شبيلات هو "أن الأردن قام على توافق بين الأردنيين وأشراف الحجاز على أن يعطى الهاشميون الإمارة مقابل أن يكون الحكم للشعب.."

هذا الخطاب الذي يعبر عنه شبيلات لم يعد خطابا فرديا أو معزولا، بل يتسع ويتمدد من شمال المملكة الأردنية الهاشمية إلى جنوبها، وأصبح هناك من يهتف بها ويكتبها على لافتات كبيرة، مما يعني أنها تكتسب زخما ربما يحولها إلى حالة عامة، وهذا أمر في غاية

الخطورة في بلد يقوم على توازنات دقيقة، ويعاني من احتقانات كثيرة، ومن هنا فان نوعية استجابة الملك لهذه التحركات ستحدد مستقبل النظام الملكي الأردني برمته، إذ لا يوجد أي ضمانة ان لا تتطور المطالب إلى إسقاط النظام إذا عجز الملك عن تقديم "حزمة تنازلات معقولة ومنظومة من الإصلاحات الحقيقية"، والابتعاد عن سياسة "الإيهام بالإصلاح" والدوران في حلقة مفرغة، فهذا قد يؤدي إلى الوصول إلى النقطة الحرجة التي تطالب بالتغيير الجذري وليس مجرد إصلاح النظام.

وإذا كان النظام الأردني يرغب بالخروج من المأزق، فانه مطالب بمعالجة جملة من الأزمات التي تراكمت على مر الأيام، وقراءة المشهد قراءة صحيحة بعيدة عن أدوات الماضي والأساليب القديمة، والبدء بتفكيك منظومة الفساد بطريقة مقنعة، ورفع الغطاء عن كل الفاسدين وفتح كل الملفات بدون تردد، وتحويل كل من أساء الأمانة أو مد يده على المال العام، أو تصرف بطريقة تسيء للصالح العام، واضر بمصلحة الشعب ومقدراته، إلى القضاء، وهذا يتطلب بدوره إعادة النظر في المنظومة القضائية وتمكينها من التصدي للفساد والمفسدين، مما سيؤدي إلى معرفة الأسباب الحقيقية للمديونية التي وصلت إلى ١٧ مليار دولار، وأين ذهبت كل هذه الأموال، ومن تصرف بها، الأمر الذي سيفتح الباب أمام إحداث إصلاحات اقتصادية تخفف الوطأة على الشعب الأردني الفقير في غالبيته.

وهذا بدوره لن يتحقق بدون إصلاحات سياسية جذرية تؤدي إلى انتخاب مجلس نواب يمثل الشعب، من خلال اقتراع يستند إلى قانون انتخاب ديمقراطي يسمح بتمثيل الإرادة الشعبية، وتشكيل حكومة تمثل إرادة الناخبين الأردنيين، وهنا أيضا لا بد من إعادة النظر في مكونات المجتمع الأردني ، ووقف إقصاء الأردنيين من اصل فلسطيني من الحياة العامة والوظائف، والعمل على صياغة هوية جامعة للمجتمع تقوم على مبدأ المواطنة المتساوية وليس بناء "على مولد الأب والجد" كما يحدث حاليا وذلك لحل معضلة الهوية في المجتمع.

ولا شك أن تحقيق هذه الأهداف يتطلب مشاركة جميع القوى الفاعلة على الساحة الأردنية من أحزاب ونقابات وروابط وهيئات ومؤسسات مجتمع مدني وعلى رأسها بالطبع حزب جبهة العمل الإسلامي، الأكثر تنظيما وشعبية، ويمثل كل ألوان الطيف الأردني ، وله امتدادات في كل المناطق ويستطيع أن يكون صمام أمان ضد كل الاحتقانات التي يمكن أن تنفجر هنا أو هناك، بدون استبعاد أي حزب مهما صغر، والابتعاد عن سياسة الإقصاء والانتقال إلى مرحلة الشراكة الكاملة.

لكن هذا الأمر بدوره لن يتحقق إلا بتفكيك الدولة الأمنية التي تحكم من وراء ستار، والحد من تدخلها في الحياة السياسية، وإعادتها إلى وظيفتها الأساسية لتامين امن المجتمع والدولة، وليس الهيمنة عليه، وعدم التورط بتحويل القبيلة إلى "وحدة سياسية" تحدد شكل الحكم، ومن يحكم.

لم يفت الوقت بعد أمام النظام الأردني للتحرك بسرعة لتفكيك الأزمة التي يمكن أن تطيح به، وهذا يحتاج إلى نخبة حاكمة جديدة يفرزها الشعب بعيدا عن مراكز القوى المهيمنة على الدولة والمجتمع، وتفسح المجال أمام أردن جديد، يقبل بالنظام الملكي في حلة جديدة، يتم التوافق عليها، وبغير ذلك فان الشعار سيتحول من "الشعب يريد إصلاح النظام" إلى "الشعب يريد إسقاط النظام".

النظام الملكي في الأردن ضرورة ومرجعية لا غنى عنها، شرط أن يقوم بإعادة إنتاج نفسه لعصر جديد غيرته الثورات العربية، فالحكم برجال الماضي وأساليبه لم يعد ممكنا ولا مقنعا ولا مقبولا.

استقرار النظام الملكي الأردني

يعتبر النظام الأردني محظوظا بين جميع الدول العربية التي تشهد مظاهرات احتجاجية، لان مطالب المتظاهرين الأردنيين تنصب على الإصلاح، إذ لا يطالب احد بإسقاط النظام، فجميع القوى السياسية والشعبية متفقة على التشبث بالنظام الملكي كصمام أمان ومرجعية في البلاد، مما يعطيه أفضلية كبيرة في المشهد العربي المضطرب.

من المنظور الداخلي يمكن اعتبار النظام الملكي الأردني مستقر، بسبب عدم وجود شرعية منافسة، أو حركات سياسية راديكاليه تدعو لتغيير النظام، مما يعطي المؤسسة الملكية الأردنية أوراقا قوية للمناورة، وتكرس الملك حاكما وحكما بين جميع القوى السياسية والاجتماعية في الأردن، بشكل مقبول شعبيا.

لكن هذا الخيار الشعبي، ليس شيكا على بياض بالنسبة ل"مؤسسة العرش"، حسب المصطلح المستخدم في الإعلام الأردني لوصف النظام الملكي، فالرأي العام كثير التقلب، وسرعان ما ينقلب إذا توفرت ظروف معينة، أو تراكمت مفاعيل عوامل "متفجرة" قادرة على هز الوضع الداخلي، ويقف على رأس هذه العوامل، الأوضاع الاقتصادية الصعبة، وارتفاع المديونية الأردنية إلى حوالي ١٧ مليار دولار، وضعف الرواتب وغلاء الأسعار، ودفع المواطن لضرائب متنوعة يزيد عددها عن ٨٠ ضريبة تستهلك نصف دخله تقريبا، وارتفاع نسبة الفقر إلى أكثر من ٤٠ من السكان، وتفشي ظاهرة البطالة التي تقدرها بعض المصادر بحوالي ٢٠ في المائة.

والى جانب الوضع الاقتصادي المتردي هناك قضية العبث بالهوية ومحاولة إثارة النعرات من قبل قلة تحاول اللعب بقنبلة الاختلافات الجهوية والمناطقية والإقليمية، وغض الطرف عن إقصاء بعض المكونات الاجتماعية من الوظائف العامة والأمنية والمناصب الكبرى، وسن قانون انتخاب يقلص من تمثيل عادل للشعب، واعتماد قانون يقرب بعض الفئات ويبعد أخرى، سواء كانت جهات عرقية أو سياسية، مما أدى إلى إفراز مجالس نواب ضعيفة.

يضاف إلى تردي الوضع الاقتصادي ومشكلة الهوية، تفاقم ظاهرة الاحتقان السياسي، بسبب استهداف القوى السياسية الفاعلة في الأردن وفي مقدمتها بالطبع جماعة الإخوان المسلمين وذراعها السياسي "حزب جبهة العمل الإسلامي"، مما سبب مقاطعتهم للانتخابات البلدية والنيابية، وافرغ المشهد السياسي من المضمون الديمقراطي، وحوله إلى مجرد شعار بدون أي محتوى، يضاف إلى ذلك مشكلة تدخل المخابرات الأردنية في كل مفاصل الحياة، مما أجج عددا من المظاهرات المطالبة بكف يد المخابرات الأردنية والحد من تدخلها في الحياة السياسية والشأن العام والتوظيف والكف عن مساندة طرف ضد آخر، وعدم التدخل في الصحافة والانتخابات وإعادة هذا الجهاز الأمني إلى عمله المهني الاحترافي وعدم التورط في العمل السياسي أكثر مما ينبغي.

يمكن القول أن النظام الملكي الأردني يسير بخطوات بطيئة في الاتجاه الصحيح داخليا، فقد قام الملك عبد الله الثاني بتغيير مدير المخابرات وعين في تشرين أول- أكتوبر الماضي اللواء فيصل الشوبكي مديرا جديدا وطلب منه " دعم مسيرة الإصلاح في الأردن.. واحترام الأطر القانونية والتشريعية ومبادئ حقوق الإنسان والحريات الفردية والشخصية.." واعترف العاهل الأردني أن " الظروف الإقليمية والمحلية تتطلب ترسيخ ثقافة الوعي الوطني، والانفتاح والشفافية، والمحاسبة، والتقدم على أسس الجدارة بين الأجيال الصاعدة في أجهزتنا الأمنية..".

هذه الرؤية تشير إلى الوعي بالظروف المحيطة بالأردن، وتقدم العلاج المتمثل بدعم الإصلاح واحترام القانون وحقوق الإنسان والحريات والمحاسبة والشفافية والانفتاح، والاختيار على أساس الكفاءة" وهي نوايا حسنة ومطالب منصفة، لكن المشكلة تكمن في التطبيق والتنفيذ، وهل بمقدور جهاز تعود على التدخل الدائم في الشؤون العامة والسياسية والوظيفية أن يكف عن ذلك؟

هذه القضايا الداخلية تشكل معا معضلة كبيرة أمام النظام الملكي الأردني، وهي معضلات ساهمت بتأزيم الوضع الداخلي في الأردن وصعبت من مهمة الملك دائما.

والى جانب الوضع الداخلي هناك المشكلات الإقليمية ومشكلات دول الجوار المشتعل في العراق وسوريا وفلسطين، مما يؤثر على الأردن بسبب موقعه الجيوسياسي بين محيط من الأزمات التي يمكن أن تغذي حالة من عدم الاستقرار في ظل اندلاع ثورات في عدد من الدول العربية.

ولا شك ان المساعدات السعودية السخية للأردن والبالغة ١,٤ مليار دولار لعبت دورا مهما في الحد من تعمق الأزمة الاقتصادية والمعيشية، لكن هذه المساعدات ليست أكثر من " مسكن" للاقتصاد الذي وصفه رئيس وزراء أردني سابق ذات يوم انه يقبع "في غرفة الإنعاش"،

ولذلك يحتاج الأردن إلى خطة إنقاذ اقتصادية عاجلة على غرار اليونان.. صحيح أن الوضع في الأردن لا يمكن تشبيهه باليونان المفلسة، لكنه إذا ترك دون مساعدة فسيغرق لا محالة في أزمة اقتصادية خانقة قد تودي باستقراره.

مشكلة الأردن هي محدودية الخيارات الاقتصادية مما يصعب من مهمة الحل، إلا أن ما يصعب من المهمة أيضا هو بطء الإصلاحات السياسية ووجود قوى الشد العكسي، ومحاولات تقديم إصلاحات شكلية غير مقنعة، والدوران حول المشاكل بدل حلها وهي عوامل تسحب من رصيد النظام الملكي الأردني، وتأكل من شعبيته، مما يؤدي إلى تآكل المنظومة كاملة.

على الرغم من كل ذلك يمكن القول أن النظام الملكي ما زال يمسك بأوراق اللعبة في الأردن، ويحاول تفكيك الأزمات الداخلية حسب الإمكانيات المتاحة،وربما أفضل خيار أمامه هو تسريع عملية الإصلاح الحقيقية وتفكيك مراكز القوى التي تعرقل العملية الإصلاحية، والاعتراف بالآخر ووقف عمليات الإقصاء الاجتماعي والسياسي واعتماد مبدأ المواطنة، ووقف العمل بالحلول الأمنية التي ثبت فشلها، وإقرار قانون انتخابات عادل وإجراء انتخابات نزيهة.. وهي خطوات ستعمل على تثبيت أركان النظام الملكي الأردني رغم الأوضاع الداخلية الصعبة والمحيط المضطرب، وهو نظام يحتاجه الأردن والأردنيون.

الدور المحوري لقطر

تعزز دولة قطر حضورها الإقليمي والدولي يوما بعد يوم من خلال انخراطها كطرف فاعل في الملفات العربية الكبيرة والشائكة، وهو دور يحظى بقبول عربي وعالمي واسع كوسيط نزيه،

وتؤكد الوقائع على الأرض فاعلية هذا الدور بشكل "عملاني"، فالحركة الدبلوماسية القطرية تمتد من لبنان وفلسطين واليمن إلى الصومال وجيبوتي وارتريا وجزر القمر والسودان وصولا إلى ليبيا التي تعاني الأمرين من "حرب العقيد الشرسة والاستئصالية"، استطاعت هذه الدبلوماسية أن تحقق نجاحات هنا وإخفاقات هناك، لكنها في النهاية شكلت رافعة لحراك كبير، وهو ما جعل دبلوماسيا فرنسيا يصف القطريين بقوله "إنهم ممتازون في عدد من الملفات السياسية يقدمون حلولا ولا يثيرون مشكلات"، ولم يتردد الرئيس الأمريكي باراك أوباما عن القول بان " أداء قطر جيد جدا تحت قيادة سمو الأمير، وتأثيره يمتد إلى ما وراء حدوده.."

واعترف أنه "بدون الدور القيادي للأمير فإننا ما كنا لنتمكن من تشكيل الائتلاف الدولي الموسع (حول ليبيا) الذي يشمل ليس فقط شركائنا في حلف شمال الأطلسي بل أيضا دولا عربية"، هو ما ذهب إليه أيضا دبلوماسي فرنسي من أن قطر "منحت الحملة العسكرية التي قادتها فرنسا ضد كتائب القذافي عطاء عربيا سياسيا مهما.

لا أتصور أن أوباما كان يجامل حين اعترف بالدور القطري المهم في المسالة الليبية، وهو نفس التقييم الذي سبق أن اعترفت به الأمم المتحدة عندما تحدثت عن الدور القطري في السودان واليمن وغيرها من الملفات، فقطر التي تعتمد "إستراتيجية التدخل الإنساني" البعيد عن المصالح، اتخذت موقفا واضحا وصريحا مما يجري في ليبيا، ورفضت استهداف المدنيين، وأعلنت معارضتها لقصف المدن وقتل المدنيين الليبيين، وجعلت من هذا الموقف إستراتيجية

ثابتة غير قابلة للمساومة، وهذا ما ظهر جليا في موقف القيادة القطرية من اللحظة الأولى وخلال استضافتها لمجموعة الاتصال الدولية بشان ليبيا أيضا، على لسان ولي العهد الشيخ تميم بن حمد ال ثاني الذي أعلن عن "دعم الشعب الليبي في إيجاد الظروف السياسية التي تمكنه من تقرير مصيره ، بما في ذلك شكل النظام السياسي الذي يرتئية..و فعل ما يلزم لتمكين الشعب الليبي من الدفاع عن نفسه لكي يقرر مستقبله بنفسه.." وان الثوار الليبيون مدنيون حملوا السلاح دفاعا عن أنفسهم في ظروف صعبة من عدم التكافؤ.

كلام ولي العهد القطري القوي والصريح تم ترجمته في البيان الختامي لمجموعة الاتصال التي تضم ٢٠ دولة من بينها دول عظمى حيث وافقت على "أن نظام القذافي فقد كل شرعية وعليه ترك الحكم والسماح للشعب الليبي بتقرير مستقبله.. وان استمراره من شأنه أن يهدد أي حل للازمة"،واعتبروا أن المجلس الوطني الانتقالي "هو محاور شرعي يمثل تطلعات الشعب الليبي على النقيض من النظام الحالي".

لقد كانت قطر سباقة بتقديم المساعدات الإنسانية للشعب الليبي وشاركت في الجهد العسكري لحظر الطيران كما قامت بنقل العديد من المواطنين من رعايا الدول العربية الذين تعذرت عليهم العودة إلى أوطانهم، وكانت أول دولة عربية تعترف بالمجلس الوطني الانتقالي ممثلا شرعيا للشعب الليبي، وشرعت بتسويق النفط الليبي وشراء وقود لحساب الثوار، وهي بذلك قدمت شريان حياة للشعب الليبي والثوار، بل إن رئيس الوزراء القطري حمد بن جاسم آل ثاني، قال إن تلبية "احتياجات الشعب الليبي تعني في جزء منها الدفاع عن النفس". وهذا يعني حصول المقاومة الليبية والشعب الليبي الأعزل "على ما يحتاج من الوسائل للدفاع عن نفسه وهي وسائل مشروعة".

الدور القطري في الملف القطري، ضروري وملح في هذه اللحظة التاريخية من حياة الأمة العربية، فالدول العربية الكبيرة، تعاني من الشلل والمرض وانعدام الوزن والثورات الداخلية. الأمر الذي يجعل الساحة العربية فارغة تماما من أي فاعل عربي، يمكن للعالم التخاطب معه أو التوجه إليه، ومن هنا فان قطر تسد هذا الفراغ، وهذا ما أكده استضافة الدوحة لاجتماع لمجوعة الاتصال حول ليبيا، وظهر تأثير الدوحة على "مجلس التعاون الخليجي" المنظومة العربية الوحيدة الفاعلة في هذا الوقت الذي تتلاشى فيه الأنظمة والمنظومات العربية، حيث بادرت دول "مجلس التعاون" إلى التدخل في البحرين وتقديم مبادرة لإخراج اليمن من الأزمة التي تخنقه منذ ٣ أشهر.

تقود قطر قاطرة الأمة العربية حاليا، من خلال الفعل السياسي والدبلوماسي والإنساني ومن خلال مشاركة المقاتلات القطرية بفرض حظر الطيران على طائرات القذافي.

مشكلة العربات العربية أنها محملة بالكثير من المشاكل والأزمات والحروب والثورات والفقر والظلم والتعسف وقتل المدنيين، لكن قطر بتدخلها البعيد عن المطامع وطموحات التوسع والاستيلاء على الثروات على الطريقة الامبريالية الاستعمارية، إنما تفعل ذلك بدافع أخلاقي واستجابة لنداء الضمير العربي والإسلامي، ولأنها جزء من الأمة العربية العظيمة، تشعر بألم العرب في كل مكان، فهي جزء من الجسد العربي الواحد ، تتداعى له بالسهر وبذل الجهد لإنقاذ ما يمكن إنقاذه.

اعترافات الوزير البائس

تتكشف الحقائق يوما بعد يوم عن بؤس نظام الرئيس المصري المخلوع حسني مبارك، وأركان حكمه ، ومدى تعاسة سلوكهم السياسي وتلاعبهم بمقدرات الشعب المصري والأمة العربية، فاركان هذا النظام البائد حولوا مصر إلى مزرعة لهم "يمرحون فيها ويسرحون" دون حسيب أو رقيب وينهبون البلد ويحولون ثرواتها إلى أرصدة لهم في البنوك الأجنبية، بينما يتضور نصف المصريين جوعا ويعيش واحد من كل أربعة مصريين تحت خط الفقر.

بؤس نظام مبارك لم يقف عند حدود نهب البلد وسرقتها، بل تعداها إلى التفريط بثروات مصر ومصادرها الطبيعية، مثل منح الغاز إلى إسرائيل " شبه مجانا" ما يكلف خزينة الدولة مليارات الدولار، في وقت يحتاج فيه المصريون إلى الغاز والنفط لتنشيط الحركة الاقتصادية والصناعية الداخلية، وكشفت الوثائق والتحقيقات فضائح أركان الحكم الذي "يسمسرون" بديون مصر ومقدراتها.

فساد نظام مبارك الذي انتشر مثل السرطان في كل زاوية وركن في مصر افسد الحرث والنسل، فقد افسد الضمائر والذمم، وعمم الرشوة و الترهل والاستبداد وانتهاك حقوق الإنسان والاعتداء على الحريات والتعذيب والاعتقال التعسفي وتسلط الأجهزة الأمنية وإثارة الفتن الطائفية وتفجير الكنائس والمنتجعات السياحية وسيطرة جهاز امن الدولة على كل كبيرة وصغيرة، والتدخل بتعيين بواب العمارة وأستاذ الجامعة والوزراء والسفراء، وتخريب الحالة الثقافية وشراء المثقفين والكتاب والصحفيين وإرهاب الرافضين المتمردين منهم، ومحاربة كل صوت حر في مصر .. باختصار لقد نشر نظام مبارك الفساد في كل مفاصل الدولة والحياة في البلاد.

فساد نظام مبارك امتد ليشمل تدمير المكانة الإقليمية والدولية لمصر، مما أدى إلى تدهور قدرة القاهرة على لعب دور فاعل ومؤثر إقليميا ودوليا، وخسرت مكانتها كقوة إقليمية قادرة على رسم حاضر العالم العربي ومستقبله، وبدل ذلك لعب نظام مبارك دور "السمسار" في المنطقة، للمتاجرة بالقضايا العربية مثل "فلسطين والسودان والعراق ولبنان"، وعمل على

عرقلة المصالحة الفلسطينية وبث الشقاق بين الفصائل الفلسطينية، وعجز عن التأثير في دارفور أو جنوب السودان، وحاول أن يشعل النار في لبنان بين هذا الطرف وذاك، وانحاز في العراق للاحتلال، وكانت مصر في عهد مبارك ونظامه الأمني بؤرة "للسجون السرية"، التي تحدثت عنها منظمات حقوق الإنسان الدولية.

لكن "أوقح" تصرفات هذا النظام البائس البائد هو تبجحه بإفساد المبادرات القطرية للإصلاح في السودان وفلسطين وإغاثة غزة التي كانت تقصفها إسرائيل بالفسفور الأبيض، ولم يتردد "أسخف" وزير خارجية عرفته الأمة العربية في تاريخها، وهو احمد أبو الغيط عن التبجح في مقابلة على قناة أوربت بان نظامه "خرب قمة غزة" لدعم ومنع إغاثة اهل غزة، وهو الذي أعلنت وزيرة الخارجية الإسرائيلية السابقة تسيبي ليفني الحرب على غزة من قلب القاهرة وبوجود وزير خارجية مبارك البائس "أبو الغيط نفسه"، ولم تتوقف حماقاته وحماقات نظامه عن هذا الحد، اذ كشفت وثائق ويكليكس التي بعثت بها القائم بأعمال السفارة الأمريكية في الدوحة "ميرمبي إل نانتونج" إلى واشنطن، نقلا عن نائب السفير المصرى لدى الدوحة أدهم نجيب، كيف تم استدعاؤه إلى مكتب أبو الغيط في القاهرة، كيف استشاط الوزير البائد غضبا ووبخه بعنف مستخدما شتائم "غير لائقة"، عندما طالبه نجيب بضرورة تحسين العلاقات مع الدوحة، وان مبادرات الوساطة والإصلاح القطرية لا تضر بمصالح مصر، الا ان ابو الغيط صرخ ان نظامه لن يتخذ أي إجراء لتحسين العلاقات مع قطر، وأن مبارك شخصياً يصر على عرقلة المبادرات القطرية بما فيها المقترحات التي قد تصب في مصلحة مصر القومية، وتفاخر أن نظامه أعاق بالفعل عدداً من المقترحات القطرية.

مازالت العبارات التي أطلقها أمير قطر الشيخ حمد بن خليفة في قمة غزة تتردد في الأصداء عندما قال " ما أن يكتمل نصاب القمة حتى ينقص.. حسبي الله ونعم الوكيل"، وهي العبارة التي خرجت من أعماق شيخ عربي وأمير دولة مكلوم بمصاب الأمة وأهل غزة.

لم تذهب "حسبي الله ونعم الوكيل" سدى، ولا ذهب دعوات المظلومين من أهل غزة ومصر أدراج الرياح، فدعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب، فذهب زبد نظام مبارك وأبو الغيط، وبقي في الأرض ما ينفع الناس.. ذهب من كان يتعامل مع فلسطين "على أنها المريض الوحيد"، وبقي من يقدم البلسم ليداوي جراح أهل غزة وفلسطين، ومن يصنع المصالحة في دارفور ولبنان وغيرها.

لقد رحل نظام مبارك إلى مزبلة التاريخ، وبقيت مصر العظيمة وشعبها العملاق "كنانة الله في أرضه"، وإلى جانبها أحرار الأمة، الذين يعملون على عودتها إلى مكانتها الطبيعية لتلعب دورا قياديا فاعلا لإقالة الأمة العربية من عثرتها.

أما قطر، التي تقدم ما ينفع الأمة العربية، فهي تسير قدما في ما تقدمه من خير، دون أن تنظر إلى الوراء، وهاهي مبادرتها لحل الأزمة في دارفور تتكل بالنجاح الـذي نتمنـى أن يكـون نجاحا كبيرا يوقف معاناة أهلنا في دارفور، ويجلب الخير والسلام والاستقرار الى ديارهم.

المسؤولية الأخلاقية
للدور القطري في ليبيا الثورة

لعبت قطر دورا محوريا لمساعدة الشعب الليبي على الانعتاق من نير استبداد القذافي ونظامه، وشكلت رافعة أساسية وصانعة للفعل ومحركا على المستوى الإقليمي والدولي، مما حولها إلى حاضنة للفعل العربي والدولي تجاه ما يحدث للشعب الليبي انطلاقا من دوافع الأخوة العربية والإسلامية والقيم الإنسانية العليا بنصرة المظلوم.

هذا الموقف القطري غير المتردد منح القيادة القطرية "قوة أخلاقية" كبيرة للعب دور كبير في بناء ليبيا الغد على أسس من الحرية والعدالة والمساواة، داخليا بمساعدة ثوار الشعب الليبي على إحراز النصر النهائي والمؤزر على القذافي وكتائبه وزمرته ومن ثم الانتقال من الثورة إلى الدولة، وخارجيا بالتصدي للمطامع بخيرات ليبيا وثرواتها.

هذه القضايا كانت في صلب حديث أمير قطر الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني في باريس نهاية الأسبوع الماضي أثناء مشاركته في مؤتمر"مساندة ليبيا الجديدة" في باريس، ووصف الأمر بوضوح بقوله":"إن التحول الذي جرى ويجرى في ليبيا هو أولا وقبل كل شيء تعبير عن إرادة الشعب الليبي.. لقد خرج الليبيون يوم ١٧ فبراير للمطالبة بحقوقهم ، وبالحرية والعدالة بالطرق السلمية.. وكان التحول في ليبيا عسيرا ، فقد حصل ما لم يرغب به أحد ، وهو اللجوء إلى السلاح ، وذلك لأن المواطنين الليبيين الخارجين في تظاهرات شعبية سلمية جوبهوا بالسلاح ، وأحيانا حتى بالأسلحة الثقيلة . فكان أن دافعوا عن أنفسهم... ووجدنا أنفسنا أمام مفترق طرق ، ماذا نفعل؟ هل نتركهم يبادون ، أم نضطلع بمسؤوليتنا كعرب وكمجتمع دولي؟ ، وقد اتخذنا قرارنا أن نوفر لهم الحماية ، ونحن ندرك حجم المسؤولية . لم تأت الإجراءات التي اتخذت بديلا عن جهود الشعب الليبي فقد كان هدفها حمايته".

وحدد الأمير شكل التدخل المطلوب في ليبيا خلال المرحلة المقبلة بقوله: "تقتصر واجباتنا نحن على تحرير ليبيا من عبء العقوبات التي فرضت على النظام السابق ، بما في ذلك

تحرير الأموال ، وتقديم العون اللازم لها في عملية بناء المؤسسات ، وتوفير المساعدة في الفترة الانتقالية الصعبة التي تعيشها إلى أن تدور عجلة الإنتاج والتجارة ويبني الليبيون دولتهم ، إذ لا تنقصهم الثروات ، ولا الكفاءات لبناء دولة متقدمة تعيش في علاقات أخوة وتعاون مع أشقائها العرب ومع الدول الأفريقية ، ومع الدول الأوروبية شمال المتوسط".

وذهب ابعد من ذلك حين قال "إن مساعدتنا الأخوية وغير المشروطة للشعب الليبي لا يجوز أن تكون عبئا عليه ، ولا أن تمننه ، ولا أن تشكل مساً بسيادته في المستقبل ، لأن مسؤولية بناء ليبيا كدولة وطنية ذات سيادة هي مسؤولية الشعب الليبي وقيادته . فقد كان الهدف هو تحرير إرادة الشعب الليبي وليس تكبيلها بقيود جديدة".

وهو بهذا يحدد مقومات المرحلة المقبلة، وهي أن بناء ليبيا هي مسؤولية الليبيين بدون أي قيود وشروط خارجية، وفي هذا تحذير لكل الطامعين بليبيا، فليست الأمم المتحدة ولا الولايات المتحدة أو أوروبا أو غيرها من المنظمات الدولية والإقليمية سيكون بقدورها وضع "شروط تكبل وتقيد ليبيا المستقبل"، وحذر بطريقة غير مباشرة من الغزو عندما أكد أن "الدول التي ساعدت ليبيا لم تكن دولا غازية، وهذا ما يمكن أن تبرهنه، وأنا متأكد من هذا بعد تحرير ليبيا". وهذا يعني أن على الدول الغربية أن تبرهن أنها لا تتصرف بعقلية الغازي والمستعمر، وان تكف عن إعطاء الدروس لليبيين عن كيفية التصرف ومن يجب أن يكون في سدة الحكم، أو المطالبة باستبعاد هذا الطرف أو ذاك، خاصة من طرف الجانب الأمريكي الذي تصرف بنفاق وازدواجية وكذب، وحاول أن يلعب على الطرفين، ففي الوقت الذي كان تعلن فيه الإدارة الأمريكية تؤيد بخجل "مطالب الشعب الليبي"، تكشف وثائق مخابرات القذافي التي تم العثور عليها أن الإدارة الأمريكية كانت تجري مباحثات مع العقيد وتقدم له النصائح حول كيفية إدارة المعركة والانتصار على الثوار، وهذا يعني أن إدارة أوباما كانت مؤمنة ببقاء نظام القذافي وإلا لما قدمت له المساعدة، وهو نفاق خطير اعتادت عليه الادارة الأمريكية.

ولكن، وعلى الرغم من ذلك، وكما قال الأمير انه "لولا مساعدة الناتو لما أمكن تحرير الشعب الليبي"، وان العالم العربي رحب بنجدته للشعب الليبي، لكن هنا يجب التأكيد على أن ثمن هذه النجدة لا يمكن أن يكون استقلال ليبيا واستهداف سيادتها وتحديد شكلها السياسي المقبل وتقسيم ثرواتها، فمن الغباء أن يكون ثمن تخليص ليبيا من حكم القذافي هو عودة الاستعمار الغربي بأي شكل من الأشكال، وربما هذا ما دفع أمير قطر إلى التعبير عن القلق بقوله: "لا يمكنني القول أن القلق قد تبدد تماما ، ولكن أصبح من حقنا أن نعبر عن أمل وتفاؤل"، وهو قلق مشروع ربما كان السبب في إعلان الرئيس الفرنسي نيكولا ساركوزي

عن رغبته بزيارة عاصمة الثوار بنغازي، برفقة أمير قطر ورئيس الوزراء البريطاني ديفيد كاميرون، لأنه يرغب بوجود غطاء سياسي عربي في ليبيا، لإبعاد شبح "النظرة الاستعمارية للغرب"، وهي النظرة التي نتوجس منها دائما.

الغرب، ومن خلال حلف النيتو، قام بعمل رائع في ليبيا، وخاض حربا عادلة بكل ما في الكلمة من معنى.. حرب انتصر فيها للشعب الليبي المظلوم، ومطلوب منه أن يكمل هذا الدور على أكمل وجه، وان لا يتحول إلى "عقلية اللص" لنهب ثروات ليبيا ونهشها أو تكبيلها بأي شروط، وهنا تكمن أهمية الدور القطري القادر على تعرية أي أهداف "غربية مشبوهة"، ورفع الغطاء القطري والعربي عن أجنداتهم الخفية إذا تبين أنها لا تصب في مصلحة الشعب الليبي.

على قطر أن لا تستحي بلعب الدور الأكبر في ليبيا الغد، وان تبني تحالفا عربيا قويا لدعم ليبيا، للجم التدخلات الدولية وإعادة إعمارها وتقديم المشورة لأهلها ، فمستقبل ليبيا يحدده الليبيون بدعم من العرب الذي ساندوهم في ثورتهم، وعلى القيادة الليبية الثورية أن تتنبه للغرب وألاعيبه ومؤامراته، فنحن لا نستطيع أن نثق به، فهو لم يعودنا إلا على الدسائس من عصر "سايكس-بيكو" حتى الآنن فنحن امام مرحلة جديدة تتشكل فيه ليبيا والعالم العربي.

وكما قال الشيخ حمد: "ليس هنالك من مبالغة في القول إننا نعيش أياما تاريخية . فنحن نشهد عملية تحول ربما يكتب المؤرخون عنها يوما أنها نقلت المنطقة العربية من مرحلة تاريخية إلى مرحلة تاريخية أخرى . وسوف نترك شأن التأريخ للمؤرخين ، أما نحن فعلينا أن نذكر دائما أن لكل منا الخيار في تحديد دوره في كيفية التأثير على عملية التحول هذه"، ومن هنا فان خيارنا سيكون دائما مع الحرية والاستقلال والعدالة والكرامة ورفض الاستعمار والاستغلال والنهب، فهل يدرك الغرب، وخاصة أمريكا هذا الأمر.

الحرب ضد نظام القذافي كانت نموذجا مختلفا ومثمرا وايجابيا للتعاون العربي- الغربي، بما في ذلك التعاون العسكري المقبول شعبيا، فلم يتظاهر العرب ضد قصف مقاتلات النيتو الغربية العقيد والته العسكرية، وهو تعاون يمكن أن يؤسس لمرحلة جديدة من التعاون العربي الغربي، وهو التعاون الذي سممته إسرائيل منذ إنشائها حتى الآن.

مهمة قطر الصعبة في ليبيا

الحرب أسهل من السلام، فالحرب استثارة للغرائز والسلام عمل العقل والحكمة، ومن السهل استثارة الغرائز الإنسانية إلى الحد الأقصى، وحشد الجماهير من اجل المعركة، لكن الصعب هو تحكيم العقل وجلب الجماهير إلى التفكير العقلاني الهادئ، خاصة بعد ان يسفك الدم ويسقط القتلى والجرحى.

لم يكن من الصعب على قطر أن تشارك في حرب ضد "طاغية ليبيا" الذي أذاق شعبه الويلات، فقد كان هناك ما يكفي من الكراهية الشعبية ضده لتسعير نار حرب فرضها على الليبيين فرضا، وهي حرب عادلة وأخلاقية بكل المقاييس والمعايير، فقد كان من المستحيل أن ينتهي حكم القذافي دون مساعدة خارجية للشعب الليبي، لان العقيد كان يمتلك ترسانة عسكرية هائلة، ولديه جحافل من القتلة والمرتزقة الذي عاثوا في الأرض فسادا، لكن الصعب هو إدارة مرحلة ما بعد الحرب وإنهاء حكم الطاغية المستبد، الذي ترك ألغاما يمكن أن تنفجر، إضافة إلى إمكانية اختلاف "رفاق السلاح"، وهو أمر عانت منه الثورات عبر التاريخ.

ومن هنا صعوبة الدور الذي ستقوم به الدوحة في المرحلة الليبية المقبلة، فقطر التي سلمها المجتمع الدولي قيادة المرحلة المقبلة من خلال ترأس "لجنة الأصدقاء لدعم ليبيا" الذي يعتبر عمليا بديل "حلف النيتو" الذي أنهى عملية "الحامي الموحد" لدعم وحماية الشعب الليبي، ستجد نفسها في مواجهة تفاصيل معقدة ومتشابكة على ارض الواقع منها: مطامع دول العالم، وخاصة الغرب، بثروات ليبيا، والتهديدات الحدودية، وأثار الحرب الاجتماعية الذي أثرت على الفئات الليبية المختلفة، والعلاقات بين القبائل ومكونات الشعب الليبي، والتيارات السياسية المتعددة، وربما يكون احد هذه التفاصيل أو كلها سببا في عدم تجاوز ليبيا لمرحلة الحرب، وعبورها إلى مرحلة ما بعد القذافي.

أوروبا وأمريكا التي خبرت العراق وأفغانستان والصومال واليمن تعرف معنى التعقيدات الموجودة على الأرض، وتدرك الكلفة العالية للتدخل، فهي فشلت في تحقيق أي انجاز في أي من هذه الدول، سوى تدميرها وإدامة أمد الحرب فيها.

المقاربة بين الوضع في ليبيا وهذه الدول ليس دقيقا بالكامل، وان كان يحمل بعض الشبه من حيث وجود تركيبة قبلية مستحكمة، وعلى الرغم من ذلك فان قطر تجازف بالغرق في مستنقع ليبي كبير إذا فشلت في فهم الواقع الليبي والتعامل مع تفاصيله بعيدا عن الأماني الحسنة، فالطريق إلى الجحيم مفروش بالنوايا الحسنة، ومن هنا فان منطلقات العمل يمكن أن تبدأ من فهم التركيبة الليبية "ديمغرافيا وقبليا ونفسيا"، وهذا يتطلب جيشا من الباحثين، الليبيين وغير الليبيين، لإعداد بنية معلوماتية وتحليلية عن كل المكونات الليبية، فمن الخطأ الاعتماد على آراء العسكريين والسياسيين والدبلوماسيين المجردة لبناء الإحكام أو القرارات.

ومع إدراكنا لأهمية التركيبة القبلية في ليبيا، فان ذوي الحكمة والدراية والخبرة من زعماء القبائل وأعيانها في قطر والجزيرة العربية وبلاد الشام ومصر يمكن أن يلعبوا دورا كبيرا، بل ربما أهم من كل السياسيين، في لم شمل الشعب الليبي على قاعدة "لا غالب ولا مغلوب"، وان الحرب لم تستهدف إلا القذافي وزبانيته ونظامه الدموي، وإنها لا تستهدف قبيلته او القبائل الأخرى التي تحالفت معه أو قدمت له العون والدعم، فضم قبائل "القذاذفة وورفلة وغيرها" إلى المرحلة الجديدة في ليبيا، ينزع صاعق تفجير النزاع، وهذا لا يستطيع أن يقوم به إلا زعماء القبائل العربية وأعيانها من ذوي الحكمة والبصيرة، يرافق ذلك إجراء مصالحة تاريخية بين سرت ومصراتة، وإعطاء الأولوية في إعادة البناء لهاتين المدنيتين، اللتين عانتا أكثر من غيرهما من ويلات الحرب، وتعويض كل المتضررين من الطرفين، سواء في سرت أو مصراتة، وكل المناطق الليبية الأخرى. فمن الضروري أن يشعر الجميع ان لا احد منهم مستهدف بسبب انتمائه الجغرافي أو القبلي، أو موقفه ما قبل الحرب، فالحرب ضد نظام القذافي انتهت، ومعها يجب أن تنتهي ذيولها وانعكاساتها النفسية والاجتماعية .

اللغم الآخر المتفجر، والذي لا يقل خطورة عن التركيبة القبلية، وهي احتمالات اندلاع خلافات بين رفاق السلاح، على خلفية المواقف الفكرية والإيديولوجية أو التمثيل في السلطة، وهي خلافات أدت تاريخيا إلى بروز المقولة الشهيرة "الثورة تأكل أبناءها" بسبب القتال فيما بينهم، ويمكن تجاوز هذا اللغم الخطير، عبر جمع كل الأطراف على طاولة واحدة دون استبعاد احد، بقيادة الوسيط القطري الذي يحتاج إلى التسلح ببرنامج عملي يعرضه على كل الأطراف بشان البناء السياسي والبيروقراطي المستقبلي في ليبيا، ويمكن في هذا الصدد الاستفادة من عوامل القوة والنجاح في تونس، وهذا يحتاج بدوره إلى جيش من الباحثين السياسيين والقانونيين والاجتماعيين من مختلف فئات الشعب الليبي، بمساندة خبرات عربية، وهذا يعني أن قطر مطالبة بتقديم "مسودة مشروع البناء السياسي لليبيا" لكل الأطراف لكي تكون "فرشة" البحث الأولي للوصول إلى صيغة ترضي كل الأطراف.

وفي موازاة العمل السياسي، فان واحدة من أهم واعقد المهام التي ستواجه قيادة قطر لحلف أصدقاء ليبيا، هي نزع "إغراء السلاح" من الثوار الليبيين، فالسلاح يغري حامله بتسوية الخلافات بالقوة، وهذا يتطلب تنظيم حمل السلاح في مؤسسات تخضع لائتلاف قوى من الثوار والقيادة السياسية الليبية بالإقناع، وعدم اللجوء إلى القوة في تسوية هذه القضية، إذ أن نزع السلاح بالقوة قد يؤدي إلى اندلاع قتال، فالإقناع أكثر فاعلية، لكنه يحتاج إلى سيادة روح الثقة بين جميع الأطراف وتبديد الشك المتبادل، ومن الواضح أن هناك حالة من الشك بين الثوار الإسلاميين الليبيين وبين من يطلق عليه "الليبراليين"، وقطر يمكن أن تلعب دور الضامن للثوار وان تخليهم عن السلاح لا يعني استبعادهم أو تقوية تيار آخر،وانهم جزء من تركيبة السلطة والدولة.

تبقى المهمة الأصعب على قطر وهي حراسة ليبيا من المطامع الخارجية، فليبيا دولة غنية، يسيل لعاب الغرب على ثرواتها، والكل سيحاول أن ينتزع حصته منها، ولا مانع أن تستفيد دول العالم من ثروات ليبيا شرط أن لا يكون ذلك عبر الاستغلال والسرقة والنهب والاحتيال والرشاوى والفساد، بل أن يكون على قاعدة المشاركة بإعادة أعمار ليبيا بما يلبي المطالب الليبية، وحسب أعلى ما في العالم من مواصفات ومقاييس، وان تكون الاستفادة القصوى للشعب الليبي أولا مع إعطاء الألوية للعمالة العربية، وان تكون المشاركة في إعادة الاعمار مبنية على الشفافية الكاملة والعلنية، وهذا يتطلب بدوره بناء مؤسسات في ليبيا التي تركها القذافي بدون مؤسسات.

الحرب ضد القذافي كانت قصة نجاح كبيرة للشعب الليبي ولقطر، ونريد أن يكون بناء السلم والدولة في ليبيا قصة نجاح أخرى لقطر التي سلمها العالم زمام قيادة المرحلة المقبلة هناك.

حقوق الإنسان في قطر.. إلى أين؟

من الجرأة بمكان مناقشة وضع حقوق الإنسان في قطر، في زمن الثورات أو ما يطلق عليه الربيع العربي، وبعيدا عن لغة المجاملة أو الاختباء خلف العبارات المبهمة والهلامية لا بد من الإقرار بوجود حالات انتهاك لحقوق الإنسان في قطر، وهي حالات كشف عنها تقرير اللجنة الوطنية لحقوق الإنسان الذي نشرت الشرق أهم ما ورد فيه.

اللجنة رصدت النقاط التالية: احتجاز أشخاص دون إحالتهم إلى النيابة العامة والتوسع في قرارات الإبعاد، وإبعاد أشخاص لم يرتكبوا أي جرم سوى طلب نقل الكفالة من عمل إلى عمل آخر، ورصد حالات لسوء معاملة بعض النزلاء بالسجن المركزي وأمن العاصمة وحجز الإبعاد، وتضرر بعض المودعات للضرر بسبب طول مدة الاحتجاز وتعرض بعضهن للضرب من قبل احد مسؤولي الحجز.

اللجنة طالبت بإلغاء العمل بنظام حجز الإبعاد واعتبرته تحديا يواجه مسيرة حقوق الإنسان في قطر، كما انه يمس بالحرية والأمان الشخصي وحق التقاضي والمحاكمة المنصفة، واعتبرت أن إبعاد أشخاص بسبب طلب نقل الكفالة إجحاف بحق من صدرت ضدهم، وطالبت بتمكين المبعدين من الطعن في قرارات الإبعاد أمام القضاء.

إذن هناك انتهاكات حقيقية لحقوق الإنسان أوردها التقرير، ولا بد من التعامل معها بجدية، فقطر التي تناصر الحريات في العالم، وتتسيد قائمة الشفافية في العالم العربي، وتقدم المال والسلاح لنصرة الشعب الليبي الباحث عن حريته للخلاص من حكم الطاغية، وناصرت إعلاميا ثورات الحرية في تونس ومصر واليمن وسوريا والبحرين، تملك الأساس الأخلاقي لتجاوز انتهاكات حقوق الإنسان في البيت القطري، وهي على الصعيد الجمعي والمجتمعي قليلة ومحدودة لكنها كبيرة التأثير على الصعيد الفردي، إذ أن بعض القرارات مثل الإبعاد قد تؤدي إلى تدمير مستقبل أسرة بأكملها. وأنا على اطلاع على حالة عانت من الإبعاد، لزميل في إحدى الصحف المحلية الذي اتخذ بحقه قرار بالإبعاد لمجرد انه طلب نقل كفالة إلى عمل آخر.

نظام الكفالة والإبعاد يفتقر للحد الأدنى من مراعاة حقوق الإنسان، وهو نظام لا بد من إلغائه في عصر الحرية والعدالة والكرامة العربية، وتطبيق بديل يراعي متطلبات العصر ولا يقف عند حدود الريبة.

دولة قطر تعتمد على العمالة العربية والأجنبية بشكل كثيف، وهي تحتاج إلى نظام يحمي سيادتها واستقرارها وأمنها وحقوق مواطنيها، وهذا أمر منطقي ومعقول ومقبول، ويمكن أن يتم من خلال نظام قانوني بحيث تكون الدولة هي من يكفل الجميع ضمن محددات معينة، تحفظ حق صاحب العمل وحق العامل أيضا، فكما انه من حق صاحب العمل المحافظة على مصالحه، فمن حق العامل أيضا أن يحسن دخله وان يبحث عن عمل أفضل بدون الإضرار بمصالح مشغله. أما أن تتحول الكفالة إلى "قيد"، فهذا أمر يتنافي مع القواعد الأساسية لحقوق الإنسان، ومن هنا فان مراجعة جميع عمليات الإبعاد التي تمت وتعويض من تعرضوا للتعسف ماديا ومعنويا يعد أمرا في غاية الأهمية، لان ذلك يوطد دولة العدل والقانون.

رغم كل ذلك لا بد من الإشارة إلى الارتفاع المضطرد لسقف الحرية في قطر، ولا بد من التنويه بخطوة ولي العهد الشيخ تميم بن حمد آل ثاني الذي أمر بتشكيل لجنة لإعادة النظر بقانون حماية المجتمع، ودمجه داخل إطار قانون الإجراءات العامة لتكريس دولة القانون والمؤسسات وعدم منح أي صلاحيات خارج إطار المنظومة القضائية في ما يتعلق بحريات الناس.

صدور تقرير اللجنة الوطنية لحقوق الإنسان من قلب الدوحة يؤشر بوضوح أن قطر تمضي قدما وبثبات في طريق الشفافية وحقوق الإنسان، وان ما تطالب الآخرين به تدعمه في بيتها، وهذا يضيف لبنة جديدة إلى لبنات الاستقرار والأمن والتكاتف والتالف في بلد يشهد أعلى معدلات النمو في العالم ويعتبر من اكثر دول العالم استقرارا وأمنا، يعيش فيه الإنسان بسلام ويحظى فيه المواطن بالرعاية ويحترم فيه الضيف وينتفع إلى جانب أهله الطيبين من الخير الذي حباها الله به.

إعادة التوازن للعالم العربي

يشهد العالم العربي حالة غير مسبوقة من فقدان التوازن، وتبدو بعض الدول العربية وكانها في طريقها للدخول في نفق مظلم، كما يحدث في ليبيا واليمن وسوريا، التي تعاني من شلل سياسي واقتصادي واجتماعي، في حالة تبدو فيه هذه المجتمعات اقرب إلى التفكك وحدات اصغر، قبليا وطائفيا وجهويا.

الشعوب العربية التي بدأت ثورة شاملة في السابع عشر من ديسمبر- كانون اول من العام الماضي استطاعت ان تطيح برئيسين في زمن قياسي في تونس ومصر، اصطدمت بحالة دموية قاتلة في ليبيا واليمن وسوريا، وانتقلت من ثورة سلمية تطالب بالحقوق والحريات إلى حرب كاملة في ليبيا تحصد الأخضر واليابس، و إلى حرب من النظام ضد شعب اعزل في سوريا وإلى ما يشبه الحرب في اليمن، وإلى توترات في مناطق أخرى من العالم العربي.

هذا التغير في المشهد كشف عن بعد الشقة بين الشعوب العربية والحكام، وأنها تتسلط على هذه الشعوب وتخضعها ولا تحكمها، وتتعامل معها بمنطق الوصاية والإذلال، فلا تداول للسلطة ولا مجال للحرية وأي شكل من أشكال الاعتراض أو النقد ينتهي بالسجن والتعذيب و النفي وحتى القتل والتذويب بالحوامض الحارقة. وكشف عن افتقار الأنظمة العربية في هذه الدول لاي شعبية على الإطلاق

يتصرف هؤلاء الحكام بالدول التي "يحكمونها أو يتسلطون عليها" بوصفها مزارع خاصة لهم ولأولادهم وقاربهم ومحاسبيهم وجوقة المنافقين وزمر التطبيل والتدجيل، أما باقي الناس فعليهم الاستسلام لرغبات الطغمة الحاكمة ومن لف لفهم وإلا فان صواريخ غراد جاهزة لدك مصراتة الليبية على رؤوس سكانها وقذائف المدفعية والدبابات الثقيلة جاهزة لتدمير درعا السورية وصواريخ الطائرات على يافع اليمنية.

ما يجري في العالم العربي كشف أيضا أن الدول التي تدعي الحرية وتسمي نفسها "المجتمع الحر" تدعم الطغاة والحكام الفاسدين والقتلة، مقابل ضمان مصالحهم وتدفق

الأموال وثروات الأمة إلى بلدانهم بلا حسيب أو رقيب، يسكتون على القتل وترويع الآمنين وسجن الأبرياء ومصادرة الحرية، مقابل الحفاظ على "التوازن الاستراتيجي" الذي يحمي إسرائيل ومصالحهم ولتذهب كل دعوات الحرية وحقوق الإنسان إلى الجحيم.

مليارات العرب "تتسكع" في بنوك الغرب والشباب العرب عاطلون عن العمل، ونصف الأمة تحت خط الفقر.. مليارات الدولارات يهربها الحكام الفاسدون دون أن يحاسبهم احد ويودعونها في حسابات سرية في أمريكا و أوروبا وشعوبهم تتضور جوعا.. لقد كشفت الثورات في العالم العربي عن كم كبير من الفساد بالأدلة والبراهين.

لقد كشفت الثورات في العالم العربي التي أشعلها الشباب وقادوها بلا خوف أو وجل بؤس معظم النخب العربية، وعقمها واندماجها مع السلطة وعدم قدرتها على تحرير نفسها والشعب من الخوف، وكشفت أن الجيل الجديد من الشباب أكثر جرأة وإقداما وشجاعة من أي جيل مضى، وكشفت عن استعداد حكام عرب لقتل كل الشعب للبقاء على كرسي السلطة، وكشفت أن الأنظمة العربية لا تنظر ابعد من انفها ولا تدرك أن انفجار الشعوب مثل السيل المنحدر لا يتوقف أبدا ويجرف كل ما يجده أمامه.

هناك أنظمة عربية رحلت بالثورة السلمية وأخرى سترحل بالثورة العنيفة كما في ليبيا و سوريا، وأخرى سترحل لأنها لا تريد أن ترى أو تسمع صوت الشعوب العربية الهادرة، فلا حصانة لأحد، ومن يرغب من الأنظمة أن "يفلت" من الثورة فعليه أن يصغي للناس ومطالبهم وهمومهم، وتلبية مطالبهم، وإعادة التوازن في العلاقة بين الحاكم والمحكوم، وبغير ذلك فان الثورة مستمرة ولن تستثني أحدا.

فقر وخبز وكرامة.. وثورات

تتشابك عوامل عديدة في إثارة الشارع العربي الذي صبر طويلا قبل أن يعلن الثورة على الواقع المعاش، صبر على الجوع والفقر والامتهان وغياب الحريات ربما أملا ورجاء في واقع أفضل، وانتظارا لوعود قد تتحقق بعيش كريم حتى وان كان بعيدا عن الرفاهية، لكن المشكلة ان تحالف الفقر والجوع والإذلال والامتهان وصل إلى الذروة التي دفعت شابا لم يجد من حطام الدنيا إلا أن يبيع خضارا على عربة متحركة، على إحراق نفسه ليسمع صوته لمن لا يريد أن يسمع، فكانت الثورة التي أطاحت بزين العابدين ومبارك وخلخلت عروش القذافي وعلي صالح وبشار الأسد.

يعيدني ما يحدث في العالم العربي أعواما خلت حينما كنت صحفيا في مقتبل العمر اكتب عن الفقر والفقراء والعاطلين عن العمل وعن الذي يسامون سوء العذاب في السجون ومخافر الشرطة، وعن الفساد والمفسدين وهدر المال العام وعن الوظائف التي تمنح "للحبايب" وعن المناصب التي تهدى "للمحاسيب" دون نظر للكفاءة والخبرة والمعرفة، فالقرابة تسبق الكفاءة، والولاء يسبق الحق والاستحقاق.

ذات شتاء تجولت في مناطق أحزمة الفقر المحيطة بالعاصمة الأردنية عمان، فشاهدت وسمعت ما أبكاني، شاهدت من يرجو من الدنيا رغيف خبز، أو قطعة قماش يستر جسمه أو مدفأة تبدد برد الشتاء .. شاهدت أناسا يأكلون بقايا الطعام في "المزابل"، وكتبت عمن شنق نفسه من شدة الفقر هربا من استحقاقات أسرة لا يستطيع أن يسد جوعها أو يروي عطشها.. شاهدت أطفالا صغارا يتضورون جوعا، ولن انس تلك الطفلة الصغيرة في العاشرة من عمرها حين سألتها عن حالها واجتابت: الحمد لله "كويسة".. كويسة يا صغيرتي وأنت لا تجدين في بيتك كسرة خبز.. "كويسة" مع أن نوافذ الغرفة التي تعيش فيها مع أختها وأخوها الصغير وأمها بلا زجاج .. "كويسة" ومطر السماء "يدلف" إلى الغرفة المسقوفة "بالزينكو"

فيحيل الغرفة إلى بركة .. "كويسة" مع أنها تفترش الأرض هي وعائلتها ولا يملكون إلا فرشتين و٣ بطانيات قديمة .. "كويسة" مع والدها انتحر من شدة الفقر ... أي صغيرتي "أنت كويسة" لأنك ما زلت تقولين "الحمد لله" و يفتر ثغرك الصغير عن ابتسامة صافية بريئة رغم وعود الخطط الاقتصادية المزيفة ومشاريع التنمية التي يستفيد منها اللصوص ورغم الاجتماعات المكثفة مع للحكومات مع صندوق النقد الدولي والبنك الدولي ومنظمة التجارة العالمية وقمة العشرين وقمة الثمانية وجامعة الدول العربية ومنظمة المؤتمر الإسلامي ... كل هذه المنظمات والاجتماعات لم تستطع أن توفر لك لقمة ولا أن تمنع والدك المريض من الانتحار فقرا أو "احتجاجا على الفقر"..

يا صغيرتي .. يا ابنة جيل الغضب .. جيل محمد البوعزيزي الذي أشعل النار بنفسه فأشعل عالم العرب كله ضد الاستبداد والفساد والظلم والطغيان .. الجيل الذي يواجه الطغاة بالجسد العاري والدم المسفوح في الشوارع بحثا عن الكرامة والحرية والعدل والخبز..

ذكرني بهذه الصغيرة وإخوتها تقرير بثته الجزيرة عن الصغار الفلسطينيين الذين يأكلون من القمامة .. شعرت بالغضب من اجلهم ومن اجل كل أطفال العرب الذي يعيشون في المقابر والعشوائيات وأحزمة الفقر .. وشعرت بالغضب من اجل ٩ ملايين طفل عربي لا يجدون مدارس يدرسون فيها... شعرت بالغضب من اجل كل المحرومين.

هؤلاء المحرومون هم أنفسهم الذين تحولوا الى خزانات غضب ووقود ثورة التي تجتاح عالمنا العربي بحثا عن الحرة والكرامة والعدالة والخبز ..

من يحمي اسرائيل

تشكل اسرائيل خطا رابطا بين الرئيس التونسي الهارب زين العابدين بن علي وبين الرئيس المصري المخلوع حسني مبارك والعقيد الليبي معمر القذافي وابن خال الرئيس السوري رجل الاعمال رامي مخلوف، فهم جيمعا استخدموا الورقة الاسرائيلية لاقناع الغرب بضرورة دعم انظمتهم الاستبدادية ضد رغبة شعوبهم بالحرية والديمقراطية وحقوق الانسان.. اي الصمت على الاستبداد وكبت الحريات والتسلط على الشعوب مقابل الحفاظ على اسرائيل وامنها وبقائها، وهي ورقة مغرية للغرب الى الدرجة التي جعلته يغض الطرف عن ظلم هذه الانظمة الاستبدادية، وانتهاكها لحقوق الانسان بشكل سافر،فالغرب صمت على نظام بن علي في تونس واصدرت مؤسساته تقارير تعتبر هذا النظام نموذجا يحتذى، وانه يحقق معجزة اقتصادية وامنية، بل ان فرنسا ذهبت ابعد من ذلك حين عرضت على بن علي ارسال قوات فرنسية لدعمه في الايام الاولى للثورة، لانه يؤمن الخاصرة الاسرائيلية في البحر الابيض المتوسط ، ولان سرعة الاحداث كانت اكبر من قدرة الغرب على استيعاب ما يجري، فقط سقط نظام بن علي الذي هرب تاركا الغرب في "حيص بيص"، وهو تصرف دفع الدول الغربية الى محاولة تفادي اخطائها في مصر وغيرها من الدول العربية التي شهدت ثورات بعد ذلك.

اما فيما يتعلق بمصر فان الغرب سوَّف كثيرا قبل ان يتخذ موقفا من نظام مبارك، بل جندت اسرائيل ستة من سفرائها في العالم للعمل على حشد الدعم له واقناع الدول الكبرى باهمية وضرورة بقاء نظامه،فهذا النظام حمى حدود الكيان الاسرائيلي، وساهم بخنق قطاع غزة، وشارك بشكل او باخر بالعدوان الاسرائيلي على غزة، وساهم بتعميق الانقسام الفلسطيني، ومنح الكيان الاسرائيلي الغاز مجانا وفتح الطريق امامه لغزو افريقيا والعالم العربي، وهي خدمات لا تقدر بثمن.

ولم تتغير المواقف الغربية الا بعد ان ايقنت ان الشعب المصري مصرٌعلى اسقاطه وانه صار قاب قوسين من الانهيار، وانه يلفظ انفاسه.

وليس بعيدا عن مصر نجد نموذجا اخر من الانظمة العربية، وهو النموذج الليبي، نموذج معمر القذافي "الثوري القومي" الذي تحول الى الشعارت "الافريقية والاممية " متنكرا للقومية العربية، وهي مفارقة سخيفة لزعيم يحب ان يحمل لقب "امين القومية العربية" الى جانب سلسلة الالقاب الاخرى.

مشكلة تاريخ القذافي "الثوري" تجاه فلسطين انه تاريخ اسود، فالعقيد كان احد رعاة "ابو نضال" الذي حمل بندقية للايجار، لم يقتل فيها اسرائيليا، بل تركزت كل هجماته على شخصيات فلسطينية، وهو بذلك كان ينفذ اوامر من يمنحه التمويل والدعم ومعسكرات التدريب، وكانت "ليبيا القذافي" احد الممولين الاساسيين لابي نضال.

الان وبعد اندلاع الثورة في ليبيا ضد حكم القذافي، وبعد ان خسر القذافي كل اوراقه المهمة، اخرج من جيبه الورقة الاسرائيلية، وقال ان بقاء نظامه صمام امان لاسرائيل، قالها صراحة وبدون مواربة في مقابلة تلفزيونية، وهو بذلك يكشف عن حقيقة الدور الذي يلعبه بنفسه، وانه احد حماة اسرائيل.

تدور العجلة الى سوريا التي تشهد ثورة شاملة ضد نظام البعث الذي يحكم البلاد منذ ٤٠ عاما وضد حكم الرئيس بشار الاسد، وهي ثورة تشمل كل المدن السورية بلا استثناء، حتى وان كانت دون المستوى في دمشق وحلب بسبب كثافة الحواجز الامنية التي قطعت المدينتن الى كانتونات على الطريقة الاسرائيلية في الضفة الغربية، وعلى الرغم من الاجراءات العنيفة ضد المدن السورية التي قصف بعضها بالدبابات، استشعر نظام الاسد خطر السقوط، فوضع على الطاولة ورقته الاخيرة، وهي امن اسرائيل وهي الورقة التي ابرزها رامي مخلوف "ابن خال الرئيس ورجل اعمال النظام" عندما ربط امن اسرائيل ببقاء نظام البعث والاسد.

ثم نفذ ذلك على الارض عندما سمح النظام السوري للمتظاهرين بالدخول الى الجولان المحتل لتاكيد ما قاله مخلوف ليبرهن انه من يحمي حدود اسرائيل، وربما هذا ما يفسر التلكؤ الغربي والامريكي على اتخاذ موقف داعم للثورة، بل عمد الغرب الى منح الاسد الفرصة تلو الاخرى لسحق الثورة الشعبية، وهو مالم يحدث، لان ثورة الشعب السوري اكبر من قدرة النظام على سحقها، وهذا ما دفع الغرب الى البدء باتخاذ مواقف اكثر بعدا عن نظام الاسد.

تصرفات هؤلاء الزعماء كشفت المستور عما كنا نعرفه دائما، وبينت من يحمي اسرائيل وحدودها ووجودها وبقائها، وهذا يذكرنا بعبارة تنسب الى موشيه ديان وزير الحرب الاسرائيلي الراحل الذي قال يوما " الجيوش العربية كلاب حراسة لنا"، وقد اثبتت الثورات في تونس ومصر وليبيا وسوريا، ان هذا الكلام صحيح، وربما تكشف الثورات المقبلة في العالم العربي عن مزيد من "الانظمة العربية" التي تحمي اسرائيل.

بضاعة أوباما الكاسدة

حفل خطاب الرئيس الأمريكي باراك أوباما الموجه للشرق الاوسط بجملة من خيبات الأمل، فقد حوى على مجموعة من المتناقضات الخطيرة، لأنه تحدث عن دعمه للديمقراطية والتغيير في الشرق الاوسط دون أن يتضمن هذا التغيير الحليف الاستراتيجي "اسرائيل" التي أيدها قلبا وقالبا، وتعهد بالحفاظ على أمنها وإحباط أي محاولة فلسطينية في الأمم المتحدة للإعتراف بالدولة الفلسطينية، وهاجم ما اسماه الجهود الرامية "لنزع الشرعية" عن إسرائيل "اليهودية الديمقراطية"، وأعتبر القدس وحلم الفلسطينيين بالعودة قضايا عاطفية، لا علاقة لها بالحقوق والتاريخ، رغم اشارته إلى "دولة فلسطينية منزوعة السلاح في حدود من فلسطين عام ١٩٦٧".

اذا تركنا جانبا حديث أوباما "البلاغي" عن تأييده للتغير في العالم العربي، فان الحقيقة تؤكد ان امريكا دعمت كل الدكتاتوريات في المنطقة بل وساهمت بتدبير انقلابات مقابل الحفاظ على مصالحها، ولم يكن الحديث الامريكي عن الديمقراطية وحقوق الانسان اكثر من ورقة ابتزاز للانظمة الحليفة او التابعة، لاجبارها على تقديم التنازلات لصالح امريكا واسرائيل.

لا نحتاج الى الاستطراد كثيرا في شرح هذه النقطة، فالولايات المتحدة لم تكن يوما "حليفا" للديمقراطية وحقوق الانسان في العالم العربي، الا بمقدار ما يخدم مصالحها او ما توفره من اوراق ضغط على هذا الطرف او ذاك.

مشكلة امريكا انها "لا تفهم الواقع" في العالم العربي، او على الاصح تفهمه كما تريد او كما تريد ربيبتها اسرائيل، ففي الوقت الذي يتحدث فيه اوباما عن الديمقراطية، يتحدث عن "دولة يهودية"، وهو الامر الذي ينسف اسس التفكير والفلسفة الديمقراطية، فهذا يعني استثناء المسلمين والمسيحيين من هذه الدولة بوصفها "دولة لليهود"، وهو بذلك يعطي

شرعية دينية لاسرائيل رفض ان يمنحها اياها حتى وزير الخارجية البريطاني "ارثر بلفور" صاحب الوعد الشهير باقامة "دولة قومية لليهود".

في الجانب الاخر من الصورة يتصرف اوباما مع الفلسطينيين بالتهديد والوعيد وعلى طريقة "مقسوم لا تؤكل، وصحيح لا تقسم، وكل حتى تشبع"، فهو يرفض ان يمارس الفلسطينيين المقاومة او ما يسميه بلغته "العنف" لاقامة الدولة، ويرفض ايضا ان يتوجه الفلسطينيون الى الامم المتحدة للحصول على اعتراف بدولة لهم، فكيف ذلك؟ وهل يمكن ان يقود هذا الامر الى "احلال السلام" في المنطقة؟ وما هو تعريف السلام الذي يريده اوباما وادارته؟

اوباما يدرك كما ادرك المعبوث الامريكي المستقيل للشرق الاوسط ان فلسطين هي ام القضايا في العالم العربي والاسلامي، وانها العقدة التي تتوقف عندها كل التحركات، وبدون حلها فان المنطقة ستكون مرجلا يغلي دائما، فلا اصلاح في المنطقة دون حل القضية الفلسطينية وانهاء الاحتلال الاسرائيلي وعودة اللاجئين الفلسطينيين الى ديارهم، واقامة دولة فلسطينية كاملة السيادة وعاصمتها القدس.

اوباما لم يقدم جديدا، ودار في حلقة مفرغة، وعرض على العرب بضاعة كاسدة لن يشتريها احد، حتى المغرمين بالبضائع الامريكية، واذا كان "مستقبل الولايات المتحدة مرتبط بالشرق الاوسط وشمال افريقيا"، واذا كان العالم العربي هب وانتفض وثار "للمطالبة بحقوقه الانسانية الاساسية" من اجل ان يزيح العرب عن كاهلهم "أعباء الماضي" ، كما قال اوباما في خطابه، فمن الضروري ان يفهم الرئيس الامريكي الولايات المتحدة هي جزء من اعباء الماضي والحاضر، وان استمرار دعمها اللامحدود لاسرائيل واحتلالها ووقوفها في وجه الحقوق الفلسطينية في وطنهم، سيضعها في مواجهة مباشرة مع الامة العربية والاسلامية، ومن اجل تفادي ذلك فان الثمن المطلوب هو ان توقف امريكا دعمها لاسرائيل واحتلالها وظلمها واعتداءاتها ضد الفلسطينيين والعرب.

نهاية العصر الأمريكي
في العالم العربي

يكرس الرئيس باراك أوباما نهاية العصر الأمريكي في العالم العربي أو "الشرق الأوسط كما يحلو للغرب أن يطلق على عالمنا" عبر تبنيه للطروحات الإسرائيلية إلى درجة التماهي على الرغم من "المحسنات اللفظية" التي تحفل بها خطاباته، في تعبير عن المأزق الأمريكي، الذي دخل في عنق الزجاجة بسبب الخسائر العسكرية الأمريكية في العراق وأفغانستان، والخسائر السياسية التي كشفت جانبا منها وثائق ويكليكس والثورات العربية.

لقد أثبتت وثائق ويكليكس أن واشنطن تتعامل مع العالم العربي بوصفه "عزبة أو مزرعة" تتصرف بها كما تشاء من خلال وكلائها الذين يروجون أن واشنطن تملك ٩٩% من أوراق اللعبة، وهو ما ثبت انه غير صحيح، فالثورات الشعبية العربية استطاعت أن تطيح برئيسين عربيين "تكلسا" في السلطة، خلافا لرغبتها ومحاولاتها المحمومة لحمايتهما، ولم تستطع أن تتوقع اندلاع هذه الثورات ولا مآلاتها أو النتائج التي ستفضي إليها، وكانت الأحداث أسرع من قدرة البيت الأبيض على التفكير والتدبير وربما "التآمر"، مما نزع من يدها ورقة التحكم بمسار الأحداث، وأوقعها في سوء التقدير والمعالجة واتخاذ مواقف متخبطة زادت من عزلتها في العالم العربي، وهوت شعبيتها المتهاوية أصلا إلى أدنى مستوياتها على الإطلاق كما أشارت استطلاع معهد بيو الأمريكي.

هذا الواقع المتغير والسريع دفع واشنطن إلى محاولة حماية الأنظمة التابعة لها من السقوط، وعندما فشلت حاولت التقليل من الأضرار والالتفاف على الثورات الشعبية، وعندما فشلت مرة أخرى، حاولت أن تلعب لعبة خلط الأوراق عبر الحاق جهات مرغوب بها بالثورة، وعندما فشلت في هذا المسعى أيضا، لم تجد بدا من رفع الغطاء عن الرؤساء التابعين لها من "حراس مصالحها" وضحت بهم، وقدمتهم قرابين على مذبح مصالحها في العالم العربي، ثم انتقلت إلى مرحلة الغزل مع "شباب الثورة"، الذين أشاد بهم الرئيس أوباما في البيت الأبيض.

لكن أمريكا التي تسير إلى "حتفها السياسي" في العالم العربي "الشرق الأوسط"، لم تستطع ان تخرج من جلدها، فراوغت الثورة في ليبيا، ولعبت معها لعبة المجهول، ولعبت ذات اللعبة في اليمن وحاولت أن توفر أكثر من طوق نجاة للرئيس علي عبد الله صالح الذي يتظاهر اليمنيون لإسقاطه وإجباره على الرحيل، أما في سوريا فقد كان الموقف الأمريكي "مخزيا ومعيبا" إلى درجة تفوق مواقفها السابقة كلها.

هذه المواقف أفقدت الولايات المتحدة الأمريكية مصداقيتها لدى المواطن العربي، لكن الضربة القاضية لهذه المصداقية جاءتَ عندما أعلن اوباما عن "التزامه الحديدي" والثابت بأمن إسرائيل، وانه "يتفهم خشية الإسرائيليين على وجودهم" كأمة.. وان وجود إسرائيل قوية وآمنة يلتقي مع المصلحة الوطنية لأمن الولايات المتحدة"، وتباهى في خطابه في امام مؤتمر منظمة "ايباك" اقوى جماعة ضغط يهودية في الولايات المتحدة "، بان المساعدات العسكرية لإسرائيل في عهده وصلت إلى مستويات قياسية وتعهد بمساعدتها على الاحتفاظ بتفوقها العسكري على كل العرب وجيرانهم.

الرئيس الأمريكي أوغل في الأخطاء السياسية القاتلة، عندما هاجم اتفاق المصالحة بين فتح وحماس، ودعا إلى اعتراف الفلسطينيين بحقوق "إسرائيل" في منطق مقلوب، وتناسى أن إسرائيل هي التي تحتل فلسطين وتشرد الشعب الفلسطيني، وهي التي تمنع قيام دولة فلسطينية وتهود القدس والضفة الغربية، وتحاصر غزة، وتسن القوانين ضد الفلسطينيين في فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨ لإجبارهم على الرحيل، وعلى الرغم من كل ذلك يدعو إلى "حق إسرائيل..." وإلى اخذ الحقائق الديمغرافية "لليهود المحتلين" بعين الاعتبار دون أن يأخذ الحقائق الديمغرافية للفلسطينيين بعين الاعتبار.

أوباما تماهى مع الطروحات الإسرائيلية تماما بعد التوبيخ الذي تلقاه من رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو في البيت الأبيض وأمام عدسات كاميرات الإعلاميين من كافة أنحاء العالم وألقى عليه درسا طويلا ـليحذره من " ان خطته للسلام واهمة"، ويؤكد على لاءاته الأربعة: "لا لحدود ١٩٦٧ ولا لمفاوضات مع حماس ولا لعودة اللاجئين الفلسطينيين ولا للانسحاب الإسرائيلي من غور الأردن".وترافق ذلك مع خطط لبناء مزيد من المستوطنات والوحدات الاستيطانية في الضفة الغربية والقدس.

الولايات المتحدة فقدت كل مصداقيتها وتحولت إلى خصم حقيقي للشعوب العربية، وفقدت القدرة على التأثير في مجريات الأحداث، وفشلت بحماية الرؤساء التابعين لها من السقوط، وهذا يعني بكل بساطة أن الثورات العربية تسرع بنهاية العصر الأمريكي في العالم العربي، فالجيل الجديد من الشباب العرب افلتوا من القبضة الأمريكية والغربية وفكوا طوق الإذعان، وأربكوا السياسة الأمريكية وافقدوها توازنها وقدرتها على الحركة الراشدة.

الخداع الأمريكي
الفرنسي البريطاني للعرب

تحاول أمريكا وفرنسا وبريطانيا امتصاص زخم الثورات العربية في تونس ومصر وليبيا وسوريا ومصر عبر فرض قواعد جديدة للعبة وتحديد اطر التحرك والمناورة للقوى المختلفة لضمان عدم خروج الأمور عن السيطرة والحيلولة دون انتقال السلطة للشعوب في هذه الدول لتامين مصالحها وعلى رأسها بالطبع إسرائيل، التي تعتبر ثابتا غير قابل للنقاش في الغرب بشقيه عبر الأطلسي.

وفي سعيها لامتصاص الثورات أو تفكيكها تنتهج باريس وواشنطن ولندن، سياسة خلط الأوراق والرسائل المتناقضة والخطاب المموه في عملية خداع على أعلى مستوى، تذكرنا بالخداع الأوروبي للعرب في مطلع القرن العشرين عندما وعدت بريطانيا الشريف حسين بتمكينه من إنشاء مملكة عربية في بلاد الشام والجزيرة العربية في الوقت الذي كانت تقسم بريطانيا وفرنسا الأرض العربية إلى مناطق استعمارية بينهما فيما عرف باتفاقية "سايكس-بيكو"، في اكبر عملية كذب وخداع استهدفت الأمة العربية ترتب عليها نتائج خطيرة لا يزال العرب يدفعون ثمنها حتى الآن، أي بعد قرن من إبرامها، وقد أدت اتفاقية سايكس بيكو السرية التي أبرمت عام ١٩١٦ إلى تفكيك الإمبراطورية العثمانية بين بريطانيا وفرنسا بموافقة روسيا، وتقسيم المناطق التي كانت تخضع للسيطرة العثمانية، وهي سورية والعراق ولبنان و فلسطين، إلى مناطق تخضع للسيطرة الفرنسية وأخرى تخضع للسيطرة البريطانية. هذا التاريخ الأسود والمخزي للغرب في بلادنا يجعلنا نشك في كل شيء يقومون به، إلى حد أننا "نعد أصابعنا" عندما يصافحوننا.

وإذا ما انتقلنا من الخداع الكبير في القرن العشرين إلى مراقبة تصرفات الغرب " الأمريكي- الفرنسي- البريطاني" في القرن الواحد والعشرين، فإننا نجد أن عملية خداع غربية كبيرة تجري حاليا، يفضحها دعم الأنظمة الدكتاتورية الفاسدة في العالم العربي،ودعمها والحيلولة دون سقوطها، كما حدث في تونس، عندما أعلنت فرنسا عن استعدادها عن إرسال

قوات لمساعدة الرئيس الهارب زين العابدين بن علي، ومحاولة الولايات المتحدة إنقاذ نظام مبارك من السقوط، لكن حركة الشارع في تونس ومصر كانت أسرع من الحركة الفرنسية الأمريكية، مما اجبرهما على التخلي عن بن علي ومبارك. لكننا نلاحظ اليوم أن الغرب يحاول إفشال الثورة في ليبيا وسوريا واليمن، وتقنين انتقال السلطة حسب الرؤية الغربية، ففي ليبيا التي تم الاتفاق عليها أوروبيا بوصفها "منطقة نفوذ فرنسية" نيابة عن الأوروبيين، تحاول فرنسا اربكاك المشهد الليبي، عبر تعطيل حركة الحسم العسكري للثوار الذين يقاتلون القذافي، وعدم مساندتهم بالقدر الكافي، لتمكينهم من الزحف إلى طرابلس، فهي لا تريد سقوط القذافي دون ترتيب الأوضاع بما يضمن استمرار الهيمنة الغربية على ليبيا وضمان انتقال السلطة إلى "أشخاص مضمونين ومعروفين"، وفضح ذلك تصريحات المسؤولين الفرنسيين المتناقضة عن "الحل السياسي" في ليبيا، في الوقت الذي يقول فيه الثوار الليبيون إنهم لن يقبلوا بأي حل لا يعني نهاية حكم القذافي ورحيله مع عائلته وأعوانه.

أما الأمريكيون فقد حاولوا من جانبهم منح القذافي فرصة لحسم الأمور لصالحه، عبر تلكؤهم السياسي ووقف عملياتهم العسكرية، وهو ما قاموا به في اليمن حيث عملوا على إنقاذ نظام علي صالح، وحاولوا إرباك الثورة ودفعها إلى التناقضات المتضاربة، وهو ذات السلوك في سوريا، حيث منحت واشنطن وباريس ولندن نظام الأسد الفرصة تلو الأخرى للتغلب على الثورة الشعبية، والسيطرة الوضع من جديد، وإعادة تأهيله عالميا، ولا ننسى أن الصين وروسيا قدمتا غطاء دوليا لنظام الأسد مكنه من الإفلات من إصدار أي قرار من مجلس الأمن حتى الآن.

أمريكا وفرنسا وبريطانيا ومعهما قوى غربية ودولية، تعمل على تقاسم مناطق النفوذ من جديد في العالم العربي، من خلال تفتيت الوطن العربي، وإرهاقه بالمشاكل والحروب والأزمات واستنزافه اقتصاديا ونهب ثرواته، وهذا الأمر ليس ضربا من الخيال بل حقيقة، فانفصال جنوب السودان حقيقة، وتفتت الصومال الذي يعاني من المجاعة حقيقة، ونهب ثروات العراق وتفتيته حقيقة، والتحالف مع إسرائيل ضد العرب والفلسطينيين حقيقة، وإجبار الدول العربية على التعامل بالدولار الأمريكي لتخفيف الضغط عن الأزمة المالية الأمريكية حقيقة، والوقوف ضد الثورة في سوريا واليمن حقيقة، والتلاعب بالثورة الليبية حقيقة.. وهذا ما يجعلنا نحذر من حقيقة ما يقوم به التحالف "الأمريكي- الفرنسي- البريطاني - الإسرائيلي " في العالم العربي لكي لا نقع مرة أخرى ضحية لاتفاقية "سايكس - بيكو" جديدة تقسمنا وترث بلادنا ونحن أحياء.

على الغرب أن يخرس

الغرب كذاب بامتياز، من أوروبا إلى أمريكا وكندا وصولا إلى استراليا، فهو الذي صك العبارة الشهيرة " لدينا مصالح دائمة لا أصدقاء دائمون"، ولا يتردد عن التخلي عن "الحلفاء" ويقفز من ضفة إلى أخرى دون خجل أو حياء.

الثورات العربية في تونس ومصر وليبيا "كشفت الطابق" ووضعت الغرب في المعمعة ولم يستطع أن يخفي كذبه وهو الخبير بالمؤامرات والدسائس والحيل والشواهد على ذلك كثيرة خلال الشهرين، ونبدأ من فرنسا التي عرضت على الرئيس المخلوع زين العابدين بن علي إرسال خبرات أمنية لمساعدته قبل أسبوع واحد من سقوطه، قلبت له ظهر المجن، وهي سقطات عبر عنها السفير الفرنسي في تونس ووزيرة الخارجية الفرنسية "المخلوعة"، ولم ترفع فرنسا الغطاء عن زين العابدين إلا عندما هرب، وتوجه بطائرته إلى باريس بدون اتفاق مسبق، فطلبوا من الرئيس الهارب تغيير وجهة طائرته إلى دولة أخرى، رغم انه صديق وفي لفرنسا قدم لها خدمات لا تقدر بثمن، فباريس لا تستطيع احتضان "صديق سابق" يحمل صفة الرئيس المخلوع، فما كان من بن علي إلا أنه غير وجهة طائرته التائهة في الجو، وعندما احتاج الرئيس المخلوع إلى تزويد طائرته بالوقود، فوق جزيرة سردينيا الايطالية، وهي حليف سابق أيضا لبن علي، اشترط عليه الايطاليون أن يغادر مباشرة بعد أن يملئ خزان طائرته في مدينة كاليري لأنهم "لا يحتملون وجوده"، فرئيس الوزراء الايطالي بيرلسكوني غارق في مشاكله مع "القاصرات"، ولا يحتاج إلى المزيد من المشاكل.

الغرب الذي أفلتت منه تونس حاول ان "يلملم" الوضع في مصر، بعد ان ثار شباب ٢٥ يناير واحتلوا ميدان التحرير، وحاولت أمريكا أن ترتب الأوضاع لخلافة مبارك، عبر الرجل الذي كان قويا "عمر سليمان"، ولم تفلح، وحاولت من خلال الجيش ولم تفلح، وعندما أيقنت أن أهم حليف لأمريكا والغرب في العالم العربي على وشك السقوط رفعت عنه الغطاء، وخرج

الرئيس الأمريكي ليمدح "الثورة المصرية النموذجية واعتبرها درسا يجب أن تتعلم منه الشعوب".

الغرب الذي فقد حليفين مهمين قدما له مهمات "لا تقدر بثمن"، وذهل عندما وجد أن الثورة تمتد إلى ليبيا التي يقودها العقيد معمر القذافي، فقرر أن لا يتدخل لأنه لا يريد أن "يزعج" العقيد كما قال "كازانوفا القاصرات" بيرلسكوني ومنحت أوروبا بضغط من ايطاليا القذافي يومين للقضاء على "التمرد"، وتذبذبت الولايات المتحدة الأمريكية بمواقفها وكذلك بريطانيا وفرنسا، فهي تريد العقيد، لكن اللعبة خرجت من أيديهم، وعندما أيقنوا أن العقيد "ساقط" لا محالة، تشددوا في مواقفهم الكلامية وإجراءاتهم ضده.

يفترض نظريا أن القذافي "الثوري الأممي المعادي للرأسمالية والامبريالية الغربية" انه عدو للغرب وانه سيكون سعيدا بسقوطه، لكن الأحداث أثبتت أن العقيد لم يكن عدوا بل كان صديقا نافعا يملأ أفواههم بالنفط وخزائنهم بالمال ويضمن مصالحهم بأرخص الأثمان، لذلك منحوه الوقت لكي يتصرف، لكنهم غيروا وجهتهم مرة أخرى عندما وجدوا أن رياح الثورة تهب على طرابلس بعد أن احكم الثوار قبضتهم على معظم المدن الليبية.

الغرب الذي يتحدث عن حقوق الإنسان والديمقراطية والحرية، ليس له أي مصداقية في العالم العربي، فهو براغماتي نفعي بلا أخلاق، الثابت الوحيد عنده في عالمنا العربي صداقته ورعايته واحتضانه لإسرائيل، وهمه الوحيد أن يستنزف نفط العرب وأموالهم وثرواتهم، لا يهمه من يحكم إذا ضمن له ذلك، وهذا ما يضع الحكام العرب في الزاوية الحرجة داخل المربع الصعب، فكما تخلى الغرب عن مبارك وبن علي والقذافي في "ليلة ما فيها ضوء قمر"، سيتخلى عن أي حاكم آخر إذا تيقن انه على وشك السقوط، و"سيذبحه على السكين"، ويمنعه من السفر ويجمد أمواله، أو بالأحرى "أموال الشعب التي نهبها".

هذه الوقائع توصلنا إلى الحقيقة التالية، إن على ما تبقى من الحكام العرب التحالف مع شعوبهم فالغرب لن يحميهم ، وصرف الأموال على مواطنيهم بدل إيداعها في بنوك الغرب، فالغرب لا يتردد عن تجميدها او مصادرتها، فهو لا يعترف بصديق أو قيم أو أخلاق، وعندما يتحدث عن القيم والأخلاق والمبادئ علينا أن نقول له "اخرس"، فنحن نعرفك على حقيقتك.

الثورات العربية تسقط جدران النار

منذ السابع عشر من شهر ديسمبر-كانون أول من العام الماضي والثورات تجتاح الوطن العربي وتنتقل من بلد إلى بلد، أي أن نصف عام قد انقضى تقريبا منذ أن احرق الشهيد محمد البوعزيزي نفسه في تونس، مطلقا الشرارة الأولى لثورة أطاحت بالرئيس زين العابدين بن خلال ٢٨ يوما فقط، وأصبح يحمل لقب "الرئيس الهارب"، تلاه الرئيس المصري "المزمن" محمد حسني مبارك الذي أطاح به الشعب المصري خلال ١٨ يوما، كاسرا بذلك الرقم القياسي لزين العابدين.

الثورات العربية الممتدة اصطدمت بعد ذلك بجدار النار الذي أشعله الزعيم الليبي معمر القذافي والرئيس اليمني علي صالح والرئيس السوري بشار الأسد، وتحولت الثورة في ليبيا إلى حرب بين عصابات القذافي التي يطلق عليها الكتائب الأمنية وبين بقية الشعب، فقتل حتى هذه الساعة أكثر من ١٠ آلاف ليبي ودمر المدن واهلك الحرث والنسل، وقصف المنشات النفطية وخرب البلاد إلى الدرجة التي يقدر فيها الخبراء كلفة إعادة البناء تحتاج إلى ما يقرب من نصف ترليون دولار "٥٠٠ مليار دولار".

وعلى شاكلته الرئيس اليمني علي عبد الله صالح الذي يرفضه الشعب ويخرج الملايين إلى الشوارع الميادين والساحات للمطالبة برحيله، فيرد عليهم بالرصاص والقتل وسفك الدماء وقصف الطائرات الحربية المقاتلة، ويسلم مدينة زنجبار إلى مسلحين يزعم أنهم من أنصار تنظيم القاعدة، ويهدد بإشعال حرب أهلية، ويقصف بالصورايخ منزل الشيخ صادق الأحمر، شيخ قبيلة حاشد، ليشعل فتيل الحرب التي يريدها لتبرير بقائه في السلطة، إلا أن حكمة الشيخ الأحمر تفوقت على خداع علي صالح ومرواغاته وكذبه، وفوت عليه فرصة إشعال حرب أهلية، على الرغم من إهانة الكرامة القبلية للأحمر وعائلته، بارتكابه "للعيب الأسود" الكفيل بإشعال نار وقودها العباد والبلاد، لكن الشيخ الأحمر توعد بإخراج صالح من اليمن "حافي القدمين".

وعلى غرار القذافي وصالح يتصرف الرئيس السوري بشار الأسد، وريث أبيه الذي ورثه البلاد والعباد في سوريا، وتقصف دباباته درعا وحمص ودوما وبانياس وتل كلخ، ويريق الدماء في كل المدن السورية التي يحاصرها بكتائبه وشبيحته ويطلق النار على الجميع ويقتل الأطفال مثل حمزة وهاجر، ويخطف المثقفين ويهدد الصحفيين والإعلاميين، ويحول المدارس إلى سجون، ويقطع أوصال المدن بالحواجز الأمنية.

الثلاثي الدموي، القذافي وصالح والأسد، سيقدمون إلى محكمة الجنايات الدولية لا محالة، فهم سفكوا من الدماء ما يكفي لإدانتهم، كما حدث مع الصربي سلوبودان ملوسوفيش وأركان حكمه من القتلة، مهما طال الزمن ومهما أوغلوا في الدماء، فالشعوب ستهزم جلاديها مهما بلغت التكاليف من الدم، فالشعوب العربية في ليبيا واليمن وسوريا ستنتصر، وستنال الحرية التي تريدها، وستتخلص من ربقة الاستبداد والتسلط والظلم، كما حدث في تونس ومصر، وستقدم هؤلاء الجلادين للمحاكمة العادلة لكي يدفعوا ثمن ما اقترفوه من جرائم، وما سفكوا من دم.

عقارب الساعة لن تعود إلى الوراء وهؤلاء المتسلطون لن يبقوا في السلطة رغم انف الشعوب التي ترفضهم وتلفظهم، وبالتالي سيرحلون.. انه زمن الثورات العربية الكبيرة، وزمن البذل والعطاء والشجاعة والإقدام والجرأة وكسر الخوف وإسقاط جدران النار.. انه زمن إسقاط الطغاة، كل الطغاة، وقد اثبت التاريخ أن الطغاة جبناء مهما تسلحوا وتظاهروا بالقوة.

نحو مرحلة عربية جديدة

يمر العالم العربي بمرحلة انتقالية شديدة الحساسية، تبدو في بعض الاحيان شديدة الغرابة، بعيدة عن منطق الاشياء البسيطة التي اعتدنا عليها في حياتنا، فنصف العالم العربي تقريبا يعيش حالة مخاض عسير للثورات الشعبية، التي نجح بعضها جزئيا، في حين لا يزال البعض الاخر يراوح مرحلة الدم والقتل.

ففي الوقت الذي نجحت فيه الجماهير في تونس ومصر من التخلص من رئيسين "مزمنين ومدمنين" على السلطة، تصطدم الشعوب الثائرة في ليبيا واليمن وسوريا بعناد الرؤساء وآلتهم العسكرية وحربهم الضروس، في مشهد يبدو وكأن افق نهايته غائب.

الشعوب ستنتصر في النهاية، لكنها ستدفع ثمنا غاليا جدا من الدم، كما يحدث في بلاد العقيد والشاويش والدكتور، الذين يصرون على خوض الحرب ضد الابرياء حتى آخر قطرة دم، وآخر حجر في آخر مدينة وقرية، وهي كلفة باهضة ودامية ستخلف جروحا وندوبا لا تندمل مع الزمن.

نجح الشعبان في تونس ومصر باسقاط الراسين لكنهما لم يفلحا حتى الان باسقاط النظامين، ولا تزال قوى الشد العكسي في البلدين تحاول ادارة الدفة الى اتجاه آخر غير ما ثار الناس من اجله، وهو "اسقاط النظام" بالكامل بما يعنيه ذلك من اسقاط الرموز والوجوه والقوانين والتشريعات والمؤسسات المرتبطة بالنظام، اي تفكيك النظام بشكل كامل، ولهذا لا نستطيع القول ان الثورة نجحت في تونس ومصر، بالمعنى الحرفي، رغم تحقيق قدر جيد من النجاح، لكنه نجاح مغموس بالمرارة والخوف من امكانية الفشل اذا استمر الوضع على ما هو عليه الان.

هل يمكن ان تفشل الثورة في تونس ومصر؟ اقول بكل اسف نعم، هذا احتمال وارد لاسباب عديدة، اخطرها عدم وجود اطار "فكري ثقافي سياسي اجتماعي" للثورة، التي كانت

نتاج الغضب اكثر من كونها حالة منظمة مؤسس لها ايديولوجيا وعقائديا. فالوجع والالم والمعاناة وحدت الناس واخرجتهم الى الشارع، ودفعتهم الى التظاهر لاسقاط النظام، بدون اي تحريض ثقافي او تنظير للعملية برمتها، وبالتالي فان غياب هذا العامل الاساسي المهم سرعان ما يدخل الثورة او "غضب الناس" في مرحلة من التخبط والعشوائية والفوضى بل حتى والصدام في بعض الاحيان.

للمفارقة الساخرة فان غياب هذا العامل "الاساس العقائدي للثورة" كان احد اهم، ان لم يكن العامل الحاسم بنجاح الثورتين في تونس ومصر، فالعامل العقائدي يحتاج الى اطر وتنظيمات واحزاب وكوادر مؤطرة، وقيادات ومرجعيات قائدة، واعتقد جازما ان وجود مثل هذه الاطر والمرجيعات القيادية، ل كانت موجودة، لتم القضاء على الثورتين بسهولة بالغة، عبر التخلص من هذه القيادات واطرها، او على الاقل الدخول معها في صفقة ستقود للقضاء على الثورة في مهدها، وقد شاهدنا ذلك في مصر وتونس، فقد حاولت الاحزاب المصرية التقليدية الخائبة ان تلعب هذا الدور الرديء، عندما قبلت شروط عمر سليمان نائب الرئيس المخلوع، وكان ستقضي على الثورة لولا رفض المتظاهرين في ميدان التحرير لصفقتهم مع عمر سليمان، وهو الرفض الذي افشل مخطط "افشال الثورة"، وكذلك الامر في تونس عندما قبلت بعض الاحزاب التقليدية الخائبة، الدخول في اللعبة والاشتراك في حكومة رفضها الشعب برمته، واسقطها كما اسقط الرئيس الهارب زين العابدين. وهنا النقطة الايجابية لثورة الشارع التي كانت بلا راس مرجعي يمكن اقناعة او استمالته او شراؤه او قتله، فالمتظاهرون في الشوارع هم اسياد انفسهم وهم ملوك الميادين، وهو امر ايجابي، لكن استمراره يعني الانتقال الى الحالة السلبية، فاستمرار الثورة بلا راس بعد ذلك يعني الدخول في نفق مظلم يتيح لقوة الردة "المضادة للثورة" من اللعب مجددا وتقليل خسائرها، بل وتحقيق بعض النجاحت احيانا، وهو ما نشاهده في تونس ومصر حاليا.

لا ريب ان ما يحدث في تونس ومصر وباقي العالم العربي يعبر عن حراك شديد نحو مرحلة جديدة للامة العربية، مرحلة تحاول فيها الشعوب استعادة زمام المبادرة، لكي تقود نفسها بعيدا عن الوصاية والتسلط والاستبداد، لكنها في نفس الوقت مرحلة تكتنفها المخاطر اذا وقف "المثقفون الثوريون" على الحياد يراقبون ما يحدث بصمت، لان الجماهير لا تستطيع ان تقود نفسها مهما بلغ حماسها وطهارتها واقدامها وتضحياتها.

الشعوب لا تهزم

الأنظمة الحاكمة في ليبيا واليمن وسوريا وصلت إلى طريق مسدود، لأنها ترفض الاستجابة للمطالب الشعبية بالتنحي والرحيل، وترد بالنار والرصاص على الجماهير الهادرة في الشوارع والتي تطالب بالحرية والكرامة والعدالة وحق تقرير المصير بعيدا عن الاستبداد والظلم والتجبر.

أفعال هذه الأنظمة ترتقي إلى "جرائم حرب ضد الإنسانية" وهي جرائم لا تسقط بالتقادم، أو الصفقات، لا سفكت الدماء وسارت في سبل مفروشة بالدم والجثث والقتلى. وهؤلاء الحكام لا يريدون أن يفهموا أن التاريخ يغير مساره، ولا يريدون أن يستوعبوا أن معاندة التاريخ لا تجدي، وان الشعوب لا تهزم أبدا مهما كانت الثمن ومهما كانت التضحيات.

مشكلة هذه الأنظمة الدموية في "ثالوث الشر المستحكم" أنها تلعب لعبة المقامر المغامر ونظرية "عليَ وعلى أعدائي يا رب"، فقادتها يوهمون أنفسهم أنهم سيربحون في المرة القادمة، مثلما يفعل المقامر الخسران، الذي يتخيل انه سيربح إذا لعب مرة أخرى، لكنه يخسر، فيذهب إلى لعبة أخرى حتى يخسر كل ما لديه، وفي النهاية يخسر نفسه، وهؤلاء الحكام يخوضون المعركة تلو الأخرى ضد الشعوب، وفي كل مرة يعتقد الواحد منهم انه سينتصر، أو يزين له زبانيته وهم الانتصار على "المندسين والمخربين والخونة والعصابات والجرذان"، ويوغل في سفك الدماء، ثم يغرق في بحر من الدماء، ويبني صرحا من الجثث ويلون الشوارع باللون الأحمر، ومرة بعد أخرى يصبح أكثر دموية وإجراما، حتى إذا أيقن احدهم انه لن ينتصر يشكر عن أنيابه ويعلن الحرب على الشعب ليحول البلاد إلى "جمر ونار وحمراء" ليحرق الأخضر واليابس ويخرب كل ما يمكن تخريبه ويدمر كل ما يمكن تدميره.

هؤلاء الحكام القتلة لا يدركون أن لا حاكم في الدنيا يكسب في "لعبة الدم"، وان من يلعب بالدم يحترق مهما طال الزمن، تماما كما احترق الحجاج وهتلر وفرانكو وستالين وموسوليني وميلوسوفيتش، وهم يدركون "بوعي أو لاوعي" أنهم لن ينتصروا ولذلك يصرون على المضي قدما في لعبة الدم ولا يعبأون بمعاناة ودموع وجوع الناس.

الأنظمة في ليبيا واليمن وسوريا تعيش "حالة إنكار"، ولا تعترف بوجود شعب، فهم لا يرون إلا "جرذان ومندسين وخونة وعصابات"، والتعامل مع هؤلاء لا يكون إلا بالرصاص والقتل، لأنهم ليسوا بشرا ولا تنطبق عليهم شروط الآدمية، ولذلك تغرق شوارع حماة السورية في الجثث، ويكتسي ميدان الحرية في تعز اليمنية بدماء المعتصمين، وتسمم كتائب العقيد الليبي مياه مصراتة بالمبيدات لقتل " الجرذان" من الذين يعتبرهم العالم بشرا، ولا تشم فيها إلا رائحة الدم والنار.

أي نوع من الحكام هؤلاء الذين يبنون عروشهم من الجماجم والجثث والدماء؟! أي نوع من البشر؟ إذا كانوا بشرا!.. هل نسي هؤلاء الحكام أنهم أجراء عند الشعوب وليسوا أسيادا عليهم، وأنهم لا يملكون البلاد التي يتصرفون بها كمزارع لهم ولأولادهم ومحاسبيهم دون حسيب أو رقيب؟!.

مهما جرى فان التاريخ العربي الجديد يكتب بالدم في ليبيا واليمن وسوريا، كما كتب بالدم في تونس ومصر، والشعوب العربية قررت أن تتحرر ولن تعود إلى الوراء، مهما واجهت من بطش وقتل وتنكيل، ومن يظن انه سينتصر على إرادة الحرية لدى الشعوب فهو واهم، ومن يتوهم أن الشعوب ستتعب فهو يعيش في غيبوبة خارج الزمن .. انه الزمن العربي الجديد، زمن كسر الخوف والرعب والانعتاق واستعادة حقوق الشعوب المسلوبة.

المتمردون على الشعوب

يرفض حكام سوريا وليبيا واليمن الاستجابة للمطالب الشعبية بالتنحي، بل تحول هذا الرفض إلى عمليات مسلحة ضد الشعب لإجباره على تغيير وجهة نظره بقوة السلاح، والحصار والقتل والاعتقال والتشريد، الأمر الذي يدخلنا في منظومة جديدة من المفاهيم لتوصيف منظومة الحكم في هذا البلدان العربية التي تدار كشركة عائلية أو عزبة خاصة، فالعائلات الحاكمة في سوريا وليبيا واليمن هي "أنظمة أو منظومات متمردة على الشعوب" فهي استولت على الحكم من خلال انقلابات عسكرية ثم آلت إلى الأبناء والأقارب بالوراثة.

هذه المنظومات المتمردة على الشرعية الشعبية يمكن اعتبارها خارجة على القانون، فقد سلبت الحكم بالقوة، وحكمت بالعنف والقمع والخداع والمراوغة، وسرقت حقوق الشعوب في اختيار من يحكمها،ومارست اللصوصية من أوسع أبوابها.

الوضع في العالم العربي خرج من القمقم ولن يعود إلى الوراء ثانية، فالجماهير نزلت إلى الشوارع وكسرت جدار الخوف والرعب وأعلنت التحدي وواجهت الآلة العسكرية وتصدت للموت بصدور عارية، وتحول الصراع بين "المنظومات الاستبدادية الحاكمة" والشعوب إلى معركة بين "السيف والدم" وبين "العين والمخرز".

لا يمكن لهذه الأنظمة الاستبدادية ان تنتصر مهما كانت الأسباب والظروف، فالسيف لا يستطيع الانتصار على الدم، ولو افترضنا "جدلا"، أن منظومة استبدادية استطاعت التغلب على الناس، فأي دولة وشعب ستحكم هذه المنظومة الاستبدادية؟ واقع الحال يقول ان هذه المنظومة الحاكمة ستحكم أرضا محروقة وشعبا خاضعا بقوة السلاح، فهل يستقيم هذا؟ بطبيعة الحال لا، لان الحالة الجمعية للشعوب لا يمكن إخضاعها مهما كانت حجم القوة المستخدمة.

مشكلة الأنظمة الحاكمة في العالم العربي أنها لا تريد الاعتراف بالزمن الجديد للشعوب، زمن المطالبة بالحرية والعدالة والكرامة، وهذا ما يضع الأنظمة والشعوب "وجها لوجه"، في

مواجهة "كسر إرادات"، الأمر الذي يسقط الشرعية عن هذه الأنظمة، وهي شرعية مشكوك بها أصلا".

حتما ستعترف الأنظمة الحاكمة في العالم العربي، بالزمن العربي الجديد، ولكن بعد سفك الكثير من الدماء ودفن العديد من جثث القتلى، وتدمير الاقتصاد، وإفقار الناس الفقراء أصلا، وستنزل عند رغبة الجماهير العربية، بعد أن تستنفذ كل ما لديها من الرصاص، وبعد أن توقن ان "البلطجية والبلاطجة والشبيحة والكتائب الأمنية والقناصة" غير قادرين على حسم المعركة، وأنهم لن ينتصروا على الشعوب، وعندما تصل الأنظمة إلى هذه النتيجة تكون البلاد قد تحولت إلى يباب وأرضا محروقة يعم فيها الفقر والبطالة والخراب كما يحدث تماما في سوريا وليبيا واليمن.

في عصر الشعوب العربية الثائرة بمواجهة "الأنظمة المتمردة"، لن يتوقف مد النار الذي أشعله الشهيد التونسي محمد البوعزيزي، ومهما حاولت هذه الأنظمة المكابرة فهي ستسقط حتما، مهما حاولت اللعب على الأوتار الطائفية والقبلية والجهوية، ومهما أوغلت في الدم..

فالعالم العربي يشهد مخاض الدم لولادة الحرية، في ظل استعادة الشعوب العربية لثقتها في نفسها، واكتشافها أنها قادرة على التحدي ومواجهة صلف "الحكام الخارجين عن شرعية الشعب وإرادته وبيعته".

التصدي للثورة المضادة

تحاول قوى الشد العكسي في العالم العربي احباط الثورات العربية وافشالها وتيئيس الشعوب من امكانية التغيير، وتبذل كل ما في وسعها لتحويل الثورات الى حالة احتجاجية دون نتائج.

تضم قوى الشد العكسي في العالم العربي، فلول الانظمة الساقطة، والانتهازيين غير الراغبين بالتغيير، واصحاب المصالح المرتبطة بهذه الانظمة، وبعض الانظمة العربية التي لا ترغب بنجاح اي نموذج ثوري عربي، ومعهم بالطبع قوى اجنبية من اوروبا وامريكا والصين وايران، وهي جميعها تتحرك لافشال الحركة الجماهيرية العربية، ولكل واحد منها اسبابه بالطبع، وقد تختلف فيما بينها لكنها تتفق على الوقوف في مواجهة حركة التحرر العربية الجديدة.

هذه القوى تعمل على خلق تحالفات على الارض للالتفاف على الثورة وتفكيك مقومات نجاحها من خلال الاستعانة بادوات قادرة على التاثير من الداخل مثل الجيش والقوى السياسية المرتبطة بالغرب ورجال الاعمال والبلطجية و المرتزقة، ففي تونس مثلا اطاحت الثورة براس النظام لكنها لم تطح بالنظام ورموزه كليا، فرجال الرئيس الهارب بن علي لا يزالون يتحكمون بالمفاصل، والادوات الامنية لاتزال على حالها، ولا تزال تتصرف بنفس العنف والعنجيهة مع الناس والمتظاهرين في القصبة.

ذات الواقع نجده في مصر حيث يحاول المجلس العسكري، الذي يحكم قبضته على السلطة التسويف وعدم تمكين الثوار من تحقيق اهدافهم باقامة دولة العدالة والحرية والكرامة والمساواة والديمقراطية، ولا يقدم على تنفذ اي خطوة الا تحت الضغط الشعبي والمظاهرات المليونية، ولا يستطيع المجلس العسكري ان يتخلص من لوثة انجذاب العسكر للسلطة مثل المغناطيس، مما دفع المصريين للنزول الى ميدان التحرير في قلب القاهرة

والهتاف ضد المجلس العسكري والمطالبة باسقاطه، لشعورهم ان ما يجري هو عبارة عن انقلاب عسكري ناعم يهدف الى تصفية الثورة نهائيا وعلى مراحل والوصول على صيغة حكم العكسر بالتحالف مع بعض القوى.

ومن اجل هذا الهدف يقوم تحالف قوى الشد العكسي بتعطيل الانتاج، والحركة الاقتصادية والاعمال، واشاعة الفوضى وعدم الاستقرار وانعدام الامن بهدف تشويه الثورة وتحويلها الى "اضطرابات" او احتجاجات فوضوية لتحويل حياة الناس الى جحيم، فالمجلس العسكري يطبق نفس مفاهيم النظام السابق مع تغيير بعض الوجوه، وهو يمارس الخداع بطريقة ناعمة، واحيانا فجة كما فعل اللواء محسن الفنجري الناطق باسم المجلس عندما هدد الشعب ملوحا باصبعه، وهي الحركة التي اثارت الشعب المصري ودفعتهم للمطالبة باسقاط النظام العسكري بوصفه امتدادا لنظام مبارك المخلوع، بل ان احد المصريين علق على اصبع الفنجري بقوله " دول عايزين يعلمونا الادب، ازاي تجرانا وعملنا ثورة واطحنا بمبارك".

اما في ليبيا واليمن وسوريا فقد عملتِ الانظمة القمعية على جر الثورة السلمية وتحويلها الى مواجهة مسلحة، وقد نجح العقيد معمر القذافي بفرض الحل العسكري على الشعب الليبي، وعمد الى القتل والذبح ومحاصرة المدن وتسميم ابار المياه، ونعم بمؤازرة بعض الدول الاقليمية والدولية التي منحته الفرصة للقضاء على الثورة، وكذلك الامر في اليمن وسوريا حيث تواطات دول عربية واجنبية على دعم نظام علي صالح ونظام بشار الاسد، رغم الثورة الهادرة لملايين التي تنادي بسقوط النظامين الاستبداديين الدمويين في البلدين، وهنا يختلف المشهد عن تونس ومصر حيث يتكفل الدعم الخارجي المباشر وغير المباشر بلعب الدور الاكبر كقوة شد عكسي لتصفية الثورة.

من المستحيل هزيمة الشعوب، فارادة الشعوب لا تهزم، والانظمة الاستبدادية القائمة على الظلم ستسقط لا محالة طال الزمن ام قصر، وما تعمله قوى الثورة المضادة والشد العكسي هو تاجيل السقوط لبعض الوقت وزيادة معاناة الشعوب وخسارة المقدرات والثروات والدماء..

ولان الشعوب العربية الثائرة تدرك هذه الحقيقة ولان وعي الشباب العربي يتدفق في الساحات والميادين فان مصير قوى الثورة المضادة هي الهزيمة واللحاق بالانظمة الساقطة.

عيد بنكهة الثورة

يحاول الإنسان أن يهرب من السياسة في العيد ليكتب عن أشياء أخرى في الحياة، ليحكي عن الحب والأمل وأفراح الروح، إلا إن العربي يجد نفسه محاصرا بالسياسة من كل اتجاه، وفي كل زاوية.. نحاول أن نهرب إلى الفرح لكنهم يقذفون بنا في بحور الدم والرصاص والموت، ويحاول الناس أن يحتفلوا بالعيد، لكنهم يؤجلون الاحتفال حتى سقوط النظام كما قالت إحدى اللافتات التي رفعها المحتجون في سوريا، انه عيد بلون الدم في سوريا وليبيا واليمن، لكنه عيد تغلفه فرحة تواري الرؤساء المزمنين عن الأنظار، هذا هو العيد الأول منذ أكثر من ربع قرن لا نرى فيه زين العابدين بن علي وحسني مبارك ومعمر القذافي، فهذا أول عيد بدونهم ولذلك أصبح عيد العرب عيدان، عيد بالإفطار بعد الصوم، وعيد سقوط ثلاثة من الطغاة العرب، حكام مستبدون حازوا على ألقاب جديدة مثل الرئيس الهارب والرئيس المخلوع والرئيس "الجرذ"، وهناك طبعا الرئيس المحروق والرئيس الضاحك..

غيبت ثورة الشباب العرب، جيل الانترنت والفيسبوك والتويتر واليوتيوب، وجها سئمنا من رؤيتها ..

هذا الجيل الشاب لم نكن نراه أكثر من لوحة مفاتيح الحاسوب "الكيبورد"، فإذا به جيل الغضب والثورة والفعل، والتمرد والمواجهة والتحدي الذي أطاح برؤوس كبيرة بل الأكبر والاعتى والأكثر دموية في العالم العربي.

يمر العيد علينا داميا ودامعا رغم الفرحة بسقوط الطغاة، فقد كان ثمن سقوط طاغية ليبيا أكثر من ٥٠ ألف شهيد وآلاف الجرحى والمفقودين والمشردين، وبلدا مدمرا خربه القذافي وزمرته الدموية، ويمر العيد ونتذكر مصراتة التي حاصرها القذافي وكتائبه وعصابته ، وصبوا عليها حمم صواريخهم وقذائف دباباتهم، وقطعوا عنها الماء والكهرباء والغذاء والاتصالات، وسمموا خزانات المياه.

أبى القذافي أن يغادر إلا بعد أدمى البلد وأبكاها وحرق أخضرها ويابسها وحولها إلى جمر ونار حمراء كما سبق وهدد هو وابنه سيف.

أما في اليمن فما زال الرئيس المحروق يمارس هوايته في حرق البلد وتخريب ومقدراته ومازال ابنه والقوات التابعة له تعيث في الأرض فساد.. يتشبثون بالسلطة ويعتقدون أن البلد عزبة خاصة لهم.

وفي سوريا لا زال زعيم حزب البعث بشار الأسد يمارس هواية القتل وقصف المدن ومحاصرتها وقصف المساجد واعتقال الأبرياء، بل زاد من وتيرة القتل في رمضان والعيد وحول سوريا إلى جبل من الجثث وبحر من الدماء، ولا زال مستمرا في عنجهيته القاتلة مع نظامه وشبيحته وعصابته.

رغم كل ذلك فان لهذا العيد طعم خاص وفرحة مميزة، فلأول مرة في تاريخ الأمة العربية نشاهد حاكما أسقطه شعبه وراء القضبان، يحاكم بتهم القتل والفساد وتخريب البلد والعبث مقدراتها، هو وأبناؤه وأركان حكمه، مشهد يعلن عصر بداية عصر الشعوب العربية الحرة وعصر الجماهير الثائرة. وكذا الأمر بالنسبة للرئيس التونسي الهارب زين العابدين الذي لم تسعه الأرض، فتحول إلى لاجئ ممنوع من الكلام، وتصدر بحقه أحكام بالسجن ويعمم "الإنتربول الدولي" اسمه كمجرم مطلوب في كل العالم.

كل ثورة وانتم بخير .. كل عام والعرب والمسلمين بألف خير .. كل عام والثوار بألف خير .. كل عام والجيل العربي الجديد بألف خير .. كل عام يا بتول، يا من تنتمين إلى الجيل الجديد وأنت بخير، يا من قضيت عيدك تتفقدين اللاجئين الفلسطينيين في مخيم البقعة وتتفقدين كبار السن في مراكز إيواء المسنين، بدل الذهاب إلى الملاهي.. كل عام والأمة العربية المجيدة والعظيمة بخير وكرامة وحرية وعدالة...

هذا العيد ليسامحنا جدنا أبو الطيب فلن نردد معه بيته المشهور : عيد بأية حال عدت يا عيد .. لان العيد يا جدنا عاد إلينا هذه المرة بفجر جديد طال انتظاره.

حين تفقأ عين زرقاء اليمامة

في مقاله المعنون: "في الربيع العربي.. زرقاء اليمامة لو نطقت"، غاص الأمير الحسن بن طلال في أعماق اللجة في محاولة للإجابة على بعض التساؤلات الجذرية والوجودية وكان صريحا ودقيقا في التوصيف والتحليل، رغم إغفاله لعدد من النقاط المهمة والخطيرة، ولكن جريا على مبدأ حسن النية والاعتراف بما للرجل من وزن وقيمة فكرية واحترام وخبرة في الحكم على امتداد ٣٥ عاما فان ما خطه يستحق المناقشة بكل تأكيد.

اعترف الأمير أن الحراك الشعبي العربي فاجأ الكثيرين من المراقبين عربيا وعالميا وأبدى استغرابه أن "هذه المفاجأة شملت طرفين عربيين هما: مراكز الدراسات العربية، وصناع القرار من مسؤولين كبار حكوميين وغير حكوميين .. ".

وهنا أصاب الأمير واتفق معه فيما ذهب إليه، فصانع القرار في العالم العربي لا يستمع إلا إلى الجوقة المحيطة من مستشارين وأمنيين ممن يقدمون تقارير " غالبا ما تكون غير صحيحة أما عبر قلب الحقائق كليا او تغييب بعضها والإتيان بمعلومات منقوصة"، كما يتم إقصاء كل الأشخاص الشجعان عن دائرة صنع القرار أو المشورة، وعرقلة عمل كل القادرين على تقديم رأي حصيف شجاع لصالح الآراء المماثلة التي تسير في نفس الاتجاه، وهم الذين يطلق عليهم شعبيا "البصيمة" و "حاضر يا أفندم" و "كله تمام يا بيه"، ولقد حدثني مسؤول كبير ذات يوم وهو في السلطة قائلا: اعرف أن فلان يكذب لكنه يريحني، واعلم أن فلان صادق لكنه "بدوش" راسي بصراحة تحليلاته.. لذلك أفضل من يريحني حتى لو كان كاذبا"، يضاف إلى ذلك إغلاق كل قنوات المعلومات الأخرى، مثل الصحافة التي دائما ما تتعرض للرقابة أو تكون في عهدة خائفين، أو طامحين بمراكز ومناصب ولا يريدون أن يلوثوا صفحتهم البيضاء بأي سواد مهما كان تحول دون وصولهم الى هذه المناصب، فتتحول الصحافة إلى "كائن مدجن معلوماتيا" يضر ولا ينفع.

أما مراكز الدراسات في العالم العربي، فهي، في معظمها، ليست أكثر من "دكاكين"، ممولة من جهات حكومية أو أجنبية، تعمل وفق أولويات الغير، وفي إطار نظرته ورؤيته وسياسته، والقليل من المراكز "المستقلة" إن وجدت فهي تعاني من شح المصادر المالية ومن عدم وجود "زبائن" لمنتجاتها الفكرية والدراسات التي تعدها، وغالبا ما يكون نتاجها عبارة عن دراسات مكتبية، لا تعتمد على مسوحات ميدانية أو زيارات، بسبب شح الموارد المالية الضرورية. وأتذكر أن مديرا لأحد مراكز الدراسات المحترمة في الشؤون الإسرائيلية قال لي يوما: "لا احد من المسؤولين يريد أن يعرف شيئا عن إسرائيل"، ولا نبيع اكثر من بضع نسخ، لا يكفي ثمنها لدفع تكاليف الحبر والطابعة عوضا عن دفع تكلفة من قام بإعدادها".

قبل عقدين من الزمان "عملت" مع مركز للدراسات عدة شهور، إلا أن هذا المركز أغلق أبوابه لأنه لم يجد تمويلا، ولم يجد من يشتري نتاجه، وكم شعرت بالمرارة لان المركز كان رائعا رغم صغره، ورغم أن مقره الذي كان أشبه بغرفة في كراج سيارات.. لقد حاولنا في ذلك الحين.. وانتهينا أنا وزملائي إلى البحث عن لقمة العيش.

في العالم العربي لدينا كفاءات عالية المستوى إلا أن هذه الكفاءات يتم تهميشها أو تهجيرها او استهدافها، ففي إحدى المرات حاولت أن أتوسط لصديق من أفضل الباحثين في شان الجماعات الإسلامية للعمل مركز "مسيطر عليه حكوميا" فرفضت الوساطة، لأنه لا يتمتع "حسن سلوك فكري"، رغم انه لم يكن يوما في حياته الا باحثا محترفا ومهنيا على ارفع مستوى"، وهذا ما يفسر غياب مراكز الدراسات العربية المحترمة، وإذا كان " صانع القرار من أصحاب السلطة ينطلق من ذهنية خاصة"،كما قال الأمير، وهو أدرى بدهاليز السلطة والحكم، فان هذه الذهنية لا تغادر مربع "لا أريكم إلا ما أرى"، وهذا ما يفسر غياب الدراسات الحقيقة عن الواقع والحاضر والماضي، أما استشراف المستقبل فتلك قصة أخرى أكثر تعقيدا، فالباحث في عالمنا العربي عليه أن يقلع شوكه بيده، وان يقوم بكل العمل بدون مساعدين، وبدون تنقل أو إجراء مقابلات مكلفة تحتاج إلى سفر أو مسوحات في بعض الأحيان يتم تقنين "استخدام الهاتف" خوفا من الفاتورة، إضافة إلى "محاربة" المنهجية العملية، خاصة إذا كانت النتائج لا تروق لذوي النفوذ والسلطة والتسلط، وهذا ما يفسر أيضا غياب الدراسات الاستشرافية والتخطيط الاستراتيجي..

وإذا كانت هذه المراكز ينبغي أن تكون مثل "زرقاء اليمامة" التي تستشرف الآتي، وبالاستخدام المقلوب لما خطه الأمير، فان الحكومات العربية تتقن "فن فقأ عيون زرقاء اليمامة"، وكل زرقاء لليمامة لأنها لا تريد أن ترى أو تسمع، وعندما تدهمها الأحداث تلجا

إلى مراكز الدراسات الأجنبية التي لا تعرفنا ولا تعرف مجتمعنا ولا تفكيرنا ولا تاريخنا ولا واقعنا ليستفتوها ويطلبون منها المشورة والرأي، رغم أنها غير مبرأة من الأهواء والأجندات والأولويات وهي التي قال الأمير بحقها " مما يزيد الأمر غرابة أنه توجد مراكز أجنبية متعددة تحترف الدراسات الاستشرافية حول المنطقة العربية بمجملها وحول كل دولة فيها بشكل خاص. ولكن نتائج هذه الدراسات لا توظف في تحذيرنا من وقوع أي حدث ولا في إرشادنا لوقاية شعوبنا ومصالحنا من آثاره السلبية، وإنما توظف لخلق أحداث ينشدها الآخرون و لتوجيه مجرياتها لتعظيم المنفعة التي يمكن لتلك الجهات الأجنبية أن تجنيه من الحدث ومن توابعه. ولربما أن ما نشهده الآن على الساحة العربية يستند في بعضه إلى مثل تلك الدراسات وتلك النوايا". وهو كذلك، ومع هذا فان هذه المراكز هي التي خطط للتعليم والصحة والاقتصاد والمجتمع بل والشؤون الدينية في بلادنا، وهي لا تزال مستمرة في عملها في كل البلدان العربية بلا استثناء.

واخلص إلى ما قاله الأمير "أننا بحاجة أكثر من أي وقت مضى إلى استشراف المستقبل بموضوعية وجرأة وإلى ملء الفراغ القائم في هذا النوع المميز من مراكز الدراسات، نريد مراكز تضاهي المراكز العالمية العريقة، ولكن بكفاءات ومتخصصين وحكماء من العالم العربي.." وهي مطالب ضرورية ولازمة، ولكنها للأسف لن تتحقق في ظل الواقع السائد لان بنية نظام الحكم في العالم العربي "بنية صماء مصمتة" تفرض ما تريد بقوة السلاح أو الرشوة أو الإقصاء والتجويع، وبدون "حرية الفكر ورفع القيود عن المواضيع التي يمكن للباحثين الخوض فيها" فإننا سنعتقل أنفسنا في مسار دائري ينتهي دائما حيث بدأ، وبدون إعداد باحثين عرب والصرف عليهم وتامين الحياة الكريمة لهم، وتأمينهم على أرواحهم، فلن يكون بمقدور الأمة العربية أن تتقدم للأمام، وبدون أن تغير السلطة في العالم العربي من سلوكها "الأصم" وعدوانيتها تجاه الباحثين فسوف يكون من الصعوبة بمكان إحداث أي تغيير سلمي، وعندها سيصبح التغيير في العالم العربي من خلال الثورة، وهذا ما يحدث حاليا، وما سيحدث في المستقبل.

حين تضحي الشعوب بحكامها

عيد الأضحى لهذا العام له وجه آخر، وله طعم الثورة والحرية والكرامة والعدالة، عيد هبت فيه رياح الحرية على الوطن العربي، فاقتلعت الطغاة من عروشهم، وأحالتهم إلى حطام في تونس ومصر وليبيا، فكان هؤلاء المستبدون هم أضاحي العيد على مذبح الشعوب الثائرة.

كنا نتمنى أن يأتي هذا العيد بدون دم ولا قتل أو دمار، وان يسمع الطغاة صوت الشعوب، ويتركوا السلطة، لكنهم مضوا في غيهم لاحتكار السلطة وتوريثها لأبنائهم ومحاسبيهم وزبانيتهم، فكانت الثورة التي تعنون العصر الجديد للأمة، وتعطيه اسمه وشعاره مؤكدة أن العرب بدؤوا مرحلة الانتقال إلى عصر الحرية والدفاع عن حق تقرير المصير وحكم الذات وتداول السلطة.

لم يرق لهؤلاء الحكام أن تقرر الشعوب مصائرها وقمعوها، فنزلوا الى الشوارع بخيلهم وخيلائهم وعساكرهم ودباباتهم وراجمات صواريخهم ومرتزقتهم وجمالهم وبلطجيتهم وبلاطجتهم وشبيحتهم، وسفكوا الدماء في الشوارع والميادين وقصفوا البيوت وقتلوا الابرياء المسالمين، واصطاد قناصتهم الشباب وقتلوهم بدم بارد.

لم يقنع هؤلاء بحكم البلاد والعباد سنوات طويلة، أطول من كل ملوك الأرض، وأرادوا أن يخضعوا هذه الشعوب عنوة وبقوة السلاح، وأن يجبروهم على قبول التوريث أو الموت والقتل والدمار، فقتل بن علي ومبارك المئات وقتل القذافي ٥٠ ألف ليبي، ومازال اليمني علي صالح والسوري بشار الأسد يمارسان القتل اليومي، وأصبح صيد رؤوس الناس هواية لهما، يتلذذان بسفك الدم وتراكم الجثث.

كم هو جميل هذا العيد بدون بن علي ومبارك والقذافي، وكم كان سيكون جميلا أيضا بدون علي صالح وبشار الأسد، انه عيد مبهج مفرح في تونس بدون بن علي وزوجته وإخوانها وأصهارها الذين عاثوا في تونس فسادا واهلكوا الحرث والنسل، وكم هي جميلة مصر بدون مبارك وجمال وعلاء وسوزان، وزبانيتهم الذين سرقوا خيرات مصر وأفقروا أهلها وحولوا البلد إلى مزرعة لهم، وجعلوا من ٨٠ في المائة من المصريين فقراء بل بدون خط الفقر.

وكم هي جميلة ليبيا في العيد بدون "ملك ملوك المجانين و عميد الطغاة والمستبدين وعقيد الشر" الذي عقد في كل "زنقة" عقدة من شره، كم هي جميلة بعد أن تخلصت من "مجنناته" وهذيانه وترهاته وكتابه الأخضر الذي سود حياة الليبيين، كم هي جميلة ليبيا بدون سيف وتهديداته الجوفاء، وكم هي جميلة بدون معتصم وخميس والساعدي والسنوسي وموسى ابراهيم، لأنهم لم يكونوا أكثر من معامل للشر والشرر والظلم.

لكن العيد لم يكتمل بعد، فزعيم النظام البعثي السوري بشار الأسد ما زال يقتل في حمص وحماة ودرعا ودير الزور وريف دمشق، ومازال شبيحته ينشرون الرعب والخراب في سوريا، كما نشر القرامطة الرعب في مكة المكرمة وهدموا البيت العتيق واحتجزوا الحجر الأسود وقتلوا الحجاج، انه تاريخ اسود للنصيرية القرمطية الحاقدة على الامة.

أما في اليمن فان العيد لم يكتمل، فخليفة أبرهة الأشرم مازال يتشبث بالسلطة ويمارس القتل ويتسلط أبناؤه وأقرباؤه على الشعب اليمني بدعم من دول قريبة وبعيدة، ويرفض أن يستجيب لنداءات العصر العربي الجديد ويرحل.

العيد أيام فرح وذكريات مبهجة، لكنه في عالمنا العربي، عيد مسربل بالدم، دم الشعوب الثائرة ودم الأبرياء من الثوار وطالبي الحرية، والدم المسفوك على أعواد مشانق الاحتلال وأعوانهم من الطائفيين، الذي رفضوا الاعتراف بالاضحى عيدا وضحوا بالرئيس العراقي صدام حسين في يوم العيد، وقادوا العراق إلى الدماء والخراب.

لا أريد أن أدافع عن صدام حسين ولا عن تاريخه أبدا.. ولكن عيد الأضحى تضمخ بدمه وهو يشنق بأيدي الاحتلال وأعوانه الذي أصروا على إعدامه يوم العيد.. ولكنني أدافع عن النبل والأخلاق، فهل من الأخلاق إعدام إنسان في يوم العيد، وهل من الشرف والعروبة فعل ذلك، وهل كان العرب يقتلون أحدا في يوم عيد.

لكننا مع هذا نعيش مع الأمل بالأفضل، والغد المشرق المفعم بالحرية والعدالة والاستقلال .. نعيش يحدونا الامل بعيد يملؤه الفرح بدون دم ولا قتل ولا حكام مستبدين ولا طغاة يستعبدون الشعوب.

نحن امة غنية أتاها المال الحضارة والتاريخ والقيم والأخلاق.. لقد حبانا الله نعمة التوحيد وأفضل الأماكن الثروات والرجال، امة ودودة ولودة.. لا ينقصنا إلا حكام ينتمون إلينا وننتمي إليهم، يحكموننا برغبتنا وأصواتنا لا رغما عنا.. نضحي من اجلهم ولا نضحي بهم.

وكل عام وانتم بخير

إجهاض الثورات بالمبادرات

يمكن تصنيف الثورات العربية حتى الآن على النحو التالي: ثورة ناجحة في تونس، وثورة منتصرة في ليبيا، وثورة يتم الاحتيال عليها في اليمن، وثورة يعبث بها لإحباطها في مصر، وثورة يمهل فيها الطاغية في سوريا وثورة غير مرغوب بها في البحرين.

الخيط الجامع بين الثورات التي تتعرض للاحتيال والعبث والامهال هو كثرة المبادرات التي لا تهدف إلى إجهاضها بنعومة والتخلص منها "بالضربة الفنية القاضية" بلغة الملاكمة، والتي تعني هزيمة الخصم دون قتله.

في مصر تبدو الأمور واضحة جدا، فهناك "جهات" داخلية وخارجية تدعم الجنرالات الذين يمسكون بتلابيب الحكم للبقاء في السلطة أو "هندسة الأوضاع" بما يضمن سيطرتهم على البلاد من وراء ستار، باستخدام سياسة "السلطة بالمصانعة"، أي صانع "الغوغاء" في ميدان التحرير من خلال تبني "خطاب ناعم" حتى تحين الفرصة الملائمة للسيطرة العلنية "الخشنة" على الحكم، ولهذا شاهدنا المجلس العسكري ينتقل من مرحلة إلى أخرى للامساك بالمفاصل، فكانت المرحلة الأولى هي إظهار الصمت والحياد ثم إعلان تأييد الثورة وتحية الشهداء في المرحلة الثانية وبعد ذلك "قصقصة" مطالب الثورة والانتقال بها من الإطاحة بالنظام إلى محاولات تجميل صورة النظام وإصلاحه من الداخل، وهو ما تم من خلال الاستفتاء على تعديل الدستور بدل إلغائه وهو ما تم في المرحلة الثالثة وتعيين حكومة "دمى"، ثم الانتقال إلى المرحلة الرابعة وهي مرحلة التعديلات فوق الدستورية لضمان سيطرة العسكر على السلطة في مصر بشكل غير مباشر، وتحويل الجيش إلى "دولة داخل الدولة" بعيدا عن الرقابة والمحاسبة، ثم المرحلة السادسة وهي التصدي للثورة بشكل مباشر ومحاولة إخلاء ميدان التحرير بالقوة مما أسفر عن مقتل ٤٠ مصريا في ٣ أيام، وأخيرا الانتقال إلى المرحلة السادسة وهي انزال الفلول والمؤيدين للمجلس العسكري وحكم الجنرالات إلى ميدان العباسية

للتصدي للشعب الثائر في ميدان التحرير وميادين كل المدن المصرية بعد فشل سياسة "الاحتواء الخشن".

المجلس العسكري المصري وجنرالاته يلعبون بالنار، وهم يلجأون إلى خيار "سلاح الدمار الاجتماعي الشامل"، بإنزال مؤيدين لحكم العسكر في الشوارع، كما يفعل علي صالح في اليمن وبشار الأسد في سوريا، لمحاولة احتواء فشل سياسة "الاحتواء الناعم" لميدان التحرير.

عدم ادراك المجلس العسكري الحاكم في مصر ان الشعب في ميدان التحرير وميادين المدن الأخرى لن يتراجع ولن يقبل بحكم العسكر مهما كان الثمن، سيكف غاليا، وعدم رضوخه لمطالب الثورة المنتصرة سيكون خطرا وخاسرا في نفس الوقت، وقد يدخل مصر في اتون صراع كبير قد يؤدي إلى شق الجيش، وتمرد بعض وحداته كما يحصل في اليمن وسوريا.

مشكلة جنرالات المجلس العسكري الحاكم تكمن في عدم رغبتهم بالخروج من المشهد السياسي والعودة إلى ثكناتهم، وهذه الرغبة لدى الجنرالات تدعمها قوى إقليمية ودولية لا ترغب بانتصار الشعب المصري وثورته، ولا تريد أن ترى انتخابات على الطريقة التونسية يعبر فيها الشعب المصري عن راية بحرية، ويختار من يحكمه، وهذه القوى تريد أن تحول دون نجاح الثورة المصرية وتحولها إلى "نموذج" يحتذي به في العالم العربي والعالم، ولا تريد أن تشاهد أركان الفساد والمفسدين وهو يتساقطون الواحد تلو الآخر ويقدمون للمحاكمات مما يفتح "شهية" الشعوب العربية في الدول الأخرى لمحاولة محاكاة النموذج الناجح للثورة في تونس ومصر.

وهذا ما يفسر الحيلة الكبرى لإنقاذ نظام صالح في اليمن من خلال مبادرة تقدم "حصانة" لزعيم نظام يطالب شعبه بمحاكمته، كما يفسر تطوع بعض الدول لتقديم مبادرة لإنقاذ نظام بشار الأسد في سوريا، فهذه القوى تريد ان تضحي برؤوس هذه الأنظمة دون أن يؤدي ذلك إلى انهيار النظام بالكامل، والحيلولة دون انتصار الشعبين اليمني والسوري، وتحول الثورات الى قصص نجاح يمكن أن تتكرر في بلدان أخرى.

هذه المبادرات ستفشل لان الشعوب العربية واعية وتدرك ما يجري حولها، وتراقب "الحيل والدسائس والمراوغات ومحاولات اللف والدوران"، وتصر على انها لن تتراجع عن تحقيق اهدافها باختيار من يحكمها.

"لا حصانة لأحد"، كلمة قالها رئيس الوزراء القطري حمد بن جاسم آل ثاني، وهي تعني ان هذه القوى تلعب في الوقت الضائع، لان الأمة العربية دخلت في "عصر الجماهير" وعصر

كسر الخوف والتصميم على الانتصار، وكل تأخير يعني زيادة كلفة الدم دون أن يمنع انتصار الشعوب في معركتها ضد الاستبداد والظلم .. وهي معادلة أظهرتها الثورات حتى الآن، فالشعب التونسي دفع ٥٠٠ شهيد خلال ٢٨ يوما وانتصر، والشعب الليبي دفع ٥٠,٠٠٠ شهيد في ٨ شهور وانتصر ، والشعوب الأخرى ستنتصر هي الأخرى بإذن الله مهما كان الثمن، ومهما كانت "مبادرات الاحتيال واللف والدوران والضحك على الشعوب". فالشعوب أوعى مما يتصور الطغاة.

الإسلاميون وتحديات السلطة

بدأ الإسلاميون في العالم العربي بقطف ثمار الثورات الشعبية العربية التي انطلقت قبل عام في سيدي بوزيد التونسية، فقد أسفرت نتائج الانتخابات التي جرت في تونس والمغرب ومصر عن فوز كبير للتيارات الإسلامية التي اختارت أن تنزل إلى الساحة ببعض قوتها، وكشفت هذه الانتخابات عن شعبية الإسلاميين في الشارع، وهو ما ترجمته صناديق الاقتراع التي نقلتهم من المعارضة إلى الحكم ومن النظرية إلى التطبيق ومن الشعارات إلى الفعل ومن الدعوة إلى السلطة ومن الشارع إلى إدارة دفة الحكومة.

هذا الانتقال للإسلاميين من المعارضة إلى كراسي الحكم يحمل في طياته الكثير من التحديات التي تحتاج إلى حلول عملية ومرضية للناس العاديين، وهي تحديات يمكن أن تطيح بهم وتحرق رصيدهم الشعبي إذا ما أسيئ التعامل معها.

يرث الإسلاميون في تونس والمغرب ومصر أوضاعا صعبة جدا، فهذه البلاد تعاني من ارث من الفساد والاستبداد وسوء الحكم والتفرد بالقرار واحتكار السلطة وسوء الأوضاع المعيشية وتفشي الفقر والبطالة وتدهور الحالة الاقتصادية والمديونية العالية، وهذا الإرث السيئ يثقل كاهل أي حكومة مهما كانت، لأنه يرتكز إلى حالة متفشية من الفساد على كل الصعد، وهي نتاج أخطاء تراكمت عبر عقود من الزمن.

وربما يكون التحدي الأكبر الذي سيواجه "الحكومات الإسلامية" هي الآمال العريضة التي بناها الناس على الإسلاميين الذين يتمتعون برصيد كبير من الثقة، وهو الرصيد الذي بنوه عبر إقامة شبكات للخدمات الاجتماعية والإغاثة تشمل جمعيات خيرية ومستشفيات ومراكز صحية ومدراس وجامعات ومؤسسات نفع عام، وهذا تاريخ لا يستطيع احد أن ينكره للإسلاميين الذي ساهموا بتقديم الغذاء والدواء والملبس للفقراء حسب الإمكانيات المتاحة القليلة، التي عملت على اطعام الجوعى ومداواة المرضى ولو بالقليل من المال، وسدوا عجز الدولة عن القيام بمهامها في بعض الأحيان عبر

ومن هنا يبرز التحدي الكبير والخطير أمام الجماعات والأحزاب الإسلامية في الحكم، فالناس ينتظرون منهم حلول لمشاكلهم على غرار ما تقوم به جمعياتهم الخيرية والتعليمية والصحية، وهذا ما يصعب من مهمتهم، فلا يمكن إدارة الوطن كما تدار الجمعية الخيرية، فالحكومة تعني استيفاء ضرائب وإجبار الناس على دفع الفواتير والرسوم، ولا تعني تقديم الهبات المجانية فقط، وإذا ما نظر الناس إلى الإسلاميين في الحكم بوصفهم جمعية خيرية فان هذا الأمر سيوجه ضربة قاضية لهم.

وهذه المشكلة لن تكون الوحيدة، بل سيرافقها مشكلة تقاسم السلطة مع الآخرين، وهذا يعني ان السلطة ستكون شراكة بين الإسلاميين والقوى السياسية الأخرى، وان قواعد الحكم ستكون حسب وصفة "الحلول الوسط" أو الصفقات، وبالتالي التخلي عن كثير من السياسات التي يرى الإسلاميون أنها مفيدة لخدمة المجتمع إذا عارضها الحلفاء أو الشركاء في الحكم، وهذا بدوره سيصعب من مهمتهم في مواجهة المضلات الكثيرة للمجتمع والمشاكل الكبرى.

المطالب من الإسلاميين في الحكم كثيرة يقف على رأسها، تأسيس قيم الحرية وحقوق الإنسان ووقف سياسة الإقصاء ووقف الطروحات المتطرفة والابتعاد عن الشللية والابتعاد عن الثار من الخصوم الذي مارسوا ضدهم الإقصاء والتعذيب، وممارسة السلطة ضمن قواعد اللعبة وعدم الانقلاب عليها وتقديم برامج حكم واضحة وسياسات مدروسة، والدخول في الشراكة بدل المواجهة، والابتعاد عن السجالات غير المجدية وترتيب البيت الوطني وتوفير خيارات اجتماعية واقتصادية وتنفيذ إصلاحات حقيقية، والابتعاد عن الشللية والمحسوبية والواسطة، وهدم البنى التحتية للفساد، وعدم استفزاز المؤسسة العسكرية، واحترام حقيقة أنهم يقطفون ثمار الثورات التي قامت بها الشعوب، دون عون من هذه التيارات الإسلامية، ودون تحرك فاعل لم يأت إلا في وقت متأخر.

الإسلاميون وصلوا إلى السلطة، هذه حقيقة، ولكن بنسبة ٤٠ في المائة، وهذا لن يمكنهم من احتكار السلطة، وهذا أمر جيد لكي يطبقوا مبدأ الشراكة الفعلية، ويرشدهم إلى بناء قواعد جديدة للعبة السياسية يكون الآخر جزءا حيويا وفاعلا فيها.

تجارب الإسلاميين السابقة في السلطة غير مشجعة، وهم لا يتحملون السبب وحدهم، فقد تعرضوا لحرب شعواء في كل الدول العربية تقريبا، أما الآن فهم أسياد الميدان السياسي بعد ان صبروا وقدموا التضحيات وعانوا في السجون والمعتقلات، لكن عليهم أن يعوا أن عاما واحدا في الحكم قادر على إحراق ١٠٠ عام من النضال، فهل سيجيد الإسلاميون إدارة دفة الحكم كما أجادوا لعبة المعارضة.

الإسلاميون.. ومصائد الفئران

يواجه الإسلاميون هجوما متعدد الرؤوس يقوده التحالف الثلاثي "الغرب والعلمانيون والفلول"، وذلك بعد اكتساحهم الانتخابات في تونس والمغرب ومصر، وهي هجمات مركزة تستخدم أسلحة متعددة مثل التشكيك والتخويف والتأليب والتحريض والاستفزاز بهدف جرهم إلى معارك جانبية، ووصل الأمر بالملياردير المصري نجيب ساويرس إلى دعوة الغرب للتصدي "للزحف الإسلامي" بمشاركة من الليبراليين العرب.

اخطر ما ينتظر الإسلاميين في المرحلة المقبلة هي الفخاخ التي سيتم نثرها هناك وهناك لعرقلة عملهم في المجالس التشريعية أو التنفيذية، وهي مصائد كثيرة وخطرة، يزيد من خطورتها الأوضاع العامة التي تسود الأقطار العربية المختلفة، خاصة البلدان التي شهدت وتشهد ثورات من حيث الأوضاع الاقتصادية المتردية والحالة المعيشية الصعبة والانفلات الأمني وانتشار الفساد وميراث الاستبداد والطغيان واحتكار السلطة والحكم، وهي تشكل معا مستنقعا قادرا على إغراق امهر القادرين على الخوض في اللجة.

ما يقوم به هذا التحالف الثلاثي هو محاولة تشتيت تركيز الإسلاميين ببعثرة جهودهم واستنزافهم في الرد على جبهات مختلفة، وهي حيلة مكشوفة لأنها من "محفوظات" العمل السياسي التي تعتمد على نصب الكثير من المصائد الحقيقية والوهمية لجعل الخصم في حالة استنفار دائم، وفي حال فشل هذه المصائد يتم الانتقال إلى خطوات عملية مثل التأثير على الأوضاع الاقتصادية بواسطة رجال اعمال وتجار وتحريض الشارع وصولا إلى تحريض الجيش أو استخدامه للانقلاب على نتائج صناديق الاقتراع والإطاحة بالفائزين "غير المرغوب بهم" كما حصل مع الجبهة الإسلامية للإنقاذ في الجزائر.

ومن هنا فان المكائد والمصائد والفخاخ التي يلجا إليها الثلاثي المعادي للإسلاميين "الغرب والعلمانيين والفلول" تبدأ من بث الشائعات والتخويف من حكم الإسلاميين بوصفهم غيلان

سيمنعون " ارتداء البكيني وشرب الخمر" وسيجبرون النساء على لبس النقاب وسيجعلون طول اللحية هو مقياس القبول في المجتمع، وسيرتدون بالمجتمع إلى "عصر طالبان" وسيحاربون الأقليات والحريات الشخصية والفن والسينما والتلفزيون وسينقلبون على الديمقراطية بعد ذلك.. وما إلى هنالك من "كلايشيهات" جاهزة للاستخدام دائما، والهدف من هذه الاتهامات هو جر الإسلاميين إلى "مربع الدفاع الدائم عن النفس" ومحاولة تبييض الصفحة، وتقديم شهادات حسن سلوك يومية.

الإسلاميون ليسوا ملائكة ولا معصومين، فلديهم الكثير من الأخطاء ككل البشر، ومن الطبيعي محاسبتهم عليها، ولكن من غير الطبيعي ولا المنطقي ولا المعقول محاسبتهم على "أخطاء افتراضية" لم يقترفوها، فهم لم يتسلموا الحكم بعد، ولم ينقلبوا على الديمقراطية، ولا أقاموا دولة دينية، ولم ينتهكوا الحريات، بل على العكس من ذلك الإسلاميون كانوا ضحية الاعتداء على الحريات والديمقراطية والانقلابات والسجون والمعتقلات والتعذيب والإقصاء من العمل السياسي والوظائف والإبعاد والتشريد والمراقبة والاغتيال من قبل حكومات مستبدة قادها طغاة تحالفوا مع العسكر والعلمانيين والغرب، وهؤلاء ما زالوا يتآمرون على الإسلاميين حتى قبل أن يستلموا الحكم.

على ثالوث الشر " الغرب والعلمانيين والفلول" أن يكفوا عن ألاعيبهم وخداعهم ومؤامراتهم ومعاركهم القذرة وضربهم تحت الحزام، وان يحترموا قواعد اللعبة الديمقراطية وصوت الشعب وصناديق الاقتراع، وعلى الإسلاميين أن يحذروا من "مصائد الفئران" التي ينصبها هؤلاء لهم لاستنزافهم، والكف عن التعامل مع الحاضر بعيون تنظر الى الماضي والكف عن خوض معارك "النقاب والبكيني"، فهموم الشعوب اكبر واعقد من ارتداء هذا، ولنا في تركيا قدوة حسنة، فالإسلاميون الأتراك لم يستنزفوا أنفسهم في معارك جانبية، وتعاملوا مع الدولة المدنية كما هي، وتركوا الناس أحرارا في لباسهم ومعتقداتهم، فكانت النتيجة أن نصف الشعب التركي صوت لهم، ومنحهم واحد من كل اثنين من الأتراك ثقته وجدد لهم ولاية جديدة في الحكم، وهذا لم يأت من فراغ، فإسلاميو تركيا أنقذوا بلادهم من الإفلاس، وارتقوا بتركيا إلى المركز ١٧ على لائحة أقوى الاقتصادات في العالم وجلبوا الأمن والاستقرار لمواطنيهم وحاربوا الفساد، فمكنهم الشعب من تقليم أظافر المؤسسة العسكرية، واجبروا العسكر على البقاء في ثكناتهم.

معركة الإسلاميين المقبلة هي محاربة الفقر وليس البكيني، وتوفير الأمن وليس فرض النقاب، وتشغيل العاطلين عن العمل وليس إطالة اللحى.. والارتقاء بالاقتصاد وليس الانشغال بمعارك جانبية .. وعندها سيتحول المجتمع كله إلى القيم الإسلامية العملية بدون إجبار بل

بالاختيار، فالشعوب العربية التي صوت ٦٥ في المائة من مواطنيها للإسلاميين تنتظر منهم الكثير، فهذه الشعوب اختارت التصويت للإسلاميين ولم يجبرها احد على ذلك، وهي بذلك تمنحهم فرصة ذهبية لإثبات وجودهم السياسي وقدرتهم على الحكم الرشيد، وهي فرصة يصعب أن تتكرر إذا اخفق الإسلاميون بإدارتها جيدا ..

أيها الإسلاميون .. لا يخدعنكم العلمانيون والغربيون والفلول عن مهمتكم في الحكم ولا تسمحوا لهم باستنزافكم وشمروا عن سواعدكم لخدمة الشعوب التي منحتكم ثقتها واحذروا فخاخ "فئران المصائد" والمعارك الجانبية.

إسرائيل زائلة لا محالة

تقاطر الشباب العربي والفلسطينيين على الحدود مع فلسطين في يوم النكبة يظهر أن فلسطين تسكن قلوب وعقول العرب من المحيط إلى الخليج، رغم محاولات الكيان الصهيوني والغرب ومعهم أنظمة عربية رسمية لمحو فلسطين من الذاكرة.. وان هذه المحاولات باءت بالفشل الذريع.

جهدت إسرائيل ومعها حلفاؤها من أنظمة رسمية عربية بما فيها سلطة محمود عباس وسلام فياض على إبعاد فلسطين عن المناهج الدراسية والمساجد، وحاول الكيان الصهيوني التصدي لكل ما من شانه أن يذكر بفلسطين من أفلام ومسلسلات ومقالات وإشعار وكتب ومحاضرات، فقد أقامت إسرائيل الدنيا ولم تقعدها على مقال كتبه مثقف فلسطيني أو قصيدة شعر مثل تلك التي كتبها محمود درويش "عابرون في كلام عابر"، وحالت دون عرض فلم وثائقي عن مجزرة دير ياسين في الأمم المتحدة، وغضبت من المسلسل التركي "وادي الذئاب"، فكانت ردة فعلها عنيفة إلى درجة إهانة السفير التركي ومعاملته بطريقة مذلة..

لا تعمل إسرائيل وحدها في هذا المضمار بل تساندها مؤسسات و "لوبيات" وحركات مثل الحركة الماسونية السرية والأندية المرتبطة بها وما يسمى بمراكز الدراسات والأبحاث و بعض الجمعيات والأندية و"منتديات السلام" وغيرها من مسميات زائفة لا هم لها إلا تامين الدعم والحماية لإسرائيل.

لقد اثبت الشباب العربي والفلسطيني انه عصي على التدجين والتركيع والتخويف، وانه لا ينسى فلسطين أبدا، فالعرب يمكن أن يختلفوا على أي شيء لكنهم لا يختلفون على فلسطين، والعربي المسكون بالعاطفة يغفر لمن يؤذيه، لكنه لا يغفر المجازر الإسرائيلية بحق الفلسطينيين ولا اعتقال ١١ ألف أسير فلسطيني في ظروف غير إنسانية، ولا حصارها لقطاع غزة.

وليس من قبل المصادفة أن يتقاطر الشباب العربي والفلسطيني في لبنان والأردن ومصر وسوريا ومصر، ويشدون الرحال إلى فلسطين ويقفون على الحدود ويلقون الحجارة باتجاه جنود الاحتلال الإسرائيلي، ويتلقون الرصاص بصدور عارية حبا بفلسطين وأرضها والقدس والمسجد الأقصى و كنيسة القيامة.. حبا بمحمد صلى الله عليه وسلم والمسيح عليه السلام.. حبا بالتاريخ والحضارة والثقافة.. حبا بالعزة والكرامة والحرية.. حبا بأرض الأنبياء والمعراج والمحشر والمنشر.. فكل عربي ومسلم يعتبر فلسطين أرضه، وهي كذلك فهي ارض وقف لكل المسلمين، حتى وان سكنها الفلسطينيون.

لقد حان وقت الرحيل لإسرائيل وخرافاتها وأساطيرها.. حان وقت النهاية لهذه الكذبة الكبرى التي أهلكت الحرث والنسل وسممت العلاقات بين العرب والغرب .. حان وقت الرحيل لان الأنظمة التي تحمي هذا الكيان ترحل، ومن يحمون حدود هذه الكيان المصطنع يسقطون الواحد تلو الآخر، ليس هناك من خيار آخر لهم إلا الرحيل فقد اخذوا حصتهم من دمنا وعليهم أن يحملوا قبورهم ويرحلوا كما قال شاعر فلسطين الكبير محمود درويش .. لا خيار أمام هؤلاء اليهود المحتلين المستعمرين في فلسطين إلا الرحيل، لان الفلسطيني لا يقبل بديلا عن وطنه وأرضه حتى لو أعطيت الدنيا كلها له، وكما كتب صديقي الكاتب الرائع سامي الزبيدي فان "الفلسطيني الذي يحتفظ بمفتاح حوش الدار لا يزال يورث حلمه للأبناء فلا احد في الدنيا يورث الحلم إلا الفلسطيني وهذه ميزته على سائر اقرأنه من بني البشر... يولم الناس لأفراحهم ويولم الفلسطيني كل ليلة لأحلامه التي ترافقه أنّا حل وأينما رحل، يستمطر غيمة آتية من الغرب علّ فيها رائحة البرتقال، فيافا هي يافا وان علت فيها ناطحات السراب والعودة آتية – كما الساعة لا ريب فيها فطوبى للحالمين".

المحتويات

سوريا

قطر

قضايا عربية



في عصر الثورات العربية التي أطاحت بحكام لم يظن الكثيرون أنهم سيختفون عن المشهد إلا بالموت كان لا بد من توثيق اللحظة والصورة، من هروب التونسي بن علي إلى خلع المصري مبارك وقتل الليبي القذافي وحرق اليمني علي صالح ومحاصرة السوري بشار الأسد، فجاء هذا الكتاب ليوثق لحظات بعينها بكل تفاصيلها، ويحكي قصة الألم والأمل والثورة والانتصار والجيل الجديد من الشباب العرب الذين صنعوا التغيير.

هذا الكتاب ليس تاريخا ولا تأريخا بل، هو تسليط للضوء على بعض مفاصل الثورات العربية، التي سيخلدها التاريخ إلى الأبد لصناع العصر العربي الجديد الذين أطاحوا بزعماء كان البعض يظنهم آلهة، فإذا هم آلهة من ورق يديرون أنظمة مارقة سرعان ما سقطوا كأوراق الخريف أمام تسونامي الشباب العربي الثائر الذين أعادوا إلى حلبة التاريخ مرة أخرى

لحجاوي



مركز المحـ
للنشر و الخدمات ا